سنة الراديو

رواية

رينيه الحايك



رينيه الحايك

سنة الراديو

رواية



رينيه الحايك

سنة الراديو

الكتاب: سنة الراديو/ رواية

المؤلف: رينيه الحايك

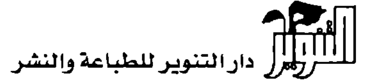
عدد الصفحات: 272 صفحة

الترقيم الدولي: 978-977-6483-46-0

رقم الناشر: 2015/17738

الطبعة الأولى: 2015

الناشر:



مصر: القاهرة–وسط البلد–19 عبد السلام عارف (البستان سابقًا) –الدور 8 – شقة 82

هاتف: 0020223921332

بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

لبنان: بيروت – بئر حسن – سنتر كريستال، الهزيم – الطابق الثالث -

هاتف : 009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر – 1001 تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

إلى مروى وربيع



خرجت في 15 كانون الثاني من المستشفى. ندبة حمراء عميقة تغطّي ذراعي. كانت أميّ تحيط كتفي وتمسك بالجاكيت التي بقيَ كمّها الأيسر متدلّياً. تقدّمَنا أبي إلى السيارة. سألته أمّي ما إن جلست على المقعد قربه عن فاتورة المستشفى. قال لها لاحقاً.

قبل وصولنا إلى البيت كان المطر قد بدأ ينهمر. شاحنة سوكلين تفرغ المستوعبات. توقّف السير. استدارت أمي لتكلّمني وتسألني إن كنت متألمة. للمرّة العاشرة ربّما تعدّد من اتصل ومن زارني في ساعات غيبوبتي القصيرة. كان بامكاني أن أدّعي فقدان الذاكرة وأعامل الجميع على أنّهم غرباء وأرتاح لوقت. في الأيّام التي استعدت فيها وعيي سمعت أبي وأمي يكرّران وقائع الحادث على أصدقائي وأقاربي. كانا يخفضان رأسيهما في كل مرّة ويقولان «الحمدلله. الله يعين أهل سامر». ثمّ يؤكّدان بأنّني لم أكن أعرفه قبل السهرة.

فعليّاً ما كنت أعرفه. ركبت سيّارته لأدع كريستيل وأحمد وحدهما. أحمد من دعا سامر ليعرّفني عليه. طوال السهرة كنت أدخّن سيجارة تلو الأخرى. أردّ على أسئلته أو أتظاهر بعدم سماعها. ما عرفته عنه هو ما سمعته بعد الحادث. لا أذكر حقاً كيف حصل. كنت أضع سمّاعات الأذن كي لا أضطرّ إلى الحديث. وكان سامر قد قنع بذلك بعد محاولات غير مجدية. تعرّف على فتاة في الملهى ورقص معها في القسم الأخير من السهرة. أذكر شكل الفتاة أكثر مما أذكر سامر. الفتاة بدت في الثامنة عشرة على الأكثر ترتدي بلوزة لا تغطّي شيئاً من بطنها وقد ظهر وشم تنّين ملّون عند خاصرتها. حدّقت به لأنّ ألوانه قويّة ولامعة. أحاول أن أذكر ما كان

يرتديه، ما كان لون عينيه، لكنّ الشيء الوحيد الذي أذكره هو أصابعه الطويلة الملساء والانزعاج الذي يبديه من الدخان. استمرّ في تساؤله «أليس الدخان ممنوعاً في الأماكن المغلقة؟».

ألصقت وجهي بالشبّاك وحاولت أن أستعيد الحادث. فشلت. لماذا لا أستعيد التفاصيل؟ صوت الارتطام العنيف هو كل ما بقي في رأسي. لا أذكر حتى أنني أخفيت رأسي بذراعي.

طعم الأدوية في فمي يشعرني بغثيان دائم. أنظر إلى رأس أبي، إلى شعره الأبيض والانحناءة الدائمة بين كتفيه. ليس الشيب هو ما يبديه عجوزاً فأمّي تصبغ شعرها لكن ذلك لا يجعلها أصغر. كانا كبيرين دائماً حتى حين كنت طفلة. أهل رفاقي كلّهم أصغر من أهلي. أذكر أنني في الصف الخامس ابتدائي صرت صديقة لديما لا لشيء سوى أنها مثلي لديها أبوان عجوزان. لكنّ ديما كانت وحيدة وتحصل على كلّ ما تحلم به. كانت أوّل من اشترى لها أهلها هاتفاً خليوياً حتى قبل أن تتعلّم استخدامه.

السيجارة التي أشعلها لا تثير استياءهما، كالعادة اكتفيا بفتح الشباك. كان الهواء يحمل إليّ رذاذ المطر. أعلم أنّهما لن يقولا ما اعتاداه. ألست الناجية بأعجوبة من الموت؟ جملة كانت تقولها أمّي لكلّ من اتصل. تعيدها على مسامع أختي ريتا. على خلاف عادتها، راحت تتصل يومياً. كم كنت أحسدها هي التي تكبرني بأربعة عشر عاماً. ابتعدت منذ تخرّجت كممرّضة. صحيح أن سفرها إلى فرنسا حصل صدفة لكنها حرّة. لديها عملها في مستشفى سان جان في مدينة ليون. تعيش مع صديقها. عندما رافقها في زيارة إلى لبنان منذ سنتين ادّعت أمي أمام أقاربنا ومعارفهم بأنه خطيبها. أمّا أبي فامتنع عن توجيه الكلام إلى بيير. كثيراً ما كنت أسمعه في الصباح الباكر يتشاجر مع أمي بشأن أختي وصديقها، تضيق أمي بتبرّمه الدائم، كانت تسأله «ما شأني أنا؟ هي ابنتك كما هي ابنتي، صارت فرنسية وتتصرّف مثل الفرنسيين» ثمّ تضيف كأنّها تحاول انعاش ذاكرته

«18 سنة وهي بعيدة وتتدبّر أمورها، الآن تريد تربيتها؟» كنت أضحك حين أسمعهما ولا أنال منهما إلا نظرات غاضبة تخرجني من المطبخ. أختي كلودا هي الوحيدة التي تنال رضا أهلي. كانت متفوّقة في دراستها. درست الصيدلة وتزوجت صيدلياً مثلها ولديها ابنان جميلان. يظلّ أهلي يتباهيان بتربية حفيديهما، بذكاء كلودا، وأخلاق زوجها. لأغيظهما لا أناديها باسمها ولا أسميها أختي. أقول «ابنتكما اتصلت». عندما تزوجت كنت لم أبلغ بعد العاشرة من عمري. رغم ذلك بدأت أتشاجر معها في كلّ مرّة تأتي فيها لزيارتنا. كان لديها دائماً ملاحظات بشأن نتائجي المدرسية، بشأن ملابسي، وأصدقائي. أقول لها «لست لا أمي ولا أبي». حينها يسارع أحدهما ليقول لي أن أقفل فمي وأحترم أختي. اعتدت أن أتوارى في غرفتي في كلّ مرة تأتي فيها وأكون في البيت. لأردّ عليها أقول لها أحياناً بأنني أشفق على ابنيها من أم مثلها. هذا أقسى ردّ بالنسبة إليها. إذ سرعان ما تنهمر دموعها وتسارع أمي إلى نعتي بالغبية التي لا تنفع في شيء.

أحسّ أنني تائهة من دون هاتفي. تحطمّ في الحادث. في كلّ مرّة يأخذني عقلي إلى سامر، أقول إنني ما كنت أعرفه فلماذا أحزن هكذا وتظلّ أفكاري تدور بعناد حول تلك اللحظات المنسيّة. من كان؟ حتى اسمه الكامل وعمله ما عرفته إلا بعد موته. يريد منّي أهلي أن أتقدّم بدعوى ضدّ السيارة التي صدمتنا. سألتهما وبم تفيد الدعوى؟ لا أدري لماذا أحسّ بأنني مسؤولة عن موته تماماً مثل ذلك السائق الأخوت الذي كان يقود بعكس السير. الصورة التي وُزّعت بعد موته هي الصورة التي ارتسمت له في بالي. كانت أمي تفردها أمام الناس لتقول: «يا لخسارة الشباب». لا أدري من أين حصلت عليها. قد يكون أحد رفاقي.

في المستشفى عجبت من عدد الذين زاروني. هناك من لم أرهم من سنوات. أظنّ فضولهم هو ما دفعهم إلى المجيء. الناس يحبّون المآسي. جورج لم يتصل، هكذا قالت أمي، لكنها ما لبثت أن وجدت له الأعذار: «في دبي قد لا يعرف أخبار لبنان». في اليوم التالي عتبت عليه: «كيف

لا يتّصل؟ أختي البعيدة في كندا عرفت بالخبر». زعلت أمّي طويلاً عندما انفصلت عنه هو الذي أحببته من أيّام الدراسة.

القُطَب السبع فوق حاجبي الأيمن أراها بوضوح رغم الغَبَش على زجاج الشبّاك. قال الطبيب إنّ اللون الأحمر سيخفّ ولن يبقى مع الوقت إلا خطّ أبيض. نثر الزجاج تركت جروحاً في عنقي أيضاً. لو أنّ قطعة انزاحت مليمترات قال الطبيب لكانت أذتني أكثر. عبارة ردّدتها أمي للزوّار وكانت تضيف عليها من خيالها، كأن تقول إنّ الاصابة كادت تذبحني.

صبيان صغار يتراكضون إلى السيارات عند الاشارة الحمراء، أحدهم مقعد يتقدّم من ناحية أمي. على غير عادتها تعطيه ألف ليرة. كانت دائماً تعترض على اعطائي المال للصغار بينهم، وتقول إنّه يؤخذ منهم ولا يستفيدون بشيء.

عند مشارف شارع الحمرا بدأ أبي يفقد صبره. السنوات لم تجعله يعتاد الزحمة وصعوبة الوصول إلى بيتنا. قبل أن يتقاعد كان يتنقّل بسيارة أجرة إلى عمله. كنت الوحيدة التي تستخدم المرسيدس القديمة. الناس يلتفتون باتجاهنا متأمّلين سيارة ندر وجودها الآن. «كلّ شيء يعمل فيها بشكل ممتاز فلماذا أشتري بدلاً منها؟» هذا ما يدّعيه في كلّ مرة أقول إنّ قيادتها تقتل وإنّ الفيتاس اليدوّي قاس والشبابيك لا تعمل. لكنني توقّفت عن التذمّر منها وصرت آلفها خصوصاً أنها لا تشبه السيّارات الأخرى. كانت وسيلتي لأخرج إلى عملي في السنتين اللتين عملت خلالهما وفي مشاويري. عندما كنت أتعلّم في الأشرفيه ما كان أبي يسمح لي بقيادتها. كنت أركب الباص أو سيارة سرفيس إلى أن تعرّفت إلى كريستيل. سيارتها الجيب كبيرة. كانت تدعني أقودها بدلاً منها. لم تكن تجيد لا ركنها ولا تقدير حدودها. أذكر دائماً المشاوير البعيدة إلى جبيل. قناني النبيذ التي تتناوبها الأيدي، الموسيقى العالية. كنت أحسّ أنني الأسعد بينهم رغم

أنني ما كنت أشرب بمقدارهم. هكذا أستطيع أن أقود ساعات. رائحة الملح والهواء الرطب خصوصاً في بداية الشتاء. نجلس محشورين. عددنا لا يقلّ عن الثمانية أوالسبعة. مع أنّ لدى معظمهم سيارات كنا نحبّ أن نبقى معاً في مشاويرنا. كان لسيارتها رائحة تلك الرحلات. لا يزيلها لا الوقت ولا التنظيف. ما إن يفتح بابها حتّى تختلط رائحة السجائر والحشيش والعطور وعرق أبداننا المليئة بطاقة لا تهدأ.

تتبدّل الاشارة من أحمر إلى أخضر مرّات ولا نتجاوزها. تلومه أمّي لأنّه لم يأخذ الطريق البحرية.

النعاس يُثقِل رأسي. المسكنات تبقيني معظم الوقت في ما يشبه الغيبوبة. ربما غفوت لذا جفلت عندما هزتني أمي لأنزل أخيراً.

الرطوبة داخل بيتنا تجعله بارداً كالكهف. سارعت أمي إلى الهاتف وقالت شيئاً لا أسمعه عن المتّصلين. في غرفة النوم رأيت كنبة صغيرة وكرسيين. عندما نظرت باتجاه أمّي متسائلة قالت إنّها للضيوف. أسوأ ما في الأمر هو اضطراري للمكوث في السرير. عندما أردت الجلوس أمام شاشة الكمبيوتر تعبت قبل أن أتفقّد بريدي.

تظاهرت بالنوم. تسحّبت أمي على مهل وأقفلت الباب خلفها. ضقت بوجود الناس حولي. رغبت في الاغفاء ولم أستطع. حاولت سماع الموسيقى لربما تأخذني بعيداً عن صور يزدحم بها رأسي.

وضعت قصاصات ورق فوق لحافي. سألتها ما هذه؟ قالت إنّها جمعتها من الصحف، هي لا تدري لماذا كل الصحف كتبت اسم عائلتي بشكل مغلوط. كان استياؤها كبيراً من أنّ اسمي المكتوب هو «يارا غزالي» لا غزال. قرأت ذكراً للحادث لا يتعدّى السطر في متفرقات أمنية. نعي لسامر في صفحة الوفيات من قدامى مدرسة الأليت ومن مصرف بيبلوس ونعي آخر من عائلته. سألتها «ماذا أفعل بها؟» ثمّ أبعدتها بيدي وأوقعتها أرضاً. جمعتها بغضب قائلة إنّني ناكرة الجميل، لم يغمض لها

جفن في المستشفى وهي تصلي وتبكي، حتى في المدرسة صعُبَ عليهم حالها. يشفقون عليها أكثر مما أفعل. غمرت رأسي باللحاف فخرجت وهي تدمدم.

الزمامير التي لم تتوقّف اختلطت بقرقعة الأواني في المطبخ، وبصوت المثقاب وبروائح سلق الدجاج. منذ تقاعده انصرف أبي إلى اصلاحات داخل البيت. كان انزعاج أمي من الفوضى التي يخلّفها في أعماله سبباً اضافيّاً في خلافاتهما. دهن جدران البيت مرّتين في سنة واحدة. صنع خزانة للأحذية رفضت أمّي استخدامها لأنها غير ثابتة. انتهى بها الأمر كأشياء أخرى إمّا على شرفة المطبخ الصغيرة أو في مكبّ النفايات. تشجيع أمي له على الخروج لم ينفع. كان يفضّل البقاء في البيت متدخّلاً بالصغيرة والكبيرة. أوكلته بشراء أغراض البيت. مهمّة كانت تتولّاها وحدها إلى أن تشاجر مع اللحّام والبقّال. لكنّها حين صارت بناء على نصيحة الطبيب تمشي على كورنيش البحر، تحمّس لمرافقتها مهما كان الطقس. يرتديان مشمّعاً واقياً من المطر شتاء وصيفاً ويستيقظان فجراً قبل طلوع الشمس. قد يخرج ثانية للمشي في أوقات مختلفة من النهار. أفضل الأوقات عندي هي حين يخلو البيت. مع مرور السنوات قلّت قدرتي على تحمّلهما ولا أدري هل السبب أنهما تبدّلا أم أنهما كانا كذلك دائماً والآن أراهما بوضوح.

في اتصالها أخبرتني كريستيل إنّ أحمد في حالة سيئة. رافقته مع مجموعة من رفاق سامر وأقاربه لإشعال شموع في مكان الحادث، قالت إنّ بامكاني رؤية الصور على فايسبوك. طلبتُ من أمي أن تقول إنني نائمة لكلّ من يتّصل بي. لم أكن أريد أن أكلّم أحداً.

لو أنّ ألمي كان أخفّ لخرجت. الطعام الذي وضعته لي أمّي فوق مكتبي القديم بَرَد من دون أن ألمسه. أبخرته الساخنة ملأت جو الغرفة برائحة حساء الدجاج. رائحة تعيد إليّ ذكرى محدّدة، جَدّتي لأبي. كانت

امرأة صامتة نضحك من لهجتها الريفية وعندما أتى بها أبي لتعيش معنا بعد وفاة جدي، مرضت وصارت تحكي دون توقف. حكايات عن أهلها وألعاب طفولتها والعسكر الفرنساوي وعن أخيها المرحوم، وتنسى أنّنا أحفادها. شجارات بين أهلي ليقبل أبي أخيراً أن يدخلها إلى مأوى عجزة في رومية. المرّة الوحيدة التي رافقت بها أبي، وجدت أنها استرجعت ذاكرتها نسبياً. عرفتنا على الأقل. أدخلوا لها غداءها: شوربة دجاج تسبح فيها معكرونة على شكل أصداف. لم تقبل أن تذوقها. سألها أبي عن حالها، أجابت إنّها جيدة. ثمّ سكتت وعندما وقفنا لننصرف قالت له «يا ابني خذني معك الله يوفقك». عدنا لنجلس وحاول أبي أن يهدئها ويقنعها إنّها هنا تلقى العناية الطبية التي تستحقها. ردّت «ماذا أفعل هنا يا ابني؟» وحكت عن الذين يأتون ليلاً لضربها وربطها. نظر أبي نحوي كأنّه يحكي مع نفسه «جدتك تضيّع». ثمّ أمسكت جدتي مسبحة الصلاة واستغرقت بالتمتمة كأننا لسنا في الغرفة. المرأة التي تقاسمها الغرفة والنائمة على السرير المجاور رفعت جسمها فجأة قبل أن تتهاوى من جديد محدثة صوت أنين عال. طقم الأسنان يسبح في كوب على الكومودينة قربها. ومنديل أبيض مطرّز بورود بيضاء كان جدي يضعه في جيب سترته. تأمّلته كي لا أنظر إلى الصحن أمامها وأبكي. روائح بول وأدوية وعفن. أردت أن أهرب من هناك ولا آتي مجدداً. قالت لنا أن نطعم دجاجاتها ونسقي شتولها. سألها أبي «عن أيّ دجاجات وأيّ شتول تتحدّثين يا أمي؟». أشاحت بوجهها وقالت له أن يطفئ الضوء تريد أن تنام. كان نور الشمس ساطعاً. نظرنا إلى اللمبة المطفأة ثمّ خرجنا. في طريق العودة، لم يفتح أبي فمه بكلمة ولم يبدِ انزعاجه المعتاد من الحرّ وعجقة السيارات والقيادة المجنونة.

كانت المرة الأخيرة التي أراها فيها وكذلك أبي.

* * *

القهوة التي أشربها بردت منذ أكثر من ساعة. عندما أرفع ذراعي ينحسر الكُمّ وأرى بداية الجرح. لا أجد لونه يفتح كما قال الطبيب، كأنه يتحوّل إلى الأسود. الجروح الأخرى بدأت تلتئم بسرعة أكبر. لكنّ ما يزعجني أنّ كلّ من يراها يسألني عن سببها. حولي تخفّ عجقة الناس، لم يبق سوى العجائز الذين يتناقشون بالسياسة ويتصفّحون الصحف. هناك قلّة من طلاب الجامعة الأميريكية. يمنعني صخبهم من قراءة الكتاب. لا أحسّ أنني أتقدّم فيه. كلمات لا يبقى في رأسي منها شيئاً. أتأمّل اللوحات على الجدران. في كلّ مرة أجد فيها تفصيلاً لم أنتبه له.

قلّما ألتقي بأحد أعرفه هنا. كلّ أصحابي إمّا في أعمالهم وإمّا هم مثل كريستيل التي عادت إلى الجامعة لتدرس إدارة الأعمال. لم تكن مستعجلة على إيجاد عمل. تحبّ الحياة في الجامعة. والدها نصحها بدراسة ادارة الأعمال. قال إنّ تخصّصها في علم النفس لن يفيدها في شيء. اختصاصي في تقويم اللفظ لم يفِدني أنا أيضاً. ولا الماجيستير. دفعت أقساطها عندما عملت لسنتين. قالت أمي إنّني غبية بسبب خسارتي لعملي، على من يعمل في مدرسة أن يحفظ لسانه خلال التجربة. لا أرى أنني أخطأت في شيء، فقد وُظفت كخبيرة في تقويم اللفظ. لم أعلم بأني سأتحوّل إلى مرافقة للطلاب كلّهم في رحلاتهم وإلى معلّمة تنوب عن كلّ من يغيب. اعترضت بعد أن طفح الكيل. كانت نهاراتي تمضي دون أن أرتاح أبداً. رغم اتفاقي مع المدير كي يأذن لي في الخروج ظهراً ليومين من أجل المحاضرات، كان يتحجّج دائماً بظروف قاهرة تتطلّب حضوري. في البداية كان يحاول المراوغة وإطرائي كأن يقول إنّ وجودي مهمّ مع الصغار لرؤية تفاعلهم مع العالم الخارجي. هكذا رأيت في سنتين كلّ مصانع الصابون ومعاصر الزيت وكلّ المعالم التاريخية ودور الأيتام والمآوي، لا بل زرت سجن النساء مع صفّ البكالوريا. بعد الماجيستير طلبت مقابلته وأردت منه أن يحدّد عملي كالآخرين لأكون فقط مسؤولة عن متابعة مشاكل النطق والقصور في الانتباه أو التركيز وقضايا نفسية

أخرى. خلال حديثنا قال إنّ العمل في التربية ليس وظيفة وراح يكرّر كلاماً بلا معنى. مع ذلك عندما وصلتني ورقة الاستغناء عن خدماتي في آخر السنة صُعقت. كان البحث بعدها عن مدرسة غير مُجْدٍ. إمّا لديهم اختصاصي وإما لا يؤمّنون هكذا خدمات. بعض من كانوا معي عملوا في عيادات مع أطبّاء أو محلّلين نفسيين. لا أعرف أنا أحداً يتوسّط لي من أجل هكذا عمل. كنّا في الجامعة صفّ من البنات باستثناء صبيّ واحد اسمه طلال سافر بعد التخرج مباشرة ليكمل تعليمه العالي. كثيرات تزوَّجنَ وانهَمَكنَ بتربية الأولاد.

كلّ مخططاتي طارت في لحظة. لا أستطيع أن أعود إلى الوراء وأطلب مصروفاً من أهلي. قبلت بكلّ الأعمال الوقتية مهما كانت مذلّة بالنسبة إليّ. الدروس الخصوصيّة ناسبَتني. أمّي وجدت لي بعض التلاميذ حيث تعلّم وبعدها كرّت السّبحة. كان أهاليهم يتحمّسون للاتفاق معي بعد أن اعتقدوا بأنني محلّلة نفسية. انتظروا مني المعجزات مع أولادهم. في البدء كنت أصحّح معلوماتهم، ثمّ توقفت. هناك تلميذان دائمان أعلّمهما كل دروسهما لقاء مئتي دولار شهرياً للواحد. أحياناً هناك تلاميذ يأخذون دروساً قبل الامتحانات. أطلب لقاء الساعة عشرة دولارات. قبل ذلك عملت في محلّ لبيع الثياب. كانت المسؤولة شبه الأميّة تحدّد ساعات دخولنا إلى الحمام، وتمنع تبادل أيّ كلام خلال دوام يمتدّ إلى أكثر من إحدى عشرة ساعة. الجلوس غير مستحَبّ أيضاً إلا في حالة الألم أوالمرض. أمّا استراحة الغداء فلا تتعدّى الربع ساعة. كنت يائسة حينها لأقبل بذلك العمل. أكثر ما كان يحبطني هو دخول إحدى زميلاتي في المدرسة أو الجامعة إلى المحل. كل هذه المذَلّة من أجل أربعمئة ألف ليرة في الشهر. صمدت لشهرين بدتا لي كسنتين. حلمي بالسفر إلى فرنسا صار مستحيلاً. قلت أوفّر مالاً يكفيني لسنة هناك. بعدها قد أجد عملاً أو حَلاً. حتّى إنني بدأت بمراسلة أساتذة لإيجاد من يقبل أن يشرف على رسّالة الدكتوراه، فكّرت بالموضوعات التي قد أعمل عليها.

كتاب آخر عن الحرب الأهلية! حتى بعد قراءة روايات كثيرة عنها تبدو لي خيالية. فكرة أن تكون بيروت منقسمة إلى منطقتين أمر لم أستطع فهمه. هل رسموا خطاً بالطبشور؟ أهلي لا يأتون على ذكرها إلّا فيما ندر. لا يزالون يسمون الأشرفية «الشرقية». وحيث نسكن «الغربية». عندما سألتهم عن سبب بقائهما في الحمرا ولم يهجروا. أجابوا إنّنا أورتودوكس. أختاي كلتاهما ولدتا خلال الحرب. ما أذكره أنا بشكل دقيق هو حروب اسرائيل. أذكر انضمامي مرّتين لتوزيع مؤن ومساعدات للنازحين. في المرّة الأولى فرحت بالعطلة التي امتدت طويلاً. التسمية كانت جميلة الوقع «عناقيد الغضب». حينها ما كنت أفهم كيف تُقرن فاكهة أحبّها بالغضب.

في المدرسة كنت مع قلة من رفاقي نقرأ ما يُطلب منا سواء خلال السنة أو في العطلة الصيفية. عادة اكتسبتها متأخّرة وأنا في الصف الأوّل المتوسّط. بسببها تعرضّت لسخرية رفاقي. إلى أن صرت أخفي الأمر عنهم. ما عدت أستعير كتباً من مكتبة المدرسة. كانت أمّي تستعير من أجلي كتباً من حيث تدرّس. عندما تسألني لماذا لا أختار من مكتبة مدرستي. أكذب قائلة أنني لا أجد إلا كتباً قديمة، أو أنّه لا يُسمح لنا إلّا بمهلة أسبوع. كانت تأتيني بروايات تاريخية، ربّما لأنها تعلّم مادتَي التاريخ والجغرافيا. عندما جاءت علاماتي، خاصّة في الرياضيّات متدنيّة، عوقبت وامتنعت أمي عن استعارة الكتب من أجلي. قالت إنّ عليّ أن أدرس لا أن أضيّع وقتي في التسلية. لذا صرت أقرأ خفية عنها كأنّني أرتكب جريمة.

الأمطار تُدخِل الجالسين إلى طاولات على الرصيف إلى الداخل. رائحة المطر والرطوبة والعطور النفّاذة تفوح من معاطفهم. أنفاس تختلط فيها القهوة برائحة السجائر. يزدحم المكان ثانية. رجل أربعيني ينظر باتجاهي فأخفض بصري لأفتح الكتاب رغم ضجري منه.

ما أحبّه في هذا المقهى أنّه لقاء فنجان واحد من القهوة أستطيع

أن أمكث ساعات. أخرج من البيت ما إن أنهض من نومي. ما عاد أبي يسألني إلى أين أنا ذاهبة أو متى أعود. يعلم أنني سأدمدم مردّدة «لا أعرف». حاول هو وأمي بعد الحادث أن يزيدا من الضغط عليّ بالقول «ألم يكفك ما حصل لنا بسبب استهتارك؟». لا أفهم أيّ منطق يجعلهما دائماً ضحية. في صغري كنت أحبّ كل القصص التي يكون فيها البطل إمّا يتيماً أو يهرب من منزل أهله. أحياناً ألبّي الدعوات فقط لأرتاح من البيت ولو إلى حين. كأن أذهب في الشتاء مع رفاق عابرين إلى فاريا. في الصيف أغيب لفترات طويلة في الصفرا حيث يملك أهل كريستيل بيتاً مطلّاً على الشاطئ. لا يأتون إليه إلا فيما ندر. تدعو كريستيل رفاقها وكذلك يفعل أخوها. كلّ الغرف تمتلئ بنيام في كل زاوية حتى على الأرض. كثيراً ما كنّا نطفئ سكرتنا بالارتماء في أمواج باردة بعد منتصف الليل. مرّات نذهب إلى قرى كسروان أو المتن أو حتّى الشمال. المهمّ أن نُدعى ولو جاءت الدعوة من شخص بالكاد نعرفه. ونتأكد من أنّ لا أهل أيضاً في المكان. لن نعاود تجربة قضينا فيها العطلة الأسبوعية ساهرين مع أهل عاطف في بلدة الغينة. نأكل برفقتهم وننام حين يفعلون. عندما أردنا أن نخرج لنتمشّى، قال والد عاطف بعتب «أليس الوقت متأخراً على التمشّي»؟ لكنّ ما تبقى لنا من ذلك المشوار هو الضحك القوي الذي يمسك بنا ما إن نلفظ اسم عاطف.

الساعات تطول في انتظار أن يحين موعد إعطائي الدروس. أحاول أن أقلّص مصروفي وأوفّر ما يكفيني لشهور الصيف. لكنّ شراء هاتف آخر قضى على مدَّخراتي.

لم أرَ جهاد عندما دخل. جفلت عندما سمعت اسمي. كان برفقة شاب يضع نظارات سميكة قال إن اسمه ناصر. سألته للتو «أذاً أهلك من محبّي عبد الناصر؟» ضحك متخلّياً عن خجله. قال إنّها المرّة الأولى التي يعرف فيها أحد من رفاقه عبد الناصر.

هناك جامع قريب باسمه، ألم يسمعوا به؟ سألته.

بلى لكنّهم كانوا يظنّونه إمّا نبياً أو ببساطة لم يفكّروا من هو. لماذا اسم الشارع مثلاً «بلس» من يعرف؟

لم أقل له إنّني أعرف طبعاً سبب تسميته.

أخبرني جهاد إنّه ترك عمله في الوكالة وهو الآن في صحيفة الأخبار. ناصر زميل له في صفحة اقتصاد. كان الوحيد الذي لم يسألني عن الحادث. طوال شهر، شعرت أنّ لا وجود لي خارج هذا الحدث. أوّل شيء أُسأل عنه. الفايسبوك هو سبب هذه المهزلة. ثرثرة فارغة على صفحاته دفعتني إلى إلغاء حسابي عليه.

خرجنا معاً وجلسنا في مكان مكتظٍّ لم أدخله سابقاً. قال جهاد إنه يقدّم أطيب وأرخص سندويشات في الحمرا. وجدنا زاوية فارغة عند البار. شربنا بيرة وأكلنا سندويشات بطاطا مقلية ومايونيز. ضحك جهاد بينما آكل قائلاً «يندر أن تأكل البنات سندويشات كهذه؟ جيّد هناك من لا يخاف البدانة. على أيّ حال أنت نحيلة» المرآة أمامنا يعلوها غبش أبخرة الطعام ودخان السجائر. أرى صورتي فيها منبوشة الشعر. بتّ أكتفي بربط شعري دون تصفيفه. هل صرت أشبه أمّي التي فكرتها عن الماكياج هي وضع أحمر الشفاه؟ تنتقد مبالغتي في وضع طلاء ألوان على وجهي، تقول إنني هكذا أبدو كالمهرِّج. تعليقاتها كانت تطيّر عقلي. خلافاتنا التي يتدخّل أبي لفضّها تزيدني غضباً. بينما أكبر ابتكرت طُرُقاً أخرى لحماية نفسي. أن أصمت وأتجاهل كلّ ما يقولانه لي. أحياناً أشفق عليهما عندما أجدهما ساهرَين إلى ما بعد منتصف الليل في انتظاري.

بعد البيرة الثانية ثقل رأسي. كانت مشيتي بطيئة قياساً لهما. حين انتبها تمهّلا. نتف من كلامهما كانت تصلني من دون أن أكترث، أشياء تتعلّق بسعر برميل النفط والأزمة الروسية الأوروبية. لا أدري ما الذي دفعني إلى المكوث معهما، لماذا لم أرفض عندما دَعَواني لشرب القهوة

في جريدتهما. حدّقت إلى نقط الماء تسقط على معطفي العاجي. برك الماء أنزل فيها دون انتباه كأنني منوَّمة يشرد رأسي إلى مساء بعيد. من كان يعلم أنه لن يبقى من ذلك سوى احساس حزين تحمله إليّ الصباحات الباردة ورائحة التراب.

أصل متأخّرة إلى بيت وائل. الفليبينية فتحت لي الباب وأدخلتني مباشرة إلى غرفة النوم . عادة أدرِّسه في غرفة السفرة. من الأصوات حزرت أنّ هناك الكثير من الضيوف. كان منغمساً بلعبة على هاتفه. عندما سألته عن نتيجته في امتحان الرياضيات أجاب دون أن يزيح نظره عن الشاشة. اضطررت لترداد سؤالي مرّات قبل أن يجيب كاذباً أن ليس لديه فروض. ثم شيئاً فشيئاً اتضح أن لديه فروضاً في كل الموادّ. حين وصلت إلى بيت علي، وجدت أمّه منزعجة. قبل أن أدخل أفهمتني أنني تأخّرت. كدت أستغني مراراً عن تعليمه بسببها. أم خانقة تتدخّل في كلّ شيء. كيف أفهمها أنّها هي سبب تعثّره وتأتأته.

قلّما ألتقي بأهل تلاميذي. حتى أجرتي توضع في ظرف أو تسلّمها لي الخادمة. أمّ علي على خلاف الجميع، تجلس على مقربة وتتدخل إما عبر زجر علي أو بالقول لي: «لا تردّي عليه، ابدئي معه المراجعة منذ الآن».

في طريق عودتي كان المطر قد توقّف. مداخل السينمات وشرفات المطاعم مليئة بالناس. مررت في شارع فرعي ووجدت نفسي أمام البناية التي يسكنها أهل جورج. أسرعت كي لا أقع صدفة على أحد من أهله. أرتبك حين ألتقي أحدهم. يملك والده محلاً لبيع أقمشة البرادي والمفروشات قريباً من مكان سكن ليلى. السبب كان كافياً لأمتنع عن زيارتها. في البداية ظنّت أنني انزعجت من أحد أخوتها أو أهلها. قالت إنّ نيّة أمها طيّبة عندما تعظني بشأن التدخين.

معظم زيارتي لبيتهم كانت تحصل في غياب أهله. كلاهما يتأخّران

في العودة. أمّه موظّفة في مستشفى فؤاد حداد، ووالده لا يقفل محلّه قبل التاسعة. في صغرنا كنّا نتظاهر بالدرس. بعد تخرّجنا من المدرسة تعدّدت أماكن لقائنا. عندما نعجز عن ايجاد مكان حميم. يستعير سيارة أخيه الكبير ونذهب إلى مكان في الجبال. أو يأتي إلى بيتنا. لكنّ بيتنا لم يكن مثالياً لأنّه نادراً ما يخلو من أمّي. العطل المدرسيّة والساعات القليلة التي صارت تعلّمها جعلتها تغيب عن البيت لفترات قصيرة. لا أحبّ الذكريات المتعلّقة بتلك السنوات الثلاث. لا أفهم لماذا دامت علاقة كهذه كلّ هذا الوقت. كان جورج محبوباً في المدرسة. إضافة إلى وسامته كان رياضياً وكان مندوب الصف في كل سنوات الثانوي. الجميع ينتخبه، عندما أراد أن يرتاح من المهمّة في صف البكالوريا، اتفق الجميع على كتابة اسمه رغم عدم ترشحه. علاقته بي حوّلتني في نظرهم من فتاة عدائية منطوية إلى مثيرة وطريفة. كلّ تعليقاتي الساخرة باتت تضحكهم بعد أن كانت تغيظهم. أعجبني هذا الاهتمام بي إلى حين تخرّجي. لا بل قبله بشهور حين صرت أتهرَّب من المكوث عندهم لساعات كالسابق. كنت أحلم بآخرين لا يشبهونه. عندما واعدت شاباً من الجامعة أخفيت الأمر عن أقرب أصدقائي. استمرّ الجميع في الظنّ أن اعتكار المزاج أو الفرح المفاجئ سببهما دائماً جورج. عندما أفكّر بالأمر لا أدري لماذا لم أضع حداً لعلاقتي بجورج آنذاك. كنت أقول إنّني لا أحبّ أيّاً منهما وما المشكلة في أن أواعد ما شئت من الشبان. وحده روني بقي لي وحدي لم أتشاركه مع أحد. عندما يراني أيّ كان برفقته أدّعي أنّه معرفة قديمة أو نسيب لي، أو أي شيء يخطر ببالي.

ما كنت أريد العودة إلى البيت باكراً، الساعة لم تتجاوز التاسعة. دخلت إلى المقهى. وجدت طاولة قريبة من الماكينات. ليس هناك طاولات أخرى فارغة. لغات تختلط بصوت ماكينة القهوة بضحكات مفتعلة، بموسيقى لا تطمسها سمّاعات الأذن. أرى رسالة نصّية من جهاد يقول إنّ لديه دعوة لشخصين لحضور مسرحية فهل يهمّني الأمر؟

استغربت الدعوة. لم أعرفه إلا بشكل متقطّع وعابر. تعرّفت إليه في سهرة منذ أكثر من سنتين، لا أذكر عن طريق مَنْ. الكحول والموسيقى جعلتا حديثنا سهلاً وعفويّاً. بعدها بشهور عدت ورأيته وتبادلنا أرقام هواتفنا وعناوين بريدنا الألكتروني. استمرّ الأمر على هذا النحو. نلتقي فنتبادل أرقام هاتفينا. لا أقول له إننا سبق وفعلنا ذلك أكثر من 5 مرّات. ليس الوحيد في لعبة تبادل العناوين وأرقام الهاتف. هي عادة الجميع. أحياناً أتظاهر بكتابة الرقم أو العنوان من دون أن أحفظه في ذاكرة هاتفي. للقاء أي كان لا أحتاج إلى رقمه أو عنوانه. الفايسبوك والتويتر الطريق الأسرع إلى ذلك. على الأقل لا أرتبك إن بادرت الكلام مع أحدهم. الايميلات تخلق مسافة. أنظر إلى الرسالة طويلاً قبل الردّ. أخشى الضجر برفقته إن وافقت. إن لم أفعل لن أخرج من عزلة دامت طويلاً. بعد الحادث تجنّبت التواجد مع الشلّة التي أخرج برفقتها. أحمد أيضاً كان يتفادى لقائي. كأنه يحمّلني عبء ما حصل. هذا ما شعرت به، إلى درجة أنني صرت مهووسة بسامر. كنت أمشي إلى العنوان المذكور في النعي وأراقب البناية والشقّة في الطابق الثاني. كان المعزون يتوافدون رغم انقضاء فترة تقبل التعازي. أنظر إلى الأضواء وإلى الثياب السود التي تدخل وتتريّث في المدخل، ثمّ تخرج بسرعة كأنّ شيئاً مما شاهدوه وخبروه قد يصيبهم. أضطرّ إلى المشي في الأحياء القريبة. أخاف أن يرتاب أحدهم من كثرة تواجدي هناك. السيارات المفخَخة زادت من توجّس الناس. كنت أخفي الجرح العميق عند حاجبي بقبعة أخفض طرفها فوق جبيني. ثم انتبهت إلى أنّ لا أحد يلحظني. فصرت أتجوّل دون حذر. رأيت أخته ترافق صديقات لها عند المدخل. أردتها أن تبتسم لكنّها شبكت ذراعيها من البرد، كانت ترتدي تنورة سوداء تحت الركبة وكنزة سوداء أيضاً بقبة عالية. أحنت جذعها، سمعتها تودّعهنّ وتشكرهنّ، ثم رفعت يدها دون أن تنظر وقبل أن يغلقن أبواب السيّارة أسرعت في دخول المصعد. لم أرَ والديه ولومرّة.

مع مرور الوقت امتنعت عن تفقّد الصور التي نشرها أصدقاء

وزملاء له على صفحة خصَّصوها لرثائه. رأيته طفلاً أوّل دخوله إلى المدرسة، وتلميذاً، وفي مباريات كرة السلة. صور تخرّج من المدرسة، ومن الجامعة. رحلات تزلج. صور سهرات رسمية تجمعه بزملائه في المصرف والكلّ يصفق لراقصة شرقية، عينا سامر تنظران إلى شيء لا يظهر في الصورة. الفتاة التي تكرّر ظهورها في الصور ظننتها بداية حبيبة قديمة له، إلى ان علمت أنّها أخته الوحيدة. أقرأ ما كتبوه ولا أحبّه. يشبه جملاً حفظوها وسمعوها مئات المرّات.

يصلني الردّ على رسالتي بسرعة وفيها عنوان مسرح المدينة وساعة العرض، قال إنّ من يصل أولاً ينتظر الآخر. فتاة لا أذكر من أين أعرفها تحييني وأردّ بابتسامة، لكنّها تقترب مني لتسألني «عرفتني؟» أكذب مدّعية أنّ الوجه أعرفه لكنّ الاسم غاب عن بالي. تكرّر اسمها بفخر مترقّبة ردّ فعلي. ياسمينا التي أعرفها كانت سمينة لا تشارك في النشاطات الرياضية ولا أحد يدعوها إلى عيد ميلاده. غابت أيضاً عن حفلة التخرّج. علّق الجميع أنّ محلات بيع الأقمشة ليس لديها ما يكفي لخياطة ثوب تخرّج لها. في الصفوف التكميلية حاولت مع رفيقة أخرى أن نمكث معها في الفرص أو أن نشركها في ما نسمعه من موسيقى بعد أن آلمنا معرفة أنّها تعاني من مرض ما. هذا ما كرّرته مسؤولة صفّنا في غياب ياسمينا. أنّبَت الصف طويلاً وقالت إنّ لا ذنب لها في ما تعانيه. هدّدت بمعاقبة كلّ من يضطهدها ويسخر منها. تهديداتها لم تنفع. أشياء كثيرة كانت تحصل لتزيد من ضحكهم. كأن ينكسر مقعدها. عندما نركب الباص في رحلة قصيرة إلى السينما كانت تجلس وحيدة على المقعد، المعلمة حينها تأمر أحدهم ليجلس قربها. كان يردّ إنّ المكان لا يتسّع له وإنّه سيقع عند كلّ كوع. عندما يرونها واقفة في الصف بانتظار دورها لشراء شيء ما، يقولون إنّ أمرهم انتهى ولن يجدوا لا منقوشة ولا شيء وسيموتون جوعاً اليوم. كنت أنا أيضاً أضحك سرّاً من تعليقاتهم. لم نكن نعلم الألم الذي نسبّبه حقاً.

كيف يمكن أن أعرفها وهي مختلفة تماماً عن ياسمينا القديمة. ليس فقط فقدانها للوزن. ملامحها أيضاً بانت مختلفة. شدّتني لأجلس معها هي وصديقيها. حملَت حقيبتي وتشبثَت بيدي. أخبرَتهما عن ذكريات تربطها بي. فكّرت أنها تؤلّفها. لا أذكر أنني دعوتها إلى بيتي كما لا أذكر المقالب التي كنّا ننفذها ضدّ الأساتذة. لم أكن من هذا النوع من التلاميذ. عندما كنت أضجر كنت أفتح الكتاب الذي أقرأه وأنشغل به. قالت إنّنا كنا نكذب بشأن عمرنا لمشاهدة أفلام مخصَّصة للراشدين. من أين أتت بهذه الذكرى؟ لا أحد في بلادنا مضطرّ إلى الكذب. لا يسأل أحد عن عمر المشاهدين. كان رفيقاها يتظاهران بالسماع والضحك فيما هما منصرفان إلى النقر على مفاتيح الهاتف. ثمّ فهمت أنّها مسؤولة عنهما في شركة للتسويق والدعاية. سألتني عن عملي. لم تنتظر ردّي قبل أن تنطلق ثانية في الحديث عن بعض الدعايات التي نفّذَتها. أبديت اعجاباً مزيَّفاً في دعايات لم أشاهد معظمها. رأسي بدأ يؤلمني من سيل كلامها. لا تأخذ استراحة بين موضوع وآخر. كان تحوّلها من الانطواء والسكون إلى ما هي عليه لغزاً. انتظرت أن تسكت لأختلق حجّة وأهرب بعيداً. وقفت لكنّها أرادت أن تصطحبني معهم إلى فندق قالت إنّه زبون عندهم حالياً. تحجَّجت بموعد وخرجت غير مبالية بالمطر الذي بدأ ينهمر. فتحت الشمسيّة وتمشيت على مهل. أطلت المشوار وعرجت على بلس. لا أعود إلا بعد أن أتأكّد من أنّهما ناما. لكنّ أبي منذ تقاعَدَ يطيل السهر متنقّلاً بين البرامج الحوارية على القنوات الإخبارية.

البروق تنشب أظافرها الكبيرة في السماء. بعد رعود متتابعة تنطفئ مصابيح الشارع. الريح تشتدّ ومعطفي رقيق لا يردّ البرد. خطر لي أنّه شتاء مختلف هذه السنة.

عندما فتحت الباب وجدت أبي أمام شاشة التلفزيون. أمامه صحن فيه بعض الفستق وكأس ويسكي، اعتاد على شربه بناء على نصيحة الطبيب. أما أمّي فنائمة. استيقظت حين جلستُ على الكنبة. قالت شيئاً

عن شحوبي ثم دخلت لتنام. نهضت بدوري، حاول أبي أن يستبقيني بأسئلة يعلم أنني كعادتي سأردّ عليها بإيماءات مقتضبة.

ليست البطالة هي ما يغيظني بل اضطراري للعيش مع أهلي. عندما أذكر الأمر، لا يفهم رفاقي سرّ انزعاجي بحجة أنّ والديّ غير متشدّدَين وأنني أذهب إلى أي مكان وأفعل ما يحلو لي.

أتفقّد بريدي ساهية. أتذكّر كم عذّبني هذا البريد وكيف رصدت دون جدوى رسالة لا تأتي من روني هو الذي وعدني أن يكتب لي كل يوم. صحيح أننا تحدّثنا عن علاقتنا الحرّة. بلا قيود وبلا كلام حبّ. لكن منذ أن سافر، كرهت كلّ شيء. في الشهرين الأولين كان يكتب لي عن كل لحظة، وصفَ لي غرفته، والطلاب الذين تعرّف عليهم، والأساتذة، والطعام في لندن، وأخلاق الناس، والمواصلات، وبرودة الطقس. أراني الأغراض التي اشتراها لغرفته، والمعطف الصوف الذي يلبسه هو الذي يكره الثياب الثقيلة. بعد ذلك لا شيء. لم يرسل أيّ كلمة لتبدّد خوفي. علمت من ماهر صديقه أنّه انتقل للسكن خارج المبنى الجامعي. فكرت أنّه سيعود بعد الماجيستير. لم يفعل. فجأة أحسست أن فارق السنتين بيننا كقَرنَين. شيء تبدّل في داخلي. ما عشته لن يتكرّر وكلّما واعدت شخصاً جديداً تحيّنت الفرصة لأهرب. العلاقات العابرة أسقمتني وزادت من رغبتي بالابتعاد إلى مكان لا أعرف فيه أحداً. أختي ريتا لم تتعاون معي. لم تعرض ايوائي في حال سافرت. على عكس أختي كلودا، كانت ريتا الأخت التي أحكي عنها. أردت أن أكبر وأسافر مثلها وأعيش وحدي. حين أصفها لا أنتبه للمبالغة في كلامي. ظنّها الجميع آية في الجمال.

* * *

سألني جهاد لماذا لا أنزع القبعة داخل قاعة المسرح، هل هي علامة فارقة لديّ. قبل أن أجيب نهض ليسلّم على أناس يعرفهم. ندمت لحظة رأيته أمام المبنى ينتظرني برفقة رجلَين. ما الذي جاء بي إلى هنا

ولست من المعجَبين بالمسرح. أفضّل السينما وهدوءها على الأصوات والتصفيق. الجميع يعرفون بعضهم باستثنائي. كأنّني من فضاء آخر. كرهت الاهتمام الذي حظيت به. لا لشيء سوى لأنني وجه غير مألوف. ما قصة الصوت العالي؟ لماذا تصرخ الممثلة هكذا؟ بعد أقل من عشر دقائق خرجت ووقفت أمام المبنى أدخّن سيجارة وأفكّر بالهروب. في الأخير لست ملزمة بالبقاء. لماذا لا أبعث له برسالة متذرّعة أن شيئاً استجدّ وعليّ الرحيل. بينما أمعس السيجارة بطرف جزمتي رأيت جهاد قادماً نحوي. قال إنه آسف لم يكن يعرف أن المسرحية مضجرة هكذا. اقترح عليّ الذهاب إلى بار لطيف في الحمرا كان خلفه الرجلان اللذان كانا برفقته. نسيت أسميهما تماماً مع أنني حفظت أنّ أحدهما يعمل مراسلاً والثاني مصوّراً. يصعب أن أنسى مهنته والكاميرا تتدلّى فوق صدره. كان لا يكفّ عن تصوير كل ما يراه كأنّ العدسة عين أخرى له. قال لي دون مقدمات إنني طويلة جداً بالنسبة لفتاة. ثم سألني عن الشطب الكبير فوق حاجبي، عندما أجبته إنّه ناتج عن وقعة من أيام الطفولة. سألني لماذا أكذب؟ ثم ضحك قائلاً إنني لا بدّ تضاربت مع أحدهم بالسكاكين الحادّة. رفع كاميرته في وجهي. أخفيته بيدي. كانوا يتوقّفون بين الحين والآخر لمصافحة أناس في مقاهي الرصيف أو مارّة أو زملاء لهم. أقف بعيداً عن ضوء المصابيح. هكذا لن أضطرّ إلى مصافحة غرباء لا يهمّونني في شيء. قال لي المصوّر إنّني متوحّشة ثم كشّر عن أنيابه مقلدّاً الأسد فقال له جهاد: توقّف يا رضا. اقترب من أذني حينها وهمس إن كنت انزعجت منه حقاً. كانت أنفاسه حارة لها رائحة سكاكر النعناع. ابتسمت، فعاد ليسألني إن كنت قليلة الكلام دائماً أم أنّ الرفقة ليست على مزاجي. أخرجت سيجارة رحت أراقب رأسها المشتعل لأتجنّب نظراته الملحّة نحوي. لا أخجل عادة بسهولة لكنّه يربكني حقاً بثبات عينيه المتفرّستين وأسئلته المتلاحقة. الشاب الثاني انشغل بمكالمة طويلة تتعلّق بخبر عن سجن روميه. كان رضا يزداد التصاقاً بي ونحن نسير، أخبرني إنّه يعمل في

وكالة أنباء وإنّ اختصاصه في الأصل هو علوم سياسية. قال إنني جميلة رغم أنفي الكبير ورغم غروري ثم ضحك بصوت عال. قال جهاد: «لا تهتمّي له هو ثرثار كبير، يحبّ المزاح ولا يقصد السوء». سأل رضا لماذا أحتاج لمن يدافع عني هل أنا ضعيفة؟ أحاط جهاد رقبة رضا «كفّ عن ألاعيبك الصبيانية. أتريدها أن تهرب؟».

البار كان مزدحماً. موسيقى الجاز جميلة. لذا لم أحسّ بالضجيج المعتاد. لا أدري كيف يتسّع مكان صغير إلى هذا العدد من الروّاد. أوّل دخولنا تركنا رضا ليجلس مع معارف كثر له وليشرب برفقتهم. كنت أترقّب عودته محاوِلة أن لا أشرب كأسي بسرعة. لا خوفاً من السكر بل لأنّ ميزانيتي لا تسمح لي بأكثر من كأس واحدة في أماكن غالية كهذه. لم آكل إلا سندويش جبنة ظهراً لذا دخت، أحسست كأنني عائمة على ظهر موجة. جهاد أيضاً ترك مقعده قربي ليجلس مع فتاة دخلت للتوّ وتوجّهت إلى حيث رفاق لها. من ايماءاته يظهر أنها حبيبته. إصبعه تلامس وجهها، ربّما هي زميلة له. طريقة لباسها وتسريحة شعرها تعطيها مظهر امرأة قويّة. عندما نظرت باتجاهي أشحت بنظري لأتأمّل البارمان وحركاته البهلوانية في ملء الكؤوس.

كأنني استجيب لشيء خارج ارادتي. وجدتني محشورة عند الواحدة بعد منتصف الليل بين أشخاص لا أعرف فيهم إلا جهاد وصديقته. جلسا متلاصقَين قرب سائق لا أعرفه أيضاً. لمحته في البار مع شلّتهم الكبيرة. رضا ركب مع آخرين في سيّارة أخرى. الملهى الذي أرادوا أن نذهب إليه في الداون تاون لم يسبق لي أن سهرت فيه. الحَرّ كان خانقاً خصوصاً وأننا أربعة نتقاسم المقعد الخلفي. كلّهم بدوا أكبر مني. أو هكذا خيّل إليّ لأنهم لا يشبهون رفاقي. أمام المدخل كان رضا وحده يقف فيما رفاقه سبقوه إلى الداخل. كان مشغولاً بتصوير أضواء الليل على المباني الجميلة. في الخارج أصوات تقيؤ وصراخ يتعالى من سيارة مسرعة. أحاط رضا فتاة بذراعه، أحسست بالخيبة من دون أن أفهم السبب.

شربت كأسي بسرعة ورفضت دعواتهم المستمرة لجرّي إلى الرقص. تأمّلت الأجساد شبه العارية، وجوه تختلف عن تلك التي ألتقيها غالباً في الجمّيزه أو الكسليك. لكنّ الأجواء تتشابه والناس يفعلون الأشياء نفسها عندما يسكرون. ربما لذلك أخشى أن يتعدى شربي الكؤوس الثلاث. لا أسمع ما يقوله لي جهاد أو رضا حين يقتربان مني دون أن يفلتا الفتاة التي برفقتهما.

صفعني برد الفجر حين خرجنا. ضوء أزرق وصوت أمواج البحر. طعم الملح فوق شفتيّ. ركض الجميع باتجاه السيارتين. ركب رضا ورفيقته السيارة معي، جلست الفتاة على ركبتيه، كانت تهمس في أذنه وتضمّ رأسه بذراعيها. أبخرة الأنفاس والسجائر والكحول كانت قوية داخل السيارة المغلقة. فتحت الشبّاك ناحيتي. عند الكورنيش مشاة وعدّاؤون.

«مناقيش من عند بربر؟» سأل أحدهم. قلت إنني تعبة. نزلت قرب الوردية. مشيت في الحمرا. كان العمال قد بدؤوا بشطف الرصيف أمام المقاهي. الكراسي مقلوبة فوق الطاولات. توقفوا للحظات لتأمّل المارة القلائل في مثل هذه الساعة. كثيراً ما كنت أسير في الحمرا بعد أن يطلع الضوء وأنا برفقة روني. كان يصعب عليّ أن أدعه يرحل لينام قبل بدء محاضراته في الجامعة. أحياناً كنت أذهب إلى عملي دون أن أحظى بساعة نوم واحدة. رغم ذلك ما كنت أتعب. حين ينشغل بالتحضير لامتحاناته أبقى معه في الشقة الصغيرة التي يتقاسمها مع طالبَين آخرّين. كثيراً ما مررت بقربها بعد سفره مع أنها ليست في طريقي إلى البيت. أنظر باتجاه نافذتها المطلّة على شارع فرعيّ وألحظ أنهم غيّروا ستارتها الصفراء إلى أخرى وردية. لم يصلحوا النش. الخَزّ والرطوبة باديان على واجهتها. الوقت يغيّر كل شيء، هي العبارة التي كنت أكرّرها لكل صديقاتي المتألّمات بسبب قطيعة أو فراق. أحياناً أعتقد أنها صحيحة وفي أيام أخرى تعود ذكريات لا أدري كيف. كأنني نسخة باهتة عن

الفتاة التي كنتها. بعد سفر روني بشهور قفز قلبي عندما وصلني بريد منه. دعوة لحضور معرض يقيمه مع طلاب لأعمالهم. لهفتي منعتني من أن أستوعب أنّها أرسلت إليّ عن طريق الخطأ. إنها دعوة لكثيرين لا أعرفهم. كنت قد اعتدت على غيابه وعلى تجاهله لي. عدت لأغوص في الأوهام والأحلام الخيالية. فكّرت أنّ عنواني ما زال لديه. ربما ينوي أن يتصل بي. من دون أن أدري عدت للانتظار، وإلى تفقّد بريدي حتى ساعة متأخّرة ليلاً.

بعد دخولي غرفتي بدقائق سمعتهما يفتحان الباب عائدَين من سيرهما الصباحي. أمي تسأل «أتظنها عادت؟» أركض إلى السرير وأرفع الغطاء فوق رأسي، ينفتح الباب على مهل. لا بدّ أنها رأت حقيبتي وحذائي وهاتفي على المكتب. رائحة القهوة ، وصوت التلفزيون. الباب ينغلق مجدداً خلف أمي. بعدها تغيب الأصوات وأنام مرتدية ثيابي.

استيقظت على صوت والدي يناديني بأعلى صوته. كان سعيداً بتمرير السماعة إليّ. السيّدة التي تحدّثت معي سألتني إن كان موعد المقابلة يناسبني. دوّنت العنوان وأنا أفكّر أنّ المدرسة بعيدة جداً عن بيروت. كنت قد فقدت الأمل بأن أجد وظيفة، قدمت طلباً في فرع بيروت لا في عين سعادة. هذه الجمعيات توظّف من يحمل اختصاصي. ما دفعني إلى التردّد هو صعوبة التعامل مع أصحاب الاحتياجات الخاصة. ديما لم تصمد في مثل هذا العمل أكثر من سنة. قالت إنّه منهك نفسيّاً وجسدياً. لكنني كنت سعيدة وأستبعدت التفكير بالمصاعب، لا شيء يكون مثالياً مئة في المئة. اعترض أبي عندما نهضت لأعود إلى غرفتي دون أن أخبره أيّ شيء. أجبته إنّها مجرّد مقابلة قد لا ينتج عنها شيء. قال إنني شخص يفسد الأخبار الجيدة، وإنّ تشاؤمي هو ما يعقّد الأمور في وجهي.

ألقيت نظرة على الرسالة التي وصلتني. رضا يسألني إن كنت أرغب في ملاقاتهم في البار نفسه ليلاً. استخدم صيغة الجمع. قال إنّه الآن في

عمله وسيحكي معي لاحقاً. أنهى الرسالة بـ «أراك عند العاشرة»، كأنّني وافقت سلفاً.

النوم جافاني. رفعت صوت ريهانا. أردت من الموسيقي أن تدخل جمجمتي لأمحو من رأسي الوقت والناس وأهلي والعمل وكل شيء.

* * *

أقود متسلّقة الجبال. شبابيك السيارة مغلقة لكنّ البرد قوي. أسير على مهل. الطرقات جليدية. لا أردّ على اتصالات والديّ. الاذاعة الوحيدة التي ألتقط بثّها تذيع أغاني قديمة من النوع الذي تحبّه أمّي. للعشب لون مختلف هنا. أشجار توزّعت على رؤوسها نقاط من الجليد. كلّما ابتعدت قلّت السيارات التي أصادفها. وحدها الشاحنات المحمَّلة بقضبان حديد وردم تمرّ. أبتعد عنها لجهة الجلول. أفكّر أنّ سامر لن يرى هذه الأمكنة بعد الآن. أنظر إلى هاتفي الذي يرتجّ ثانية. إنّها أمّ علي. ابنها عنده امتحانات. لا أردّ.

قرى على جوانب دروبها رقع ثلج. خراف صغيرة تهرب إلى الجلول حين تقترب السيارة. امرأة تحمل على رأسها كومة قضبان. لا يبين منها إلا ثوبها الأسود وجزمة الكاوتشوك. حين أحاذيها تلتفت نحوي كأنّها تعرفني، تومئ لي برأسها فأردّ تحيّتها. سبعينيّ يمشي خلف دابته المحمَّلة، ينكزها بقضيب لتكمل سيرها.

إلى أين أصل لو تابعت القيادة. إلى أعلى الجبال؟

أركن السيارة أمام مقهى. لا أحد فيه. لم أدرِ ما أفعل. كنت أهمّ بالخروج حين أطلّت امرأة من باب داخلي. استقبلتني بابتسامة فيما تحاول انتعال خفّيها. عندما لاحظت تردّدي قالت إنّ لديهم كل شيء، ماذا أحبّ أن آكل؟ طلبت كوب شاي. كانت تكرّر عبارات الترحيب كأنني أقوم بزيارة خاصة لهم. رائحة المازوت انبعثت من مدفأة تدور مروحتها محدثة صوتاً عالياً. فتاة صغيرة مدّت رأسها من الباب الداخلي،

ونظرت باتجاهي. عندما ابتسمت لها أخفت رأسها مجدداً حاشرة قبضتها في فمها الوردي. استمرّت لعبتها إلى أن زجرَتها والدتها قائلة: عيب يا ماما. أشَحت بنظري لأرى الساحة عبر الزجاج. حولها بيوت من حجر وأسقف معظمها من ألواح خشب. لا تبدو مسكونة. القلائل الذين يمرّون يحدّقون بي بإمعان حتى تواريهم الطريق. أخيراً أتى الدفء. خلعت معطفي. عادت المرأة وكانت تجفّف يديها المبتلتين بمئزرها. قالت إنّ لديهم أكلات بيتية ونبيذاً من صنعهم. ثم غابت لتعود وهي تحمل كوباً كبيراً دون صينية. وضعته أمامي قائلة إنّه على حساب المطعم. النبيذ حلو كأنّهم خلطوه بالدبس.

رأسي يسترجع المقابلة مراراً وتكراراً. كل ما فعلته لأنساها لم يُفِدني. النبيذ الذي شربته خجلاً أشعرني بغثيان. لا أدري لماذا أنا هكذا. لا أنسى بسهولة. أحياناً أتخيّل أنني أمشي إلى ما لا نهاية فأقطع البراري والمدن من دون أن أتوقف.

كانت المديرة تتأمّلني دون أيّ إحراج. تنظر إلى وجهي وإلى ثيابي وأظافري، وتطرح عليّ أسئلة غريبة. سألتني أيضاً عن سبب تركي لعملي القديم. قلت إنني أردت السفر. رفعت حاجبيها غير مصدّقة. قاطعت حديثنا معلمة دخلت معتذرة، كانت تشير إلى المديرة بكلمة حضرتك.

في نهاية المقابلة ادّعت أنهم سيبلغونني قريباً بالنتيجة بعد أن يجروا كل المقابلات.

سمعتهما ما إن وضعت المفتاح في القفل. كنت أعلم ما ينتظرني لذا أجّلت عودتي قدر المستطاع. رأيت غرفتي مقلوبة رأساً على عقب. المكتب والسرير في غير وضعهما. قالت أمي التي تسلّلت خلفي إنّ الطاقة لن تكون سلبية بعد الآن. تقليعة أخرى تعلّمتها من زميلة. قبل ذلك الأطعمة العضوية. وقبلها النباتي. كل يوم كان هناك شجار بينهما بسبب الطعام. بالنسبة إليّ أستطيع أن أكتفي بأكل سندويش من اللبنة أو الزعتر.

أما أبي فكان يغضب بحجة أنّه يتعب طوال النهار ويحتاج لحماً. استمرّ ذلك حتى تدخّلت أختي كلودا. قالت إننا سنعاني نقصاً في الفيتامينات والحديد دون لحوم. لم تناقشها أمي لأنّها تثق بمعلوماتها الطبية أكثر ممّا تثق بنصائح زميلاتها.

لم أقل شيئاً وأنا أراها تقف خلفي وترصد ردّ فعلي. العراقيل في طريقي سببها الطاقة السلبية كرّرت. لم أستمع إلى بقية شروحاتها. تعلّمت أنّ مجادلتهما في بعض المسائل لا تأتيني إلا بوجع الرأس. غداً سأعيد كلّ شيء إلى مكانه المألوف. كذبت حين سألتني ثانية عن المقابلة. قلت إنها كانت جيدة لكن الردّ لن يكون إلا بعد فترة.

لم أجب على رسالتَي رضا. في رسالته الثالثة دعاني لأرافقهم إلى الجنوب. قال إنهم سيصوّرون مأتماً لمقاتل من حزب الله سقط في سوريا.

الأرق أنهكني ليلاً. جرَّبت الموسيقى، القراءة، شرب الحليب. عند الفجر سمعت ضجة استعدادهما للخروج والمشي. ارتديت ثيابي في العتمة. ما إن أغلقا الباب حتى خرجت بدوري. الصباح يشقّ أول أنواره. حشرت يديَّ في جيبَي الأنوراك. التقيت بعمال يمشون نصف نائمين. في المقهى كنت وحدي. شربت كوباً من النسكافيه. رأسي كان مشتتاً.

عند الثامنة وقفت أمام الكومودور. وصلت قبل رضا. البارحة ما كنت أنوي أبداً تلبية هذه الدعوة. لكنّ الأرق جعلني لا أفكّر جيداً. ضحك حين رآني «هكذا إذاً تفضلين المآتم على السهرات» قال فيما يأكل كرواسون. مدّ يداً ملطخة بالزبدة ليصافحني. كان برفقته اثنان آخران. سألني أحدهم في أي جريدة أعمل.

كلّنا ركبنا سيارة جيب سوداء. الغبار المتراكم على الشبابيك حال دون رؤيتي البحر يركض عن يميني. فتحت الشباك، صرخوا بي ثلاثتهم إنّ البرد قوي. كان رضا ينظر في مرآته باتجاهي. ينكزه رفيقه من خلف

بأن يبقي عينه على الطريق. استمعوا إلى كلّ نشرات الأخبار. وضعت سمّاعات الأذن واستمعت إلى موسيقاي. الطريق أعرفها. لكن ليس أبعد من صيدا. أعرف منطقة جزين. توقف رضا في خلدة واشترى بضع تنكات بيرة ووزّعها علينا. حين أعطاني واحدة، قال إنّ لا مشروب في الجنوب. الوقت صباحًا ولست من محبّي البيرة. لم أقل شيئاً، رحت أشرب جرعات صغيرة. أمّا هم فأنهوا شربها بجرعات كبيرة ثم فتحوا غيرها. اشتروا كعكاً ومناقيش.

في مرتين ذهبت مع روني إلى بيتهم الصيفيّ في ضيعة من ضيع جزين. كان علينا أن نحترس من أن يرانا الناس. أقاربه سيأتون للزيارة إن شاهدوا البيت مضاء. سهرنا دون اضاءة اللمبة. نمنا فوق المصطبة. من خلال العريشة بانت النجوم وانعكست أشعتها على العناقيد . كلّ شيء بدا سحرياً باسثناء البرغش. عقصاته تركت بقَعاً متورّمة فوق وجهي وذراعيَّ. على مدى يومين اكتفينا بالخبز واللبنة والموز. هذا ما اشتريناه من بيروت. ما كان بامكانه أن يشتري من الدكاكين هناك. الكل سيعرف بقدومه. لكن عندما عدنا وجد أنّ أهله على علم بمشواره. عمّته نقلت الخبر. في المرة التالية كنّا أربعة ولم نبال كالمرة الأولى. جلسنا في مقهى يطلّ على الساحة. تنزّهنا في حرش الصنوبر. ليلاً تمشينا بين البيوت النائمة. جلسنا في حديقة بيت مهجور. قال روني إنّ أصحابه هاجروا إلى كندا. كان صوت الأرجوحة الصدئة التي جلسنا عليها، ينيمنا. استيقظنا فجراً عندما تعالت أصوات النباح وعواء الذئاب. عندما قلت إنّ بإمكاني أن أعيش هكذا إلى الأبد. سخر روني مني وقال إنّ قلبي سينفجر من الضجر إن عشت أسبوعاً هنا. سكنّا بيروت طوال حياتنا. لم نغادرها إلا لفترات قصيرة في المعارك لكنّ هذا حصل قبل ولادتي. القرى لم أعرفها إلا متأخّرة برفقة أصدقائي.

الضيع التي نمرّ بها لا تشبه التي أعرفها. في بعضها لا أرى لا حقولاً ولا خضاراً بل يباساً وأعشاباً برية. كنت أرغب في أن أنتظرهم في السيّارة.

قالوا إنني سأضجر. لا يعلمون كم من الوقت سيتغيّبون. صوت المؤذن تعالى عند مشارف الضيعة. توقّف رضا بالقرب من الحسينية. شاب ملتح سلاحه ظاهر اقترب للتأكّد من الهويات. أشار رضا بيده إلى جهة اللافتة على الزجاج الأمامي. لم يلتفت إليها ولم يبال بكلمة صحافة مطبوعة بخطّ أسود عريض. احتشد حولنا صحافيون آخرون. صافحونا. واحدة من الوكالة الفرنسية اقتربت من رضا وقالت شيئاً عن اطلاق صاروخين قبل قليل باتجاه اسرائيل. فهمت أنّهم لن يطيلوا البقاء سيذهبون لتصوير المنصّات التي وجدها الجيش. سألني أحد الصحافيين إن سبق ورأيت المستعمرات الاسرائيلية، أجبت إنّه لم يسبق لي أن رأيت الجنوب أصلاً. «تعملين حديثاً بالصحافة؟» قلت إنّني جئت مشواراً وأشرت إلى رضا. تكلّم عن التلال الكاشفة لاسرائيل، وعن تعرّضه ذات مرة إلى إطلاق نار عندما كان يصوّر. أسرعت خطواتي لأحاذي رضا، لكنّه بلمح البصر اختفى عن ناظري. وقفت بعيداً تحت شجرة تين. رأيته على سطح بيت يصوّر شيئاً لا علاقة له لا بالحسينية ولا بالناس. الكاميرا تصوّر سرباً من طيور كبيرة لا أعرف اسمها. رفعت عيني باتجاهها. السماء زرقاء. غيوم بيضاء تتدرج في صفحتها.

حين اقتربوا من المكان الذي أرادوا تصويره صارت الطرق وعرة. الوحول زلقة. غرزت الدواليب فيها لبعض الوقت. سيارة الصحافيين الآخرين مركونة قريباً من حاجز للجيش. نزلوا وأكملوا سيراً وبقيت في السيّارة. ارتديت الأنوراك لأنّ الصقيع قويّ في هذه الجرود. لم يمكثوا طويلاً. بدل أن يقود رضا جلس قربي وترك رفيقه يقود. قال إنّه لم يسمع صوتي طوال المشوار، كيف وجدت الجنوب سألني. أجبت: جيّد. ضحك كأنّني قلت أطرف شيء. قال إنّه لا يجوز أن آتي إلى هنا دون أن نأكل صفيحة. لمس رضا الجرح فوق عيني. وسألني «غير ضرب الناس ماذا تفعلين في الحياة؟» أجبت إنّني لا أفعل الشيء المهمّ. كنت أنظر إلى بسطات السمك والفول الأخضر. أولاد أو صيّادون يمدّون سمكة

كبيرة في وجه السائقين منادين بأصوات لا تصلنا. تمنّيت أن نسرع في العودة. تغيّبي عن الدروس الخصوصية مرّتين قد يفقدني مصدري المالي الوحيد.

لم نكن وحدنا في الفرن الكبير الذي توقّفنا عنده. سبقنا إليه الصحافيون الآخرون. أسماء لم أستطع أن أحفظ أصحابها : وسام، صفية، وفيق، محمد... في الفرن ملحمة وسوبرماركت ومقاعد وطاولات للراغبين في الأكل هناك. الصحافي الذي أخبرني عن إصابته، عاد ليحدّثني كأنّنا رفيقان. قال إنّ هناك قتلى أكثر بكثير مما يُذكر في الاعلام. في ضيعته هناك ثلاثة شبان شُيّعوا بصمت منذ شهور. سألني إن كانت السيّارات المفخّخة ستزيد برأيي من الشقاق المذهبي؟ سؤال أضحكني في سرّي، الطوائف والمذاهب والبلد كلها آخر همومي. بدل قول ذلك أجبت «هذا ما سيحصل للأسف».

كنّا نجلس كالمتأهبين للانصراف. الكلّ منحنٍ فوق ما يأكله، الدهن المختلط بالحامض يسيل على الأصابع ويبقع الثياب. سألوني كيف وجدت الصفيحة؟ أليسوا محقّين بأنّها أطيب ما أكلت. نزل سعد في طريق العودة ليستقلّ السيّارة الثانية، فيما صفيّة ركبت معنا.

في طريق العودة تحدّثوا عن زملاء لهم في المهنة، فهمت أنّ أحدهم فبرك صورة مؤثّرة لطفل نازح وباعها غالياً. لا يأخذون استراحة بين موضوعاتهم. العمل والسهرات والنميمة على آخرين. كانت صفيّة لا تنظر نحوي كأنّني خفيّة وتستمرّ بالتربيت على ظهر رضا. أو تضرب رأسه من خلف حين يمازحها. طعم السجائر في فمي اختلط بالزعتر واللحم والفول. كأنّني ابتلعت حوتاً. الألم في بطني زادته حِدّة حفر ومطبّات الطريق. عندما وجَّهَت صفيّه الكلام إليّ ونحن على مشارف خلدة سألتني عن عملي. أجاب رفيق رضا بدلاً منّي «محامية». وجمت، ولم تضف كلمة. لم أدرِ أكان يمزح أم

أنّ رضا كذب عليه. لم أصحِّح ما قاله. عدت لتأمّل السيّارات والبحر. كان يوماً طويلاً وصاخباً.

* * *

لا أعرف السبب الذي دفعني إلى الكتابة. ظننت أنّه الحادث. لاحقاً فكّرت أنّني أردت أن أفهم ما يتبدّل معي. الآن لست متأكّدة من شيء. أهو الضجر أم الأرق أم البطالة. في صغري كان لديّ دفتر لكتابة اليوميات. جاءني هديّة في عيد ميلادي العاشر. كتبت فيه عناوين الكتب التي أقرأها، ونسخت مقاطع أحبّها. وضعت علامات لما أقرأه. فيه أسماء لرفاق وقرب كل اسم إما زهرة لمن أحبّهم أو وجه عابس لمن لا أستلطفهم. لم أكتب فيه شيئاً آخر. خفت أن تقرأه أمي خِفْيَةً عني. ما أكتبه الآن أودعه في بريدي. رغم كلمة السرّ المعقَّدة التي اخترتها، أخشى دائماً أن يدخل أيّ أحد إلى بريدي خلسة. تمرّ أيام دون أن أكتب. لا أقرأ ما كتبت. لكنّني لا أمحوه أيضاً.

خروجي المتكرّر لرؤية كريستيل، جعلني أتجاهل الردّ على رضا. رسائل يبعث بها كلّ ساعة على مدار الأيام الثلاثة المنصرمة. لا يعلم أنني أحتاج إلى مساحة. لو لم تكن كريستيل حزينة لانفصالها عن أحمد لما التقيت بها بهذه الوتيرة. مسألة أيام وتنساه تماماً. سبق وعايشتها في انفصالات أخرى. لكنّ علاقتها بأحمد هي الأطول. أمّها تكلّمني أيضاً لتخبرني إنّها تغيب عن الجامعة ولا تأكل. تريد مني أن أقنعها بالخروج. كريستيل تلوم أحمد على تبدّله. لا يردّ على اتصالاتها، ولا على ايميلاتها. تمضي أيّام دون أن تراه. عندما واجهته قال إنّه منزعج من إلحاحها وعدم تفهّمها لظروفه. تظلّ تسألني أنا «أيّ ظروف؟ لا بدّ أنّ هناك فتاة أخرى يحبّها. ألا تعتقدين ذلك؟». أقول لها الردّ الذي يريحها. عندما خرجت برفقتي بعد ذلك، اخترنا الذهاب إلى جونيه. شاهدنا فيلماً، لكن ظلت خلاله تهمس لي الأسئلة نفسها، حتى أسكتتنا امرأة تجلس في المقعد

أمامنا. كانت التطمينات تقنعها لوقت قصير. كأنّنا مشهد واحد يظلّ يكرّر نفسه إلى ما لا نهاية. على رغم اختلافي عنها، ربطتني بها صداقة من أيّام الجامعة. ما يعجبني فيها أنّها لا تفترض أن أكون مثلها. لا تحاول أن تعرف عنّي إلّا ما أقوله.

في المقهى الذي جلسنا فيه داخل المجمَّع التقت برفاق لها لا أعرفهم. ثلاث فتيات وشاب. قالت إنّهم معها في إدارة الأعمال. جلسوا معنا. أكبرهم بثلاث سنوات فكّرت. لكن لسبب لا أفهمه بدوا صغاراً جداً. تذكّروا سهرة لهم في الجميزة من أسبوع. ضحكهم صعّب عليّ فهم الحكاية. سردتها لي كريستيل. قالت إنهم في طريق العودة عرجوا على مونو لاكمال السهرة، وشربوا أكثر من اللازم. بعدها تمشّوا في الشارع وغنّوا بأعلى صوتهم. لم يكن ذلك استثنائيّاً في ليلة سبت. لكنّ كلود رفيقهم أراد أن يذهبوا إلى السيوفي حيث تقيم حبيبته. فوجئوا هناك بصمت الشارع النائم. ركنوا السيارة أمام البناية ثم رفع صوت الموسيقى. قال إنّها ستعرف من الأغنية. كانت السيارة ترتجّ من قوّة الصوت. فتحوا شبابيك السيّارة وشرّعوا أبوابها. في دقائق انهالت الشتائم واللعنات لهم ولأهلهم الذين لم يربّوهم. لم يعرفوا كيف يهربون قبل أن يطلّ والدها ويتعرّف على كلود. عندما سألوه لماذا لا تسهر معهم، قال إنّها ما تزال في المدرسة، وأهلها لن يسمحوا لها. من ليلتها وهم يرسلون له صور فتيات صغيرات بجدائل. أو تلميذات يرتدين مريول المدرسة. قوله إنّها في سنتها الأخيرة لم يخفّف من ثقل مزحاتهم.

في اليوم الرابع بعثت لي كريستيل بعد الظهر برسالة تسألني إن كنت أريد أن ألاقيهم ليلاً في مونو. لم أجبها لأنني لا أعرف كيف سيكون مزاجي. المكان الذي سيقصدونه غال. لم يبق معي إلا سبعون دولاراً لأكمل الشهر. توقّفت عن الذهاب لتعليم علي. بعد حديثي الأخير مع أمّه ما عدت أرغب في تدريسه. كان يسألني عن جهنّم والنار والعقاب. لم أفهم سرّ اهتمامه المفاجئ بهذه الأمور. قلت له إنّ القصص الدينية

رمزية كالقصص الخيالية، الهدف منها تشجيع الانسان على فعل الخير لا أكثر. عاتبتني أمّه في اليوم التالي لأنّ الشيخ الذي يعطيه دروساً دينيّة اشتكى من أسئلة علي المشكّكة. أقسمت فيما أغادر ألّا أتحمّل هذه المرأة بعد الآن. كنت أهمّ مرّات بالرد على اتصالاتها. لكنّني تراجعت في اللحظة الأخيرة. أفضّل أن أموت جوعاً على أن أطأ عتبة بيتها ثانية. لذا حين سألتني سوسن إن كنت أرغب في أن أحلّ ضيفة على برنامج إذاعي. لم أتردّد بالموافقة. قالت إنها فكّرت فيّ حين سألتها صديقة لها تعمل في الاخراج الاذاعي. كلّ يوم ساعة لستة أيّام في الأسبوع. أردّ خلالها على أسئلة الأهل بخصوص مشاكل أبنائهم. سألتها كم يدفعون. تفاجأت من سؤالي وأفهمتني أنّ البرنامج دعاية لعملي. قالت إنّ عديدين سيطلبون رقم هاتفي تحت الهواء لمتابعة أولادهم. الإذاعة ستأخذ نسبة مئويّة من هذه المتابعات. قلت محتجّة إنّهم لا يدفعون بل أنا أدفع لهم لقاء عملي؟ قالت إنّ الأمور تجري هكذا في هذا المجال. أخبرتني عن التجربة التي عليّ الخضوع لها قبل ذلك. بعد حديثنا، قلقت. أين سأستقبل هؤلاء الأولاد؟ استئجار غرفة مهما كانت صغيرة سيكلّفني مبلغاً لا أملكه. تردّدت بمفاتحة أهلي. لأنّ هذا يعني أن أطلب خدمة منهما. منذ سنوات أتجنّب ذلك. هناك غرفة نوم غير مستخدّمة. متى عملت في البيت لن يدَعاني وشأني وسيسألان عن مشاكل من يأتون. سيتعرّفون على أهلهم وأشياء أنا بغنى عنها. غضضت النظر عن الفكرة. سأجد حلاً أفضل هكذا قلت لنفسي. ليلاً عاد الموضوع ليشغلني. أخرجته من رأسي عندما ذهبت لملاقاة جهاد ورفاقه في أحد مقاهي الحمرا. وجدت رضا برفقته إضافة إلى وجوه جديدة. لكنّهم جميعاً يعملون في المجال نفسه. تشاوروا حول السهرة. قالوا إنّهم مفلسون. سيسهرون عند مازن، مراسل في الجمهورية. ركبنا سيارتين. اشتروا فروجاً مشوياً وبزورات وثلاث قناني نبيذ وفولاً أخضر. أصررت على دفع حصّتي رغم ممانعة جهاد الذي قال إنّه دعاني. لم أسأل إلى أين نحن ذاهبون. رأيت أنّنا نتوجّه إلى الأشرفيه. شقة في

الجعيتاوي. كان علينا صعود الادراج. البناية قديمة جداً ليس فيها مصعد. غرفتان كبيرتان وشرفة واسعة. بدا البلاط قديماً يتحرّك تحت دوس أقدامنا. جلسنا على مساند وزعت فوق بساط عليه آثار حروق سجائر. ألوانه الأصلية بهتت لتحلّ مكانها بقع مشروب وصلصات. أغان لأمّ كلثوم ولمطربين قدامى لم يسبق أن سمعتهم. طعم النبيذ كالخلّ. كانوا يغنّون جميعهم بأصواتٍ أقوى من الموسيقى. من باب الشرفة دخلت نسمات ربيعية وأصوات التلفزيونات. كان رضا ينظر نحوي دون أن يحاول مكالمتي. يتجنّبني لأنني لم أردّ على أيّ من رسائله واتصالاته. لا أدري لماذا يعتقد أنّ عليّ أن أفعل. أضحكني رقصهم الذي لا علاقة له بإيقاع الموسيقى. رفع للأذرع وتحريك للأقدام بما يشبه الدبكة. كانوا يحاولون جرّي فأقف للحظات لأعود للجلوس ثانية. خرجت إلى الشرفة واتّكأت على الدرابزين. غباره وسّخ كمَّيْ كنزتي الزرقاء. نفضتهما دون جدوى. «تظنّين أنك في فينسيا؟ هذا بيت شباب». جفلت من صوت رضا، ومن نبرته الحادّة. كان يحمل كأسه بيد والسيجارة بيد أخرى، أشرت إلى جواربه. قال إنّه لا يهتمّ بالغبار. سألني إن كنت لئيمة مع الجميع أو خصّصته وحده بهذه المعاملة. ابتسمت متناولة السيجارة التي مرّرها لي. سعلت طويلاً لأن المجَّة كانت حارقة. لم أعرف أنّها حشيشة. كنت أنتظر أن يسألني مباشرة عن سبب اهمالي لاتصالاته. لكنّه اكتفى بتعليقات قصد منها أن يستفزّني. كان البرد يقوى مع تقدّم الليل. أردت العودة إلى الداخل لأجلب الأنوراك. قال: أهذا أسلوبكِ، الهرب؟ عدت أدراجي ونظرت إليه. أردت أن أسأله عن سبب غضبه، لكنني فجأة أحسست بالتعب. أردت أن أخرج، أن أمشي. فكرت لماذا أنا هنا؟ وجودي شاذّ وسطهم. يتقاسمون أشياء كثيرة. العمل، والاهتمامات. يحبّون الموسيقى نفسها، ويضحكون لقصص لا أعرفها، ويحكون عن أشخاص لم أسمع بهم. قلت له بهدوء أن لا داعي ليزعل من عدم ردي على رسائله واتصالاته، لم أقصد ايذاءه.

من يتكلّم عن الأذى؟ لكنّ تصرفك غير مُراعٍ أبداً. ظللت أحلّل إن كنت أزعجتك في شيء. في الأخير أنت حرّة.

خرج جهاد إلى الشرفة ليطلب منّا الدخول للأكل. رائحة الثوم والحشيشة ملأت الغرفة. فكّرت أن أخرج، لكنّ الوقت متأخّر لأعود وحدي. تذكّرت حفلة جرّتني إليها أمّي رغماً عنّي. عيد ميلاد ابنة زميلة لها. كنت في التاسعة حينها. أرادت أن تلبسني ثوباً. كالعادة تشبّثت ببيجامة الرياضة، قائلة إنّني لن أذهب معها إذا أصرّت على الباسي ثوباً. عندما وافقت على مضض. قلت إنني لا أريد الذهاب إلى مكان لا أعرف فيه أحداً. نادت والدي الذي أمرني بمرافقتها وسماع كلامها. بقيت في السيّارة عندما نزلت إلى محلّ الهدايا. وضعت الهدية بين يدي فيما ندخل المطعم. فتيات بأثواب لها كشاكش عليها أشياء لامعة. نظرن إليّ دون أن يخفين ضحكهنّ مني. لكزتني أمي لأقدم الهدية. مددتها لفتاة وضعوا لها الكحل وأحمر الشفاه. نظرت لحظة إلى حصّالة النقود على شكل بيت وألقتها فوق كومة من الهدايا. سألتها رفيقة لها ما هذا. أجابت إنها سترميها ليست طفلة لتلعب ببيت دمية. كان الأولاد كلّهم أقصر مني بما في ذلك الصبيان. جلست على كرسي. لم أتزحزح من مكاني حتى عادت أمّي بعد ساعات لاصطحابي. كان هناك شابة ترسم على الوجوه. حين اقتربت لترسم لي كالآخرين أبعدتها بيدي. قالوا لها «دعكِ منها، ليست رفيقتنا»، وتهامسوا حولي أنا القابعة في صمت دون حركة. أكثر ما خفت منه أن تنزل دموعي تلقائياً. صخبهم حولي أوقع كوب العصير فوق بيجامتي. لأنسى تخيّلت أنني ساحرة وبعد قليل سأحوّلهم إلى نمل صغير يشقى كي لا تدوسه الأرجل. بعد هذه الحفلة، لم يعد أهلي من جهتي، صاروا هم أيضاً غرباء وأشراراً.

* * *

لم أخبر أحداً بشأن المقابلة. ضغط الأسئلة أصعب عليّ من عدم

حصولي على العمل. بحثت في خزانتي عمّا يمكن أن أرتديه. ما وجدت إلّا بنطلونات الجينز العتيقة. أخيراً لبست واحداً أسود مع قميص أبيض وكنزة سوداء. لم أحاول أن آخذ سيارة أبي كي لا يسألني إلى أين أنا ذاهبة. كما أنها فارغة من البنزين ولا أحتمل نفقات اضافية. السرفيس الذي ركبت معه استمرّ بمحادثتي وهو ينظر إليّ في المرآة لا إلى الطريق. تمنيت أن يركب أحد كي يحادثه بدلاً مني عن ذكرياته وعن موقف السيارات عند البرج والبناية التي ورثها في الحمرا وباعها بأقلّ من ثمانين ألفاً. حين وصلت فوجئت بأنه عليّ أن أتعلم استعمال الأزرار والتحكّم بها. لاحظت استغرابي. قالت «ما كنت تعرفين؟» لم أقل إنني كنت أتوقّع مقابلة لا بثّاً مباشراً على الهواء. ذكرت اسمها بسرعة وما عرفت أهو فاديا أم تانيا. قالت إنّ عليّ الكلام لدقيقتين عن الاشارات السلوكية التي تستدعي من الأهل استشارة اخصائي. كانت يداي تتعرّقان، وقلبي يقفز ولم أعرف كيف سأفعل كي لا يرتعش صوتي. سأحتمل ساعة. فكّرت بأن أنهض ولا أعود. ربّما ارتبكت. ربّما لا أمتلك القدرة على الردّ المناسب. صحيح أنني أمضيت اليومين الأخيرين أقرأ وأراجع كتبي القديمة تحسّباً لأن تطرح عليّ أسئلة معقّدة. لسبب ما طار من رأسي كل شيء. لا في المدرسة ولا في الجامعة كنت أخاف من الامتحانات. ما الذي يحصل لي. بينما أحكي كنت متأكّدة بأنّ صوتي يرتجف. لكنّ إشارة المخرجة أفهمتني أنّ الأمور على خير. الدقيقتان مرّتا ببطء. الفاصل الاعلامي ما كان كافياً لأستجمع هدوئي. في الاتصال الأوّل سألت أمّ عن تراجع ابنها في المدرسة منذ ولادة أخيه. الفارق بينهما سبع سنوات. شرحي عن الغيرة وآثارها لم يقنعها. أجابت إنّه يحبّ أخاه ويهتمّ به ويطعمه أيضاً. اشارة أفهمتني بضرورة أن أختصر. الانتقال السريع بين الاتصالات أنساني ارتباكي. الأسئلة كانت بديهية. النصائح التي ذكرتها أعجبت المخرجة. كلّمتني بعد انتهاء الساعة. قالت إنّ هناك متّصلة طلبت رقمي تحت الهواء لكن في الحلقات المقبلة سيزداد عدد المستمعين والمتصلين. باستثناء

ملاحظات تتعلّق بحركة أصابعي على المكتب، ويفتح سدة القلم لم تذكر أي ملاحظات. أعادت تنبيهي إلى تجنُّب إحداث أي صوت جانبي بينما يكون الميكروفون مفتوحاً. قالت أيضاً ألا أردّ على أحد بأن سؤاله خارج موضوعنا وأن أترك ذلك لتانيا. انتظرت أن يقابلني مدير الاذاعة كما طلبت المخرجة.

بعد ثلاثة أرباع الساعة دخلت إلى مكتبه، كان يحكي على التلفون. صافحني مشيراً إليّ بالجلوس. تأمّلني فيما يكمل حديثه. وعندما أغلق السماعة رحبّ بي طالباً مني تذكيره باسمي. سألني عن صحافي يحمل اسم عائلتي، قلت لا ليس قريبي. سألني كيف وجدت العمل في الاذاعة. ثمّ صافحني ثانية وخرجت. لم أفهم لماذا كان عليّ أن أبقى. هل لأحصل على شرف التسليم عليه.

داخل الأستديو كان الحَرّ شديداً. وجهي ساخن كأنني محمومة. ضجة الشارع ثانية. مشيت على مهل. الطقس ربيعيّ. أشعلت سيجارة. رفعت عيني باتجاه السماء. رفّ حمام يسير في حلقات. كان هاتفي يرتجّ داخل حقيبتي تجاهلته. فكرت أن أسير إلى اليسوعية. مضى وقت لم أذهب إليها. كنت أستعير كتباً من مكتبتها. عليّ أن أجد مكاناً لاستقبال الأولاد. رضا عرض عليّ أن أستخدم الغرفة الثانية في شقته. منذ شهرين فرغت بسبب سفر زميله في السكن إلى الكويت. حين سكتُّ قال إنّ بإمكاني أن أدفع جزءاً من إيجار الشقة متى مشى حال العيادة. تسمية تضحكني. أظلّ أذكّره أنني لست طبيبة. فكّرت بعرضه. لكنّني أخشى أن يعلم أهل الأولاد أنّ الشقة فيها شاب أعزب. موقعها في كاراكاس مناسب جداً. لست بحاجة إلّا إلى مكتب وكرسيين. رضا يكون غائباً خلال النهار. أحتاج المكان لساعات قليلة. أعلم رضا مسبقاً بالمواعيد. ما يدفعني إلى التردّد هو علاقتي برضا. في سهرة الجعيتاوي، زعل وما عاد ينظر نحوي. عدت إلى البيت مع رفيق جهاد. أرادوا هم أن يأكلوا كنافة عند الدويهي. خلال اليوم التالي عادت رسائل رضا لتصلني كل ساعة. قال إنّه

يدعوني إلى مطعم مختلف تماماً. سألته عن اسمه قال فقط إنه في الحمرا. يصعب ألا أكون أعرفه قلت. لكنه كان محقاً. اسمه مغربي. الأكل بدا غريباً، بالكاد تذوّقت القليل من طاجن اللحم. مغنّية مغربية أيضاً غنت ألحاناً شرقية. بدا الجميع حولي منسجماً مع ايقاعها. شاركوا في الغناء ثم الرقص. لم أحبّ فيه سوى النوافذ العريضة التي تحيط المطعم. منها كنت أرى أضواء الكهرباء البعيدة. في المطعم صادف رضا الكثير من معارفه. أراد أن ننضمّ إلى بعضهم حين وقفوا في حلقة حول المغنّية. قلت إن عليّ العودة، بامكانه أن يبقى. بيتي ليس بعيداً. أصرّ على مرافقتي. كانت الشوارع ضاجّة أكثر من العادة. ربّما بسبب الدفء والصحو. «لا يعرف الواحد كيف يرضيكِ». قال فجأة، كأنّ الجملة عالقة منذ وقت طويل في داخله.

من قال إنّ عليك أن تفعل أيّ شيء. في الواقع تصرّفاتك هي المحيّرة.

حقاً؟ من هو المزاجي بيننا. ساعة تردّين وساعة لا. لا أفهمك أبداً.

هل هناك قانون لا أعرفه في العلاقات أم أنّنا شخصان ناضجان يحاولان قضاء وقت ممتع؟

أتسمّين هذا النكَد متعة؟

عادة أنا شخص هادئ لكن حين قال تلك الجملة، جاء كلامي حادّاً. قلت إنّه ليس زوجي ولا حبيبي ولا صديقي. لم أعرفه إلّا من فترة قصيرة. أنا حرّة في أن أردّ أو لا أردّ على الرسائل. لديّ حياة وظروف. لست ملزمة بأيّ تبريرات لأحد. هو أيضاً حرّ في ألّا يرى صورة وجهي بعد الآن.

لسبب غير مفهوم أضحكه كلامي وادّعى أنّه كان يمزح. ثمّ وضع يده فوق رأسي ليلخبط شعري. لاحقاً فكّرت أنه محقّ في حيرته. أحياناً أرغب في رفقته وأجده مضحكاً وفي أحيان أخرى تزعجني تصرّفاته وصوته العالي، وطريقته في فتح ذراعيه للسلام على معارف له. حتى

الألقاب التي يتنادون بها لا أحبّها. عندما يناديني «أم الرور» لا أردّ. إعجاب الفتيات به يدفعني أيضاً إلى الابتعاد. شيء في حركاته يذكّرني بشخص لا أحبّه. لا أستطيع أن أفسّر ذلك. أذكر روني. معه ما كنت أحتاج لأن أقول شيئاً. يحزر أمزجتي المتقلّبة. لم يضحكني أحد مثله. مرّة قال إن استمرّ زعلي منه، سيخلع كل ثيابه ويمشي في الشارع عارياً. كان قد ذهب في عطلة الأسبوع إلى طرابلس عند أحد أصدقائه. اكتفى بأس أم أس ليبلّغني. فكّرت أنّه يحتمل أن يغيب عنّي كل هذه الساعات وأنا لا. هل حينها أدركت مشاعري، أم كنت أعرف من البداية وتجاهلت الاعتراف بها؟ كنا قريبين من شارع السادات، بدأ بخلع حذائه وجواربه ثم الجاكيت والقميص، في تلك اللحظة علمت أنّه لن يتوقف. سينفّذ تهديده. الناس حولنا التفتوا نحوه بعضهم أغرق في الضحك وبعضهم استغفر ربه. أحد المارة لعنه ولعن الذي ربّاه.

عليّ أن أكفّ عن هذه المقارنات. لا رضا ولا غيره مثل روني. حتى أنا بدأت أتساءل إن كان خيالي يجمّل هذه الذكريات.

استغربت أن تكون الأنوار مضاءة حتى هذه الساعة. لا يطيل أبي السهر إلى هذا الوقت. تهيّأت لإلقاء تحيّة سريعة والاختفاء في غرفتي. سمعت أصواتهم وأنا في الممر. كانت أختي كلودا جالسة بين والديّ، كلّ منهما أحاطها بذراع. لم أسمع أيّ تعليق منهما حين دخلت. لأوّل مرة كنت غير مرئيّة. سعادتي لم تدم إلّا لحظات لأنّ أمي لحقت بي إلى غرفتي. قالت إنني بلا إحساس، ألم أتساءل لماذا أختي عندنا هي وولداها؟ قلت ساخرة «زعلانة من زوجها؟» كان قصدي أن أسخر لأنني لا أسمع من أختي إلّا المديح والاعجاب الدائمين لزوجها بشارة. حين أمرتني أمي بخفض صوتي. قلت لها لماذا تعطون الأمر هذه الأهمية غداً تتصالح مع حبيب القلب. نظرت نحوي بلؤم. قالت وهي تمسح دمعة بأنني بلا أيّ عاطفة، قلبي حجر، كأنّ تمساحاً ربّاني. ظننت أنّ الأمر انتهى عند هذا الحدّ. لكنّ أبي دقّ باب غرفتي بعد قليل، وطلب مني أن أطيّب

خاطر أختي. جررت نفسي وجلست دون أن أقول شيئاً. بدت حزينة حقاً. تسكت للحظات لتعاود البكاء مكرّرة جملة واحدة «بعد كل هذه السنين؟» غمزتني أمي لأبادر بقول شيء ما.

غداً تخفّ الأمور عليك. بشارة لا يحتمل زعلك. قلت وأنا أفكّر بطريقة لئلّا أضطرّ للبقاء معهم طويلاً.

بلى يحتمل ونصف. الحقّ يقع عليّ أنا. ألست أنا من وظّفتها ومدحت أخلاقها. ألم أجلب الدبّ إلى كرمي؟ الرجال كلهم خنازير.

لم أسألها من تقصد. أعرف الفتاة التي تتدرّب عندهما. كتمت ضحكتي. استغربت أن تجد الموظّفة أيّ شيء مثير للاهتمام في بشارة. شكله لطيف، لكن غير ذلك هو نسخة عن أبي أو أي رجل عادي. يعمل بجد، وهو سعيد بشراء بيت في الجبل وآخر في بيروت، كما أنّهما باشرا في فتح فرع ثان لصيدليتهما. معظم حديثه عن العقارات والمشاريع وتفوّق ابنيه ايلي وروبير. أمّا أنا فلم أتبادل معه إلا عبارات المجاملة المعتادة. صيفاً لا أذهب مع أهلي لزيارة بيت أختي في صاليما. لم أرَ البيت إلّا في الصور. لكنّ أمّي لا تكفّ عن وصفه كأنّها هي اشترته. الحديقة الواسعة والطابقان الفسيحان. قرميده، والمناظر التي يطلّ عليها. أذكر كيف منذ أكثر من عامين ألحّ عليّ الجميع لأرافق أهلي لأسبوع بحجّة أنّ هواء الجبل مفيد والمكان يعجّ بالمصطافين. حين يئسا من قبولي. بدأت أمّي تحكي عن شقيق بشارة الذي عاد من أميركا بعد انهاء الدكتوراه في الهندسة. سألتها وبماذا يهمّني السيد اسكندر؟ قالت إنه يريد الزواج. كان قولها الحجّة التي أبقتني بعيداً جداً عن اجتماعات العائلة.

أشعلت سيجارة. أرادت كلودا أن أعطيها واحدة. طلبت ذلك كمن يتحضّر للانتحار. لا أذكر أنني رأيتها تدخّن. كانت سابقاً تعدّد لي الأمراض الناتجة عن التدخين سائلة أهلي كيف يسمحان لي. كان ردّ أمّي دائماً أنّ أبي أفسدني لأنني صغيرة أخواتي.

سعلت كلودا طويلاً قبل أن تأخذ أمّي منها السيجارة وتطفئها. تمنيت أن تتوقّف عن البكاء. أردت أن أنام بضع ساعات. ليس بامكاني أن أتأخّر عن الأذاعة منذ أسبوعي الأوّل. مسحت كلودا دموعها بكمّها ونظرت إليّ لتسألني: ماذا أقول لايلي وروبير؟ أبوكما حقير وخائن؟

حين سألها أبي ماذا لو كانت تبالغ في تفسير الأمور. جلسة المصارحة بينهما ستزيل التشنّجات. لا يجدر بمسألة عابرة أن تنسيهما مصلحة العائلة والولدين. ارتفع بكاؤها فنظرت أمّي إلى أبي بعتاب. حاولا استدراجها بشتى الطرق لتخبرهما لماذا هي متأكّدة من فِعلة زوجها. لم تجب وراحت تبكي كأنّها وحدها. لأوّل مرة أشعر بالتعاطف معها. لم أعتد رؤيتها بهذا الضعف، حتى شكلها تهدّل كنبتة يابسة. جرّبا كل شيء لجرّها إلى السرير. قالت إنّها تريد أن تبقى وحدها. لا تستطيع النوم، وتريد التفكير بصفاء.

وجدت رسالة من رضا يقول إنّه نسي أن يسألني إن كنت أرغب في مرافقتهم إلى البقاع غداً. أطفأت هاتفي وتساءلت هل نسي حقاً أنني بتّ أعمل. لم أستطع النوم بعدها شغلني التفكير بايجاد مكان لاستقبال الأولاد المحتمَلين. البيت الآن مكتظ. لا أدري متى تعود أختي إلى بيتها. هذا إن عادت. أمّا شقة رضا فلا تبدو خياراً جيداً. لم أكد أغفو حتى أيقظني كابوس رأيت فيه نفسي أنتظر ولداً. تهاوى المقعد ما إن جلست عليه. انشغلت باصلاحه قبل أن يصل، وعندما استندت إلى المكتب وقعت أخشابه محدثة فجوة عميقة في الأرضية. خفت أن أتحرّك لأنّ البلاط بدأ يتفسّخ. في هذه الأثناء وصل الولد وكان وجهه كبيراً كأنّه في الأربعين أما جسده فجسد طفل في العاشرة. خفت من نظرته الشريرة أكثر من تهاوي المكان. لذا تركت نفسي أسقط في الفجوة السوداء. نظرت إلى الساعة. لم تمرّ ساعة على نومي. حاولت العودة إلى النوم لكنّ مسألة أخرى بدأت أفكّر فيها. كنت أجّلتها حتى أجد مكاناً. أحتاج الكثير من التجهيزات. إذا استدنت من أمّي سيكون لزاماً عليّ أن أخبرها بعملي.

لن أفعل إلّا أذا مشى الحال. لففت نفسي في بطانية وخرجت إلى الصالة. وجدت كلودا غافية. فتحت عينيها ما إن اقتربت. أفسحت لي لأجلس قربها. بقينا صامتتين ننظر إلى شاشة التلفزيون، إلى برنامج تسوّق. فكّرت ما الفائدة من عرضه في وقت ميت كهذا. بدّلت القناة ووضعت أم تي في. الموسيقى القوية لم ترق لكلودا عبست رافعة يدها. اقترحت عليها أن نخرج للمشي جهة البحر. «في العتمة؟». قلت إنّ الساعة الرابعة الآن وبعد قليل سيطلع الفجر. لم أكن أظن أنّها ستوافق لكنّها نهضت من مكانها بحماس. كان الليل لا يزال قوياً فأشرت إلى القمر البدر. تأبّطت ذراعي فيما ترتعش من البرد. جهة الكورنيش تأمّلنا الفجر يطلع. استغربت كلودا أن يكون هناك مشاة وعداؤون في هذه الساعة. اشترينا كوبَين من القهوة وجلسنا متقاربتين فوق المقعد الحجر. قالت إنّها طوال عمرها لم تفعل شيئاً كهذا. للحظات بدت سعيدة، جرّتني من يدي لنقترب من الافريز وننظر إلى الصيادين.

* * *

حين وصلت إلى الاذاعة قالت لي تانيا إنّ المدير يريد مكالمتي بعد الحلقة. قلت إنّني قابلته منذ أيام. خلال الحلقة ظلّ بالي مشغولاً وتساءلت عمّا يريده مني. إن لم تعجبه مداخلاتي سيجد بديلاً عني بسهولة. أو ربّما للأمر علاقة بقلّة الذين طلبوا رقمي تحت الهواء. سأقول له أن يصبر حتى يتعرّف المستمعون إليّ. عندما سألت متّصلة عن سبب تأتأة ابنها، لم توافق على شرحي وقالت إنّها وراثية لأنّ والده أيضاً يعاني من المشكلة نفسها. نظرت باتجاه تانيا لأجدها هي والمخرجة تضحكان. خفت أن أصاب بعدوى الضحك والميكروفون مفتوح. لكنّ متصلاً آخر زاد الأمر سوءاً حين سأل ماذا يفعل لتخفيض وزنه، فقد جرَّب عدة ريجيمات دون أن ينجح. لم أفهم أنّه يحكي عنه ظننت أنه يسأل عن ابنه. سألته كم عمره؟ الضحك منع تانيا من أن تتدخّل لتصوّب لي. قال من هو؟ قلت «ابنك». سألني ما علاقة ابنه في موضوعه كما إن لديه ثلاث بنات. تمالكت تانيا

نفسها بصعوبة. أخبرته أنه ربّما يتصل من أجل برنامج آخر على اذاعة أخرى. فكّرت بالنهار اللعين الذي يعاكسني فيه كلّ شيء. المدير، والآن المتّصلون.

انتظرت كالمرّة السابقة. جلست صامتة بانتظار أن يبدأ الكلام. قال إنّه يحبّ أن يعرف عنوان مكتبي لأنني لم أدوّنه في الاستمارة. قلت إنني أعمل على ايجاد مكان مناسب. سأل مستغرباً وأين كنت أقابل الأولاد. كذبت مدّعية إنني في كل السنوات الماضية عملت في مدارس تؤمّن لي هي المكتب. لم يكن هناك وقت لأتابع آخرين من خارج المدرسة. قال إن لديهم غرفة في الاذاعة في الطابق الفوقاني بامكانهم تخصيصها لي إن لم أجد مانعاً. سألني عن التسعيرة التي سأعتمدها. ارتبكت. لكنني قلت «ما رأيك؟ ما المقابل المقبول؟» اقترح ثلاثين دولاراً لقاء كل ساعة. نصيبي منها أربعون بالمئة والاذاعة ستون. لم أناقشه لأنه أزاح عني عبء تدبير المكان. طلب مني أن أقرأ الاتفاقية قبل التوقيع. هناك بند جزائي بعشرة آلاف دولار. عندما استفسرت عنه قال إنّ البند الجزائي شرط أساسي في أي عقد. ضحك قائلاً إننا لن نصل إلى هذا الحدّ. عندما خرجت قال لي أن أسلّم كثيراً على الأستاذ جيلبيرغزال. لم أفهم بداية ثم تذكّرت أنّه سألني عنه سابقاً. نسي أنني نفيت وجود قرابة بيننا. يبدو أنّه لا يسمع إلّا كلامه هو.

فيما أمشي انشغل رأسي بحساب تكاليف التجهيزات. حتى لو كفاني مبلغ المئتي دولار الذي سأقبضه من تدريس وائل. كيف سأصرف طوال الشهر. رفضي اعطاء علي دروس خصوصية لم يأت في وقته. حاولت أن أنسى كل ذلك. تأمّلت طلاب الجامعة الجالسين فوق أدراج المدخل. صخبهم أقوى من ضجيج السيارات. أذكر كم كنت أحسد الطلاب الذين يستأجرون للسكن وحدهم. لكن حين زرت ربى وأخريات علمت أنه مجرّد وهم. ربى أيضاً حين أتت إلى بيروت ظنّت أنها ستصبح حرّة. وجدت في الأخير أننا أفضل منها حالاً. ليس لدينا من يحدّد لنا ساعة

للعودة. لا نضيّع الوقت في تدبير الطعام أو كوي الملابس. تحسّ في الفواييه أنها في القسم الداخلي لمدرسة صارمة القوانين. لذا كانت تنتظر العودة إلى أهلها في طرابلس بسعادة. حين تضطرّ إلى البقاء لعدة أسابيع بسبب الامتحانات، يأتي أهلها إلى زيارتها محمَّلين بالطعام، وتودّعهم دامعة العينين. ما إن تصل إلى غرفتها تفتح صفحة سكايب، تأكل فيما تتحدث مع أخوتها وأهلها ولا تطفئ الكمبيوتر إلّا حين تنام. كان غريباً عندما زرتها أن أرى أهلها على الشاشة. كانوا في بيجاماتهم، يتفرَّجون على التلفزيون، ويأكلون البزورات ويحكون معها من حين لآخر عن أشخاص تعرفهم أو أقارب أو عن نتائج أخوتها. خلال الفاصل الاعلاني استدرجتني أمّها سائلة عن أهلي وعن مهنة كلّ منهما، وعن علاماتي، وعن أختيّ. خجلي منعني من تجاهلها. عندما أردت الخروج، ودَّعتني كأنني في بيتها لا في غرفة تبعد عنها عشرات الكيلومترات. لولا المحاضرات التي أردت أن أستعيرها منها لما فكرت بدخول المبنى. ليس فيه إلا فتيات. يتجوّلن في بيجامات الرياضة، بشعور معقودة في أعلى الرأس. من الأبواب المفتوحة يتعالى صوت تلفزيون أو مكالمات. كأنّ لا شيء سرّي. الغرف متشابهة كلّها. تتكرّر عبر الممرات. الخزائن والأسرة والبرادي نفسها حتى ممسحة الأقدام. وحدها الأرقام على الأبواب تختلف.

* * *

بعد أسبوع امتلأت ساعات بعد الظهر بالمواعيد. أولاد من كل الأعمار، يأتون في الغالب مع أمهاتهن. بعض الأهل يفضّل الانتظار في أحد المقاهي مقابل الاذاعة بدل الجلوس لساعة على كرسي في ممر ضيّق. عندما قلت لإحداهنّ إنّ مشكلة ابنها تحتاج إلى طبيب نفسي، ردّت إنّ ابنها ذكي جداً، وما يلزمه هو أخصّائي يدلّه على الطريق الصحيح. تقول إنه لم يكن كذلك. كان ككل الصغار يخاف العتمة والمصعد والغرباء لكن بعد ذلك صار يخاف المدرسين، والامتحانات، وفي المدرسة لا يجيب عن

أي سؤال يوجَّه إليه. ما يقلقها أنه بالكتابة أيضاً لم يعد يجيب عن الأسئلة. تحكي عنه بحضوره كأنه غائب. بدا غير مكترث لما نقول. رمش بعينيه كأنّه غير قادر على تثبيت نظرته على شيء. توجّهت إليه بأسئلتي، لكنّ أمه أجابت بدلاً منه. عندما رفعت يدي في إشارة لإسكاتها، أجابت: «لا تتعبي قلبك، لن يردّ أعرف عناده». كنت مثل الصبي كمن علق في مصيدة. قلت لها إنني بحاجة أن أراه منفرداً إن أصرّت على أن أتابعه، وأعدت القول بأن الطبيب النفسي هو الحل الأمثل لحالته. ردّت بغضب إنّ والده مهندس معماري معروف وهي نالت الماجيستير بتفوّق وطوال حياتها كانت الأولى.

لم أتعلّم في الجامعة أن أواجه مثل هذه الحالات. عندما دقّ الباب قلت لها إن هناك ولداً ينتظر الآن. أجابت إنّها تريد أن تحجز لساعتين يوم الخميس المقبل. ما كنت أقبض المال مباشرة من الأهل. سكرتيرة في الاذاعة تفعل بدلاً مني. في آخر النهار تعطيني حصتي. قد تكون حصيلة يومي 12 دولاراً وفي يوم آخر تجاوز الخمسين. بعضهم لا يأتي إلى الموعد. يغيّر رأيه أو يخجل من البوح بأن الكلفة عالية. هناك أيّام لا يأتي فيها أحد.

على غير عادتي صرت أمكث في البيت ولا أخرج للسهر. أمّي ظنّت أنني أفعل ذلك تعاطفاً مع أختي كلودا. لم أخبرها عن عملي.

كانت كلودا تبقى في البيت طوال اليوم. شعرها منبوش، وتلبس ثياب النوم نفسها. روبها مبقّع بالتفل وبقايا الطعام. إنها المرّة الأولى التي تكون فيها بلا ماكياج. لم ترد العمل ومواجهة بشارة. يأتي كلّ يوم، يتوسّل إليها أبي لتخرج وتتصارح مع زوجها دون جدوى. تدخل غرفتي حين أكون غارقة في قراءة كتبي. المشكلات التي عليّ متابعتها تتطلّب منّي أن أقرأ بحثاً عن وسائل أحدث. تجلس عند طرف سريري متأمّلة يديها. أسألها عن حالها فتهزّ كتفيها. لا تتابع دروس ابنيها. يستغربان انتقالهما

إلى بيت جدَّيهما. عندما يسألان متى سيعودان إلى البيت، تجيبهما كلودا بغمغمة. للمرّة الأولى في حياتهما المدرسية يدرسان دون إشراف أمّهما ومحاسبتها. عندما يحاولان أن يُرياها الفروض المنجزة، تبعد الدفتر عنها كأنّه موبوء. يكرّران المحاولة حتى أقوم أنا أو أمي بقراءة ما أنجزاه. كانت أمّي تنتحي بي جانباً لتهمس لي أنها قلقة على كلودا ولا تدري ماذا تفعل. تسألني رأيي كلّما صادفتني. أمّا أبي فيقول بصوت يريد من كلودا أن تسمعه. «لو رأيت بشارة لصعب عليك حاله. يأتي ذليلاً ويرحل كالميت» أو يقول: «بعض الرجال يخطئون لكنّ الواحد ليس له إلّا عائلته وأولاده في النهاية». لم أكن أقلّ استغراباً منهم من تبدّل أختي. لسبب ما أفضّلها هكذا. لا أتمنّى لها الألم لكنّها تخلّت عن كونها تعرف أكثر من الجميع في كلّ شيء. منذ ذهابنا معاً إلى الكورنيش لم تخرج من البيت. تحاول أمي أن تصحبها معها للتسوّق أو لزيارة أحدى زميلاتها، أو السير صباحاً، لكنها لم تتزحزح من مكانها. لم يخطر لي أن توافق ما إن أعرض عليها أن ترافقني. لم يكن في ذهني أن أقصد مكاناً معيناً. عرضت عليها حضور فيلم، فقالت لا صبر لها على الأفلام. أخيراً جلسنا في ستارباكس. اخترنا طاولة على الرصيف. رنّ هاتفي عدة مرات. في المرّة الأولى، كانت كريستيل. قالت إنّها تصالحت مع أحمد، ولم أستمع إليها تروي تفاصيل حديثها معه. قاطعتها لأخبرها إنّني مشغولة وسأحكي معها لاحقاً. فكّرت أنّهما سيتشاجران ثانية. هذه حالهما منذ شهور. سوسن اتصلت لأنّني لم أردّ على رسالتها. شكرتها لأنها أوصت بي. انتظرت من كلودا أن تسألني حول ما سمعته لكنّها بدت مشتتة، غارقة في أفكارها. لم أحسب أبداً أن ألتقي برضا وجهاد. من بعيد راحا يضحكان ويسألانني «أين اختفيت؟» الفتاة والشابان الذين معهم وقفوا جانباً بانتظارهم. كنت أظنّ أنّ رضا لا يزال في البقاع. داوم على كتابة الرسائل ليخبرني عن المعارك، وعن الأوتيل الذي نزل فيه، وعن البرد والقذائف التي سقطت قريباً منهم وهم يصوّرون. أرسل لي عدة صور لا علاقة لها بمداهمات أو معارك. من

بينها واحدة لحقول تجمَّد فيها المطر والندى فوق الأعشاب والشتول. أخرى مع صحافيين أجانب يأكلون لحماً مشوياً داخل ملحمة. وصلتني أخبار أكثر من التي تَرِد للوكالات. هذا ما كتبته له. زعل وقال إنّه لم يعرف أنه يزعجني برسائله. سألا لماذا لا نرافقهما لنشرب كأساً. نظر جهاد إلى كلودا. قالت أن ليس هناك مانع. قلت إنّ لديّ أموراً أفعلها. أن أخرجها من البيت شيء وأن أسهر برفقتها شيء آخر. تأبّطت ذراعي حين لاحظت دهشتي. همست بخجل: «لا أريد أن أكون السبب في عدم خروجك مع أصدقائك». اقترب رضا وقال: «لا تتنازلين عن ساعة لتشربي معنا كأساً؟» مرافقة أختي كان بالنسبة إليّ كأنني خرجت مع أمّي. في حضورها لن أكون على طبيعتي. حتى حين قلت لنفسي إنّ رؤية الناس ستفيدها بقيت مرتبكة. ما حيّرني هو قبولها دعوة من غرباء لم تلتقهم. شخص مثلها لا يترك أيّ شيء للصدف، يخطّط لا لنفسه بل لكل من حوله. عندما قبض أبي تعويض نهاية الخدمة كانت هي من نصحه بشراء أسهم. حسبت ما سيحصل عليه من تجميد تعويضه وقارنته باستثماره المال بالأسهم. اعترض بأنّه لايفهم في وجع الرأس هذا. تطوّعت لتهتم بالموضوع بدلاً منه.

كان المكان مزدحماً. جلسنا محشورين. اضافة لجهاد ورضا كان برفقتهما صحافية فرنسية وصحافي صربي، يتكلّم الفرنسية بلكنة مضحكة أمّا الشاب الثالث فصديق لجهاد من أيام الجامعة. موسيقى السبعينات والثمانينات هي ما يحبّه مشغّل الموسيقى في هذا البار، أو ربّما يختارها للروّاد الذين في معظمهم جاوزوا الثلاثين. كنت أراقب الوتيرة التي ترفع فيها كلودا الكأس إلى فمها. قلقي من أن تسكر جعلني لا أنتبه إلى الحديث حين يوجّه إليّ. لا أذكر أن كلودا من محبّي الخمر. في المناسبات العائلية تكتفي بجرعة من العرق أو البيرة تتناولها من كأس زوجها بشارة. كانت تدندن كلمات الأغاني، محدّقة بقعر الكأس. طلبت مثلهم كوباليبرا، دون أن يبدو عليها معرفة ما في الكوكتيل. كأس مارغريتا

لي. الحديث بدأ عن الحرب في سوريا وانتهى مع تتالي الكؤوس إلى السخرية من مسؤولين سياسيين قابلوهم أو أخذوا منهم تصاريح. أصرّت كلودا أن تدفع الجولة الثانية من المشروب. انسجمت شيئاً فشيئاً مع أحاديثهم. ضحكت من مزاحهم. كما راحت تضرب كفّها بكفهم كأنها صديقة لهم. كنت كأنني على جزيرة وحدي، عندما حاولت كلودا أن تطلب لي كأساً ثانية، رفضت. قال رضا ساخراً بأنني بحضورها أتظاهر بالرصانة. رمقته بلؤم. كان يتهامس مع الفتاة الفرنسية ويضحكان. لا أدري أيّ حديث كان دائراً بين كلودا وجهاد. سمعتها تحكي عن الصيدلية وبعد ذلك أصغيت للموسيقى. الصربي الذي ظننته دخل الحمام رأيته في الجهة الثانية يحكي مع شلّة صاخبة. الضجيج يرتفع شيئاً فشيئاً ويطمس الموسيقى. كنت خائفة من أن يطلق المشروب لسان أختي فتقول أكثر مما ينبغي. أذكر تلك الحبة الغريبة التي أخذتها مرّة مع المشروب. كنت ضعيفة ليلتها. حدث الأمر في الفترة التي تجاهل فيها روني كلّ اتصالاتي. كنّا شلّة من تسعة. بعضهم تعرّفنا عليهم حديثاً. كان طوني عطروني من وزّع علينا الحبوب ونحن في ملهى في سنّ الفيل. رفضت بداية. قالوا إنّني جبانة، لا أجرؤ على عيش تجارب مميّزة.

ما أذكره من تلك الليلة غريب ومشوّش. أذكر كيف قدنا السيّارات وتسابقنا. مدّوا رؤوسهم من شبابيك السيارات وصرخوا شاتمين النائمين الكسالى. امتلأوا بطاقة مجنونة. أرادوا أن نصل إلى ملهى في كفرذبيان. كنت على خلافهم أحسّ برغبة في البكاء. جسمي تورّم. يديّ تحرّكت فوق المقود مفصولة عنّي. كانوا يهتفون باسمي لأسرع فأفعل دون تفكير. حتى الآن لا أدري كيف نجَوْنا من الحوادث. الجليد فوق الطرقات الجبلية لم يجعلنا حذرين. برمت سيارة أحمد مرّات. كادت تتدحرج إلى الوادي. في كفرذبيان لم يسمحوا لنا بدخول الملهى لأنّ المكان ممتلئ. اقترحت كريستيل أن نعود إلى بيتهم في الصفرا. لديهم مشروب وكلّ شيء. رغم الحرارة المتدنّية. خلعوا ثيابهم لحظة وصولنا وركضوا باتجاه

البحر كالمجانين. أنا لم أستطع مجاراتهم. استمرّ احساسي بأنّ كلّ عضو في جسمي متضخّم وأنني بطيئة لا أجاري جسمي. كأنّه غادرني ليتحرّك أمامي، وفقدت السيطرة عليه. عندما عادوا أرادوا معاً أن يخبروني كيف أنّ صونيا كادت تغرق. ضحكهم منعني من أن أفهم كيف سحبوها. لا تقيؤها ولا لونها الأزرق جعلهم يتوقّفون عن الشرب. لفّت نفسها بالبطانيات دون أن تكفّ عن الارتعاش. تركناها وحيدة لنأكل بعدها عند زيت وزعتر. بعد الأكل ذهبنا إلى الجميزة بحثنا عن مكان نشرب فيه. ركضنا في الشارع وتراشقنا بتنكات البيرة الفارغة. حين رجعنا لم تكن صونيا في البيت. خرجنا ثانية لنبحث عنها ماشين. لم نجدها. ركبنا السيارة. ما كنا قلقين رغم خروجها دون حذاء أو هاتف. كلماتي كنت أسمعها ممغوطة. عندما أضحك يشاركني الجميع دون أن يعرفوا السبب. وجدناها أمام محلّ. في يدها كوب كبير من القهوة. كان الجرسون ورفيق له قد وقفا ينظران إليها من خلال الواجهة الزجاجية. لوّحنا إليها. نظرت كأنها لم تتعرّف علينا. لم تقبل أن تركب بسهولة. لا أدري متى عدنا إلى بيوتنا. لكنني يومها تشاجرت مع أبي وقلت له إنني كبيرة كفاية لأغيب وأعود في الساعة التي تعجبني. لم يستطع أن يهدّدني كعادته بقطع المصروف فقد كنت حينها أعمل. عندما تدخّلت أمي لتقول له بأنه لو قسّى قلبه قليلاً في تربيتي لما كان هذا حالي. أجبتها إنّ حالي وشخصيتي شأني الخاصّ، وليس ملكاً لأحد. كانت المرّة الأولى والأخيرة التي أجرّب فيها هذه الحبوب. هي تفرح رفاقي، أما أنا فلم أشعر إلا بالكآبة. عندما كنّا لا نزال في الجامعة، كانوا يأخذونها في فترة الامتحانات. هكذا يسهرون دون تعب.

رضا يخفي رأسه في شعر الفتاة الفرنسية ويقبّل عنقها. لا أدري كيف أن الأمر يزعجني. هو لا يعني لي شيئاً عاطفياً. رغم ذلك أحسّ بغيرة. شعور لم أعرفه سابقاً. الشرب والنعاس يثقل جفنَيْ كلودا حتى تعجز عن إكمال كلامها. أحمرّ خجلاً كلّما فتحت فمها. صديق جهاد مشغول منذ أن جلسنا بكتابة رسائل نصية على هاتفه. كان يضحك أو يعبس كأنّه وحده.

التقط لنا صورة بهاتفه. وضعت يدي أمام وجهي. استأذن رضا لينصرف فيما الفرنسية تحيط خصره بذراعيها. تجاهلته متظاهرة بأنني لم أسمعه ولم أره ينصرف. طلبت كأساً ثانية. كان الجميع ينهض ليجلس مع من يعرفهم، آخرون يأتون بدورهم للجلوس معنا، إلّا أنا وكلودا بقينا مسمَّرتين في مكاننا. تدريجياً استولى التعب على كلودا. عيناها بركتا دم. وجهها تغضّن كأنّ تجاعيد جديدة وجدت طريقها إلى ملامحها خلال السهرة. لا أدري لماذا أحزنني شكلها. أمسكت يدها وأومأت برأسي جهة الباب. نهضت بصعوبة. ترنحّت في سيرها. اضطررت أن أتأبّط ذراعها كي لا تقع. الآن ستقوم قيامة أهلي، فكّرت. كأنها بنظرهما عادت طفلة. فجأة توقفت عن السير، قالت إنها لا تريد العودة ليست نعسانة. أشارت إلى درج أحد المحلات. ظننت أنها تعبة وتريد أن تجلس لترتاح. فرشت المحارم تحتنا. وضعت رأسها فوق كتفي. قالت إن الطقس جميل والنسمات لطيفة. لو أنّ بامكانها ألّا تعود. سألتني لماذا أبقى ساكتة؟ هل أفسد خروجها معي سهرتي؟ ثمّ بدأت تبكي دون توقّف. غمرتها وهدهدتها كأنّها طفلة. حاولت أن أجرّها إلى البيت. شابان مرّا قربنا وسألانا إن كنّا نحتاج مساعدة. ظننت أنّهما سيتحرّشان بنا. شكرتهما فسألا مرّة أخرى «متأكدة؟». عندما نهضت أخيراً مشت مكتوفة اليدين رافضة أن أمسك بها. لم أر أختي غريبة عن نفسها كما أراها مؤخّراً.

كان البيت غارقاً في العتمة. منذ أتت إلى بيت أهلي لم تنم ليلة في سرير. تغفو جالسة أو مستلقية فوق الكنبة. لذا توجّهت مباشرة إلى غرفة الجلوس، سألتني إن كنت نعسانة. أردت أن أذهب إلى غرفتي لكنني جلست قربها. دخّنت معي فيما تقلّب المحطات. «كيف أعرف أنني لم أعش الحياة الخطأ؟» سألتني. كدت أذكّرها إنّها تسأل الأخت التي لا تشبهها في شيء. عندما طال سكوتي، أعادت السؤال. قلت لها تعرف حين تنظر إلى ابنيها. جوابي أحزنها كأنّ غيمة حجبت النظرة فيهما. داعبت

شعري كأنّني صغيرة. قالت إنها لا تعرف من هي ولا ما تحبّ ولا ما تكره. الكلّ ينتظر منها أشياء ما عاد بمقدورها الاستمرار فيها. سألتها إن كانت تريد شرب شيء. ويسكي؟ سألتني مبتسمة كأنّها تحوّلت فجأة إلى طفلة تسرق مشروب أبيها. «لا. أقصد شاياً أو قهوة». نهضت إلى الدرسوار وجاءت بالقنينة مع قدحين. بقي ما سكبته لي على حاله. أمّا هي فشربت جرعتين. حكت عن كابوس أخافها في الليلة الماضية. رأت ابنها روبير ينظر إليها بعينين شرّيرتين كأنه يريد ايذاءها. فتحت عينيها لتجده واقفاً قرب الكنبة حافي القدمين ينظر إليها. سألته لماذا ليس نائماً. قال إنّه رأى في الحلم أنها ماتت وبدأ يبكي.

* * *

غضب أهلي عندما علموا عن طريق جارة لنا أنني أعمل في الاذاعة. أمّي دمعت عيناها وظلّت تردّد: نعرف أخبارك من الغرباء؟ أريد أن أعلم بماذا أخطأنا في حقّك. أمّا أبي فتجاوز غضبه بسرعة. سألني عن المبلغ الذي آخذه. حين أخبرته إنّني أنا من يدفع ستين بالمئة. وصف الأمر بالاستغلال. تدخّلت كلودا الصامتة لتقول إنني لولا البرنامج لما حصلت على هذه المواعيد.

كانت المواعيد تكثر مع مرور الوقت. الدقائق القليلة التي أطرح فيها موضوعاً جديداً، تستجلب اتصالات لا تكفي الساعة لتلقّيها. هذا عدا الايميلات التي عليّ الردّ عليها. في الاذاعة اقترحوا ساعة اضافيّة يوم السبت أخصّصها للردّ على البريد. ما يعني أن أؤخر مواعيد السبت إلى ما بعد الثانية عشرة ظهراً. غير الموضوعات التي أحكي عنها. هناك ما يختاره المستمعون، كالكلام عن كيفية مواجهة خوف الأولاد من الانفجارات. أو تأثير الصور في الاعلام أو الفايسبوك على شخصياتهم. قراءة البريد تتطلّب مني وقتاً. كنت أتلقّى رسائل أيضاً من رفاق قدامى في المدرسة أو من الجامعة، من أناس عرفتهم معرفة سطحية. يقولون إنّهم

سمعوا برنامجي، او يسألون أسئلة شخصية: هل تزوجت؟ عدد منهم أراد أن يتأكّد أنني أنا من ورد اسمه في الجريدة من شهور.

في البيت أيضاً تبدّلت حياتي. أبي يعيد على مسمعي كل كلمة قلتها وكل جواب أعجبه. «لست أعاني من الزهايمر، لا داعي لتذكيري بما قلته». أجبته ذات مرّة بعد أن نفذ صبري. أما أمّي فليست أفضل منه. كل يوم تقرير عن رأي من استمع إلى نصائحي وإلى ردودي على الأهل. أو تعاتبني مثلاً لماذا لم أكن أكثر قسوة مع متصلة معيّنة. أذكّرها أنني لا أخوض حرباً مع الناس. صرت كأنني أعمل بدوام كامل في الاذاعة. آكل في المكتب. أقرأ ما بين المواعيد أو أستمع إلى الموسيقى. زيّنت المكان برسوم بعض الأولاد الذين يأتون. المشكلة أن بعض الأهل يظنّ أنه بمجرّد أن أجلس مع أولادهم مرّات قليلة سيأتي الحلّ. رغم تكراري أنّ الأمر يتطلب صبراً. أجدهم بعد كل مرّة يسألون لماذا علامات ابنهم لا تزال متدنّية. معظم الأولاد تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة والثانية عشرة. ليس بينهم إلا فتاة واحدة تعاني من عسر القراءة. هناك صبي يقلقني، لأنني لا أحقّق معه أي تقدّم. أحسّ أنه يكرهني. عليّ أن أطلب منه عدة مرات ليقوم بالقراءة أو بالتمرين اللفظي. أنا أيضاً أكره الخميس لأنه اليوم الذي يأتي فيه. أقول لنفسي بأنني مجنونة ليزعجني طفل في التاسعة. لديه نظرة لئيمة، أردت أن أمحو ظلّ هذه الابتسامة الساخرة عن وجهه. لا أستطيع أن أعتذر عن استقباله وادّعاء أنه لا يستفيد من التمارين. أمه صديقة لتانيا. حتى التسعيرة التي تدفعها مخفضّة. لا أريد أن أفعل. لا رغبة عندي في أن أصبح موضوعاً للثرثرة في الاذاعة. «فلانة تنام مع فلان فأعطاها برنامجها الخاصّ. وتلك بلا موهبة، باستثناء حصولها على معلن دسم. ذاك يخون زوجته، مدّعياً العمل لوقت متأخّر..» أخبار يمتلئ بها رأسي بلا جدوى. أحاول طردها ما إن أختلي بنفسي في المكتب. عندما تقول تانيا إنها ستزورني لندردش قبل المواعيد أكذب وأجد حجة لأتهرّب. الشيء الذي صعب علي تجنّبه هو دعوتي على العشاء السنوي

في ذكرى تأسيس الاذاعة. لتقنعني تانيا راحت تعدّد أسماء سياسيين ومطربين وإعلاميين مشهورين سيكونون في الحفلة. في قرارتي نويت ألّا أحضر. لكنّني بقيت حتى اللحظة الأخيرة أؤكّد حضوري. كأنّ المخرجة حدست ما يدور في رأسي. قالت لي إنّ غيابي عن الاحتفال، لن يُرى بعين جيدة. رددت «أعلم ، أعلم..» وأنا أكثر عزماً على عدم الحضور. من سيلحظ غيابي وسط هذا الهرج والمرج؟ كما إنّني لست موظّفة، أنا مجرّد ضيفة في برنامج صباحي، لا تسمعه إلا ستات البيوت. مع ذلك تبّدل أهلي ورفاقي معي منذ بدأت هذا العمل. أمّي تحمل يومياً أسئلة من زميلاتها الجدّات أو الأمّهات. أحياناً تفتخر بنفسها لأنها أجابتهن مثل جوابي. حتى ماري، رفيقتي من أيام الجامعة سألتني بشأن ابن أختها. ذكّرتها بأنها لا تفرق عني في شيء، كنّا في الصف نفسه وتعلم جيداً أسباب التبوّل اللاإرادي. أصرّت على أن أقابل أبن أختها. بشارة أيضاً زوج أختي طلب مني أن أراه دون أن أقول لكلودا. أجبت على رسالته إنّني لست ممن يحبّون التدخّل بحياة الآخرين. لقائي لن يفيده في شيء. ظلّ يزعجني بسيل من الرسائل على مدار النهار إلى أن وافقت على رؤيته. أعطيته موعداً في مقهى عند ساسين. لا أريد أن أخاطر بأن يراه أحد برفقتي. مجرّد أن يظنّ أحدهم أنّني صديقة له يزعجني. بدأ بالكلام قبل أن أجلس على الكرسي. سأل عن كلودا وماذا أخبرتني. حين لاحظ صمتي، قال إنه ليس كما أظنّه. ليس لعوباً ولا يريد هدم بيته. لكن بما أنني درست النفس البشرية أستطيع أن أفهم ضعف الانسان أحياناً. أجبته إنّ فهمي أو عدم فهمي لن يفيده في شيء. الحلّ ليس بيدي، ومنذ متى كنت كاتمة أسرار كلودا؟ غمغم شيئاً عمّا أخبرته أمّي بخصوص خروجنا أحياناً معاً. سأل عن روبير وايلي. هززت برأسي دون أن أنبس بكلمة. فجأة ارتعش صوته كأنّه يغالب دموعه. قال إنّ سنوات من الحبّ والاخلاص ستمحوها غلطة؟ هو مستعدّ ليرضيها بأيّ ثمن. مستعدّ أن يكتب كلّ شيء باسمها. لا يريد شيئاً إلا عائلته.

«تريد أن تراضيها بالعقارات؟» قلت دون أن أتمكّن من إخفاء تهكّمي. نظر إليّ كأنني المسؤولة عن زعل أختي.

«ماذا تريدين منّي أن أفعل؟ أنا أيضاً لديّ كرامة، لن أشحذ مسامحتها إلى الأبد».

«افعل ما يريحك. تذكّر أنني لست طرفاً في خلافكما. ولا أعلم حقاً نوايا كلودا». لم أرد أن أصف له لا ضعفها ولا تحوّلها . قمت دون أن ألمس فنجان النسكافيه زاعمة أنني تأخرت عن عملي. نظر إليّ بعينين غاضبتين، لكنّه نهض مبعداً الكرسي بعنف. رمى النقود على الطاولة وأسرع ليخرج قبلي. طوال النهار لم أستطع أن أنتزع من رأسي هذه الجلسة. لا أعلم لماذا كنت متضايقة هكذا. عندما أحكي مع ناس لا أحبّهم يتسمّم يومي، وتظلّ كلماتهم عالقة في رأسي مهما أحاول طردها. لم أقل لكلودا شيئاً.

* * *

رسائل قليلة كانت تصلني بشكل متقطع. الرقم كان يتبدّل . بحثت عن أصحابها وجدتها كلّها تتعلّق بشركة. رقم واحد لم أستطع اقتفاء أثره لأنّه محجوب. كانت تصلني رسالة كلّ بضعة أيّام. كلمات لطيفة ليس فيها ما يخيفني. وجدت نفسي أهتمّ مجدداً بما ألبس. أتلفّت حولي أينما ذهبت لأعلم من هو هذا المعجب السري. ظننت أنّ رضا يلعب إحدى ألاعيبه. لكنّ من يبعث بالرسائل يحكي عن ثياب ارتديها إلى الاذاعة. كما إنّ الاسلوب مختلف. رضا يغلّف اطراءه بالتهكّم. ليس ممن يحكون عن نبرة صوتي، ولا عن رقّة كلماتي. قد يكون مستمعاً مهووساً لديه وقت فراغ. انقطاع الرسائل لأسبوع أنساني الأمر إلى أن عادت الرسائل بوتيرة سريعة. كلّ يوم أس أم أس. صرت أنتبه لكل من يحيط بي. كيف لمستمع أن يعرف لون ثيابي. لا بدّ أنه يراني. دققت بوجوه الشبان في الاذاعة. شككت بمهندس الصوت إلى أن رأيت تصرّفاته اللامبالية بحضوري. يحكّ داخل أذنه بالمفتاح، يأكل بغير عناية. يحدّق بي كما

يفعل معظم الشبان لا أكثر. رأيت مرّة خطيبته تنتظره. استبعدته حالاً عن دائرة شكوكي. في الرسائل تفاصيل يصعب أن يعرفها إلا من يراقبني عن قرب كرمشة عيني اليسرى حين أتوتّر. أو جلوسي مكتوفة الذراعين عندما أكون منصتة إلى حديث يهمّني. كنت أتلفّت حولي في كلّ لحظة. أخاف أن أصعد الأدراج. ماذا لو كان موتوراً وفاجأني من خلف حين أكون وحيدة. ليس معي إلا مزيل الرائحة لأرشّه إن هوجمت. لطف الكلمات ما عاد يطمئنني. لا أدري إن كان عليّ أن أستشير أحداً. حتى إن اشتكيت سيضحكون منّي لأنّ مضمون الرسائل لا يشكّل تهديداً. غيّرت عادتي. صرت أستخدم سيارة كلودا للمجيء إلى الاذاعة لا سيارة أجرة. آتي بمواعيد غير ثابتة. أخرج أيضاً من المبنى متأخرة. أتحمّل مجالسة العاملين وأنهض لأنصرف مع آخرين. المقهى المقابل للاذاعة ما عدت أقصده. أشرب القهوة في كوريبو. لا أجلس على الترّاس بل في الداخل. أستطيع في الداخل أن أرى من عساه يراقبني. في هذا الطقس الكلّ يرغب بالجلوس خارجاً. في الداخل يجلس من لا يحبّ أن يلفت الأنظار. وضعت لائحة في رأسي بكلّ من ألتقيهم. حتى الأولاد الذين أقابلهم. لكنّ الأولاد لن يتّصلوا من شركة. معرفة اسم الشركة لا يفيدني في شيء. قد يكون فيها مئات الموظفين. بحثت على الأنترنت عن الشركة. شركة مقاولات لها فرعان. واحد في فردان وآخر في المكلّس. عندما قرّرت أن أخبر أخيراً جهاد ورضا خلال سهرتنا في الجميزة، سخر رضا وقال: من يقول بعد هذا الكلام لا بدّ أنّه ولد. من يكتب أنّ قلبه يجنّ كلما رفعتِ عينيك. ثم ما معنى نظرة عميقة؟ كلام تافه لا يخترعه إلّا عقل ولد. عندما قلت إنّ الولد لا ينتبه إلى مثل هذه التفاصيل ولا يملك القدرة على التعبير هكذا. ضحك وقال: يبدو أنّ أمّ الرور معجَبة بهذا الولد. أسكته جهاد وقال إنّ عليّ تقديم شكوى في مركز البريد إن صار الأمر مقلقاً. هو يعرف موظّفاً. أعطاني إسمه. ندمت في الحال كأنّني كشفت عن أمر شديد الخصوصية. لعنت الشرب الذي أطلق لساني. وكما قدّرت صار

الأمر مادّة للتندر عند رضا. إن طال غيابي يسألني حالما يراني. «كيف حال عشيقك الصغير؟» لا يكترث لوجود آخرين لا أعرفهم أحياناً.

دعتني سابين رفيقتي من الجامعة إلى شقة استأجرتها مع رشا في ساقية الجنزير. كانت تعمل في مدرسة الفرير في الشمال، لكنها انتقلت مؤخراً إلى العمل في الجامعة الأميركية، طبيب يعرف أخاها تدبّر لها هذا العمل. استأجرت كي لا يكون عليها القيادة يومياً إلى بيت أهلها. كانت سعيدة جداً بهذا الانتقال. لا أدري كيف استطاعت أن تجمع في مكان صغير هكذا أكثر من خمسة وثلاثين مدعوّاً. استغربت أن يتقبّل جيرانها هذا الضجيج. عندما سألتها قالت إنّ عليها أن تعوّدهم من البداية. في أيّام الجامعة كانت سابين رفيقة قريبة مني، لكننا بعد تخرّجنا تباعدنا. ليس بسبب عيشها البعيد في طرابلس، بل لأنّها عقدت خطوبتها لسنة. انشغلت خلالها في أشياء اعتدنا أن نسخر منها كلتانا. رشا التي تشاركها الشقة أصغر منا. تعمل حديثاً في مختبر مستشفى نجار. لم أعرف معظم المدعوّين. زملاء وزميلات لكلتيهما. الحرّ خانق في الداخل. على الشرفة الصغيرة قفص فيه كنار نائم ورأسه مختف تحت جناحه. لا الضجيج ولا الرطوبة توقظه. رماد سيجارتي يسقط دون قصد فوق رأس شخص تحتنا. أبتعد عن الدرابزين. اسمع الشتيمة النابية.

في السهرة التي طالت حتى صباح الأحد تعرّفت على ممرّض، وجدته مضحكاً، سألني عن عملي ثم راح يحكي عن تعليمه، وعن الصعوبة التي واجهته لنيل البكالوريا. كان إلى ما بعد البريفيه يخطئ بين الحروف. حتى أن المعلّمة سخرت منه مرة لأنه كتب اسمه بشكل خاطئ. قال إنّ ولداً مثله يعاني من عسر القراءة كان عليه من صف الروضة أن يكتب اسماً طويلاً: عبد الرحمن. بعد السهرة جلسنا في مقهى. أكملنا أحاديثنا بلسان أثقله الشرب.

الرسائل التي بعثها في الأيام التالية بقيت بلا جواب مني. قالت

سابين إنّها حين رأت انسجامنا في الرقص وعناقنا ظنّت أنّ هناك اعجاباً متبادَلاً بيننا. «لا شيء مميّز بيننا»، أجبت آخذة الحديث إلى خطوبتها التي فسختها. هي أيضاً لم تحبّ الكلام عن الأمر. فضّلنا الضحك من رفاق لنا، من تبدّلهم وتحوّلهم إلى عجائز قبل أن يتجاوزوا الخامسة والعشرين. استعدنا علاقتنا من حيث توقّفت. حتى إنني كنت أنام عندها في نهايات الأسبوع. أكثر ما كان يفقدها صبرها هو اتصالات أهلها. لا يفهمون ماذا لديها في آخر الأسبوع لتمتنع عن المجيء إلى طرابلس. يريدون تزويجها بأيّ ثمن تقول. قلت إنّها صغيرة فلماذا العجلة. ذكّرتني بأنها تكبرني بسنة ونصف. غالباً ما تذكر الفارق بين عمرينا كأنّه عقد من الزمن. طوال دراستي لم ينتبه أي من رفاقي إلى أنني أصغرهم بسنة على الأقل. قامتي الطويلة غشّتهم. ظنّوا دائماً أنني أكبر منهم. حتى أنا نسيت، حين أُسأل عن عمري أضيف سنة. أدخلت إلى صف الروضة الثانية ما إن بلغت الثالثة. سجّلتني أمّي في المدرسة التي تعمل فيها. بعدها سجّلتني في مدرسة أخرى. لحسن حظي أنّها فعلت. لا أحتمل أن أعيش تجربة جاد. كان في صفّي، أمّه تعلّم مادّة الفيزياء. بعد كلّ جرس، بين الحصص، تناديه لتسأله عن امتحان أو علامة. تحوّل إلى سخرية بين رفاقه. ما إن يلمحونه يقولون: «الماما سألت عنك، تريد أن تعطيك الرضاعة»، بقي بسبب ذلك بعيداً عن شلّة الصبيان. صديقه الوحيد صبي يعاني من سمنة مفرطة لا أحد يرضى برفقته.

الرسائل تنقطع ثم تعود. صرت أترقّبها بلا حذر. عندما تغيب طويلاً أفتقدها. أعجب من نبرتها الحزينة . كيف لا يسعى من يكتبها إلى لقائي. ماذا يريد؟ لكن عندما كتب عن قراءته لكتاب كان معي تأكّدت بأنني لم أكن مخطئة. كاتب الرسائل يأتي إلى المكتب أو أنّه عامل في الاذاعة. كلماته بدأت تؤثّر بي. كان لديّ رغبة دفينة في معرفة هذا الشخص عن قرب.

في البيت كان الجوّ مشحوناً دائماً. لأوّل مرّة أرى أهلي يختلفون مع

كلودا. أمّي تبكي لتجعلها تلين وتتراجع. تسألها إن كانت تريد أن تخرب بيتها بيديها. ماذا سيقول الناس عنها؟ مطلّقة؟ ابي يذكّرها أنّها طوال حياتها كانت عاقلة وحكيمة. هناك ولدان يحتاجان إلى كلا والديهما. لكنّها كانت تردّ أنها ليست من خرّب بيتها ولا تريد العودة إلى بيتها الزوجي. تريد شقة جديدة لها ولابنيها. تكره كلّ ما يتعلّق بسيرة بشارة.. كلّ توسلاته وكل الوساطات لم تنجح. عندما قال لها أبي إنّ بشارة طرد المتدربة وما عاد لديه أي علاقة بها. أجابت بسخرية «يا لأخلاقه العظيمة؟». انفردت بي أمي ورجَتني أن أعقّل أختي. أجبتها إنّها عاقلة تماماً. اتهمتني بتحريضها وصبّت غضبها عليّ. ما زادها ظناً بأن لي دخلاً في ما تفعله أختي، أنّ كلودا كانت تطلب مني أن أرافقها بحثاً عن بيت جديد. تستشيرني في أمور كثيرة خصوصاً تلك المتعلّقة بروبير وأيلي. الهدنة بيني وبين أختي، جعلتني أراها لأوّل مرّة بشكل مختلف. حين فقدت أمي الأمل مني حكت مع أختي ريتا. كان جواب ريتا الدائم هو أن هذه حياة كلودا لا حياتها. استاءت من إصرار أمي وإيقاظها لها في ساعات نومها نهاراً.

* * *

الولد الجديد الذي أراه حديثاً شغلني. لا لأنّه صامت ومرتبك بل لأنّ شيئاً فيه يفطر قلبي. اسمه الكسندر. عمره تسع سنوات. عندما حكيت مع أمه قالت إنّها لا تفهم رسوبه المتكرّر. في البيت هناك معلمتان تتابعانه. يراجع كلّ شيء، ويسهر حتى التاسعة دون نتيجة. أمه شقراء تبدو بثيابها كأنها خارجة إلى حفلة ليلية. ماكياجها فاقع. هيئة غريبة في عزّ النهار. بقيت رغماً عني أنظر إلى رموشها الاصطناعية. ترفعهما كأنها تحرّك جبلاً. طبقة كثيفة من الماسكارا، من البلاش الأحمر القوي. هذا عدا حمرة الشفاه. معظم الأمهات اللواتي يأتين برفقة أبنائهن يكنّ إمّا في ثياب الرياضة أو في ثياب عادية. في المرّات الأولى كان ألكسندر يجيبني بصعوبة. لم أجد أنّ لديه مشكلة في التركيز. انتباهه يتشتت لأسباب لا أعرفها. طلبت منه أن يكتب معدّداً أشياء يكرهها. كتب عن الدروس الخصوصيّة، البامية،

المطر، ابنة عمه، معلمة الرياضيات، ترتيب غرفته، الحليب، شجارات والديه، أحلام الليل، معاقبته بمنعه من اللعب، الفروض، الامتحانات، والبيانو (علمت لاحقاً أنه يأخذ دروساً فيه منذ سنتين).

صرت حين يأتي أقرأ له قصصاً وأعطيه نسخة ليتابع معي أثناء ذلك. أتوقّف عن القراءة حين أحسّ أنه متشوّق. لا أطلب منه أن يكمل الكتاب. لكنّه كان يفعل. أدّعي أنني لم أجد وقتاً لأفعل مثله. لذا اعتاد أن يخبرني تتمّة القصص دون أن يهمل أيّ تفصيل. شيئاً فشيئاً صار ينظر إليّ، ويحكي عن أشياء تحدث معه في البيت والمدرسة. قال إنّ لديه أخاً أكبر منه لكنه ليس مثله. هو الأوّل في صفه. يريد أن يصير ضابطاً كوالده. عندما سألته ماذا يريد أن يفعل هو، قال إنّه لا يريد شيئاً. استغربت جوابه. طلبت من أمه أن تعفيه من العقاب فمن غير المقبول أن يُمنع ولد في سنه من كلّ شيء. لا تلفزيون ولا كمبيوتر ولا ألعاب. أضافت إنّه أيضاً محروم من الأطعمة التي يحبّها. لا همبرغر ولا بيتزا إن جاءت علاماته راسبة. لكن حين ينجح تعطيه المال ليشتري ما يحبّ. قالت إنّ المشكلة ليست منها بل من والده. يعتقد أن الصرامة ضرورية. هي أيضاً تشفق عليه لأنّه لا يلعب كبقية الأولاد من عمره. بعد أن أصررت على تبديل تعاملهما معه. قالت إنّها لا تجرؤ ستسأل إن كان لدى زوجها وقت ليقابلني لأفهمه عن مساوئ العقاب القاسي.

كنت أقابل بعض الأولاد لمرّة أو اثنتين فقط. الأهل يتحمّسون بعد سماع البرنامج. لاحقاً يفكّرون أنّ ذلك بلا جدوى. مالٌ يُهدَر كما قالت لي إحداهن عندما وجدت أنّ ابنها لا يتغيّر بعد ثلاث جلسات. لم أجبها حتى، ولم أشرح لها كم من الوقت تتطلّب هذه المسائل. أولاد معدودون هم الذين يداومون. الولد الذي يرحل يأتي غيره. اضطررت إلى تدوين كلّ شيء في ملفات على الكمبيوتر. مرّة خلطت بين ولدين، لا في اسميهما فقط بل في مشاكلهما أيضاً. بدأت بتمرين لفظي لولد يعاني من قصور في الانتباه. لا أكاد أحفظ حالة ولد حتى يرحل ويأتي غيره.

مدخولي الشهري كان في تحسّن. لكنّه ظلّ أدنى من الوظيفة الثابتة. سابين تحصّل ضعف ما أتقاضاه. كنت أحاول أن أوفّر بعض المال. لم أفقد الأمل في السفر. لكنّ السهرات والمقاهي تستهلك معظم ما أقبضه. كلودا اقترحت أن تدفع لي إن ساعدتها خلال فراغي.

غيّرت اللافتة لم تعد «صيدلية حبيب» على اسم عائلة زوجها. حين عرف بشارة قال إنّها لئيمة لا تنكره هو بل تنكر الاسم الذي يحمله ولداها. الشقة التي اصرت على شرائها بالقرب من الصنائع قديمة بعض الشيء. الأعمال فيها تحتاج إلى وقت طويل. السقوف عالية ومن الجهة الخلفية شرفة خطّطت لتحويل جزء منها إلى حديقة. اعترض أيضاً بشاره مدَّعياً أنّ ما تكلّفه أعمال الترميم والتبليط وتغيير المطبخ والحمامات كاف لشراء شقة جديدة. تحوّل كل موضوع في حياتهما إلى شجار. كأن كلودا عكس المرأة التي عرفتها منذ صغري، ما عادت تدخّر وما عادت تهمّها لا الملكيات ولا العقارات. في فرصة عيد الفصح اصطحبت روبير وايلي إلى شرم الشيخ. دعتني إلى مرافقتهم فقلت إنني غير قادرة على الغاء المواعيد. حجزت لهم في أفخم فندق. استأجرت سيارة مع سائق طوال رحلتهم واشترت أغراضاً وتحفاً وهدايا. وعدت ولديها بقضاء عطلة أخرى صيفاً في اليونان أو تركيا. أبي الذي اعتبرها دائماً مسؤولة بدأ بانتقادها. قال إنّها تترك الصيدلية في عهدة متخرِّجة حديثة لا تعرف شيئاً لا عن مهارتها ولا عن أمانتها. ماذا لو سرقتها. لا تردّ كلودا. حتى حين يقول لها إنّها تنتقم من نفسها لا من بشارة عندما تبعثر أموالها يميناً وشمالاً.

* * *

مرّت ببالي كل المرّات التي التقيت فيها والد كريم دون أن أنتبه. ربّما لأنّه ليس دائماً من يصحبه. أحياناً السائق يوصله أو أمه، وهي امرأة لطيفة. صوتها منخفض بالكاد يُسمع. أحاول الآن تذكّر تفاصيل أخرى فلا أنجح.

البارحة كانت المرّة الأولى التي أشكّ فيها بأن والد كريم هو من يكتب لي هذه الرسائل. رأيته يطيل النظر إلى الكتاب على الطاولة وإلى أصابعي التي تعبث بزهرة غاردينيا. عندما صافحني، شعرت بأنّه أبطأ في سحب يده. أجهد في تذكّر إشارات أخرى، ولا أجد شيئاً غير مألوف. قد أكون واهمة على أيّة حال. انتظرت رسالة تؤكّد ظنوني لكنها لم تصل. رغم ذلك أفكّر به كأنّه هو مراسلي السري. كم عمره؟ ليس في أوّل الشباب. كريم ليس البكر لديه أخت في الثالثة عشرة. قد يكون في أواسط الأربعين. لا أعرف اسمه. ربما قاله لي أثناء الحديث لكنني أذكر حين أخبرني إنّه كان مثل كريم ضعيفاً في الأملاء ويخطئ بتهجئة أبسط الكلمات. أذكر خجله حين أضاف أن ذلك لم يؤثّر على علومه. كان يبقى واقفاً حين يأتي. يضع يده فوق رأس ابنه الجالس قريباً مني. أو يضع يده فوق كتفه. أحياناً يبقى قريباً من الباب دون الدخول كأنه مستعجل. لذا لم يخطر ببالي أنه قد يكون هو. راحت شكوكي جهة أب آخر يصطحب ابنه ويبقى في الممشى جالساً على كرسي غير مبال بالانتظار. كنت أسمعه يتنقّل من مكالمة إلى أخرى كأنه يقضي كل أشغاله على الهاتف. ما عزّز ظني هو مجاملاته لي بشأن تحسّن ابنه. يحكي عن سلوكه الأهدأ في المدرسة، ناسياً أن السبب هو في الأدوية التي يأخذها. لكن طبيعة الرسائل لا تشبهه فكّرت. إلى أن قلت إنّه ينسخها من مكان ما. الانترنت عالم واسع لشتى المسائل. كنت حين يأتي أضحك في سرّي من الثياب التي يرتديها، من الكرش الناتئ تحت الجاكيت. من قوله لي «شفتِ كيف ستنا؟» بعد كل عبارة. حين أنصحه بترك المبادرة لابنه والسماح له ببعض الخصوصيّة. يردّ أنّه ابنه الوحيد وأيّ ضير في أن يحميه؟ يترك أعماله كلّها ليرافقه. كان حوار طرشان. لذا بدأت ألغي الرسائل دون قراءتها. عندما أفتح إحداها عن طريق الخطأ لا أقرأها. فكرة أن يكون هو من يكتب لي كانت تقززني. عندما سألني جهاد قلت إنّ الرسائل توقّفت منذ زمن.

* * *

عندما وصلنا إلى عمشيت وجدنا كريستيل دون أحمد. كانت مع فتاة وشاب لم يسبق أن التقيت بهما. أما أنا فجئت برفقة سابين وزميل لها يعمل في المحاسبة وهو مثلها من طرابلس، اسمه عمر. عليا أيضاً دعت شلّة كبيرة، لا أعرف أياً منهم. توزّعوا بين الشرفة وغرفة الجلوس. كانوا في المايوهات يشربون البيرة ويأكلون لوزاً أخضر. من بعيد انكشف البحر برتقالياً وأحمر فيما الشمس تكاد تغطس بين أمواجه. رغم الحرارة التي قاربت حدود الثلاثين درجة في النهار شعرت بلسعة برد. عرَّفتنا عليا على بعض معدّدة أسماءنا وأسماء من دعتهم. كالعادة لم أنتبه ولم أهتمّ. وجوه تأتي وتغيب فلماذا أتكبّد عناء حفظها. البيت ملك لأهل سابين يأتون إليه صيفاً وفي العطل أحياناً. لكنها كانت تدعونا إليه منذ أيام الجامعة. بدا المكان مختلفاً بعد أكثر من سنتين. بيوت أخرى بنيت من الجهة اليسرى. أثاث جديد وُضع في غرفة الجلوس.

شاب مستلق على الكنبة شبه عار، وضع كأسه فوق البلاط وفي اليد الأخرى سيجارة لطّخ رمادها صدره العاري. على عينيه نظارة شمسية. سألني عن اسمي. عندما ذكرته. قال «بلى عليا أخبرتني عنك. ألست أنت من كانت مع سامر عندما مات؟» لا أدري لماذا آلمني سؤاله. منذ زمن ما عدت أعدّد الأشياء التي لن يراها ولن يسمعها سامر. لم يهتمّ بوجومي، وأكمل متحدثاً عن معرفته بابن عم سامر. ندمت في الحال لأنني لم أخرج مع جهاد الذي دعاني إلى السهر معهم عند مازن.

لست كرفاقي، لا أدعو أحداً ولا أخلط بين معارفي كما لا احب تعريفهم على بعضهم. التنقل بينهم يشعرني أن لا شيء يقيّدني. عكس كريستيل التي ترغب دائماً أن تحكي لي عن أصدقائها الجدد وأن تعرّفني عليهم. سابين التي لم يمض على عملها الجديد طويلاً عرّفتني بزملائها ورفاقها سواء كانوا عابرين أم مقرّبين. أما عليا فلا أراها إلا في فترات متقطّعة. يمضي وقت نرى فيه بعضنا كلّ يوم، ثم ننقطع عن اللقاء لسنة كاملة. تعرّفت عليها حين كانت طالبة في برمجة الكمبيوتر. تقاربنا في

فترة علاقتها بأستاذ كان يعلّمها. أذكر بكاءها عندما حبلت. صارت عاجزة عن النوم وعن الأكل، تتقيّأ كلّ نصف ساعة. خافت أن يحدث لها شيء خلال الاجهاض، كريستيل أتتها بعنوان الطبيبة وأقرضتها المال. رافقناها كلتانا إلى العيادة. بعد العملية حدث معها نزيف حادّ. اتصلت بي بعد منتصف الليل. الرعب أنساها خوفها من أن يسمعها أهلها. كانت تبكي مردّدة أنها لا تريد أن تموت، سبّت الأستاذ والحبّ. قالت إنّ الله يعاقبها، ستموت قبل أن يطلع الضوء. سألتها لماذا لم تتصل بالطبيبة. قالت إنّها خائفة من أن تُدخِلها المستشفى. فعلت بدلاً منها، وتحمّلت كل الجفاء واللهجة اللئيمة لأنني أتصل في وقت غير مناسب. سألتني ما أقصده بحادّ، لم أعرف بماذا أجيبها. قالت إنّ الدم ينزل كثيفاً بعد الاجهاض هذا طبيعي وكذلك الألم، إن استمرّ النزيف حينها نراجعها وشددت «خلال النهار ليس بعد منتصف الليل».

بحلول الليل كنّا قد شربنا كثيراً. وعندما أردنا أن نأكل لم نتّفق على أمر واحد. منّا من أراد البقاء وطلب عشاء فيما آخرون أحبّوا لو نسهر في مطعم نعرفه يطل على شاطئ جبيل. أمّا سابين فتحمّست مع رفاق لها للذهاب إلى نايت كلوب في البترون. هناك أيضاً من صار غير قادر على الكلام أو النهوض حتى. آخر همّه أين تكون السهرة. القناني التي أحضرناها فرغت تقريباً. لم نتّفق على مكان. قالت عليا إنّ السهرة لا تزال بأوّلها، وسنقرّر لاحقاً. ذهبت معي لنشتري مونة المشروب والدخان حتى مساء الأحد. جمعنا من كل واحد عشرة دولارات. المحلات والدكاكين كانت مغلقة. إنها ليلة السبت قالت عليا محتجّة كأنهم يسمعونها. ما كنت مستعجلة على العودة. قلت لها نشتري من جونية.

كنت أقود بسرعة. هواء الليل يدخل من الشبابيك رطباً محمَّلاً بروائح البحر والمازوت المحروق. كانت عليا تغني بصوت يعلو على صوت الراديو. في لحظات تبدّل مزاجها. صارت تدخّن وتنفض سيجارتها داخل قنينة البيرة ثم تشرب دون أن تنتبه للرماد الذي تشربه. كنت مشغولة

بتبديل الاذاعة عندما قالت: «هل كنت دائماً هكذا؟. الواحد لا يعرف إن كنت قريبة أم بعيدة». لم أفهم سرّ غضبها المفاجئ. بقيت ساكتة. سألتني ألم ألاحظ كم خسرت وزناً. بالغت بابداء ذهولي من نحولها. كانت منذ أيّام الجامعة في معركة مع الوزن. كلامي أعاد إليها البهجة. حكت عن سحر حبوب الاكستاسي. تشعر بفضلها بامتلاء دائم وباحساس بالشبع. هكذا خسرت عشرة كيلوغرامات دون جهد.

في السنتر الذي دخلنا إليه لاستخدام الحَمّام التقينا بفتاة نعرفها تدعى مارلين. لم تكن معنا في الجامعة. كانت حبيبة واحد من رفاقنا وخرجت برفقتنا لسنتين إلى أن تشاجرت مع دانييل. كنت عازمة على تجاهلها حين رأيت عليا تقبّلها بحرارة كأنهما أعزّ صديقتين. أصرّت عليها أن تأتي برفقتنا واعدة إيّاها بعطلة استثنائية. اعتذرت مشيرة بيدها جهة شابين وفتاة ينتظرونها. همست عليا بينما نرحل «فتاة سخيفة بلا طعم». «لماذا أخذتها بالأحضان، ودعوتها فوق ذلك؟» سألتها. «ليس على الناس أن يكونوا لئيمين مثلك»، ردّت بعصبية. فكّرت أنها ليست بكامل وعيها والأفضل أن أتجنّب الكلام معها. غداً ستكون قد نسيت كلّ ما حصل. مرّات كثيرة كانت تأتيها نوبات بكاء، او بالعكس نوبات فرح تجعلها تعجب بأتفه الشباب. في اليوم التالي تستيقظ ناسية كل ما حصل. وهذا كان سبب الكثير من علاقاتها العابرة. كنّا نراضيها في نوبات ندمها. ونعدها بناء على إصرارها بأن نراقب شربها ونتدخّل حين تفقد السيطرة على نفسها. لكن يبقى كل ذلك كلاماً دون تنفيذ. بعد الكأس الأولى تتحوّل إلى أخرى. حين تكون على طبيعتها تتصرّف بمحبّة صادقة معنا، وبالمقابل نتحمّل تقلبات مزاجها، واتهامها لنا بأننا نستغيبها ولا نحبّها حقاً. نعلم أنّها ستهدأ وتبدأ باعتذارات لا تنتهي. هذه حالها أيضاً مع كل حبيب. شكّ متواصل كان يدفعها أحياناً إلى التجسّس عليهم وتفسير كل حركة على أنّها خيانة. حتى نحن ما كنّا نسلم من غيرتها. المرّة الوحيدة التي كانت فيها غيرتها مبرّرة هي خلال علاقتها بأستاذها. ما كان خفيّاً

على أحد أنّه مرتبط بمعلمة تدرّس الأدب فرنسي في الجامعة. الغريب أنّها وثقت به وهو لم ينف حقيقة خطبته. رغم ذلك كانت تحبّه بشكل أعمى. عندما حبلت، قال لها إنّها ناضجة وهو لم يجبرها على النوم معه. كما لم يعدها بشيء . ما بينهما علاقة بين راشدَيْن وحملها سببه استهتارها. من يعيش حياته مثلها يفترض به أخذ احتياطاته. كلامه أغاظنا نحن صديقاتها، أما هي فلم تجد إلا نفسها تجرّح بها دون رحمة. أذكر كم فكّرت بطرق مع كريستيل لنفضحه وننتقم منه. لكن كان يستحيل أن نفعل دون أن نؤذي عليا. كنّا نلازمها خوفاً من أن تفعل شيئاً لنفسها. أصعب من الحمل والاجهاض كان قطعه كل علاقة بها. كانت عليا تكرّر باكية على مدى أسابيع «لم يتصل ليسألني عن حالي. ولم يعرض أن يشاركني نفقات العمليّة. هل أنا بلا قيمة؟ مجرّد فتاة سهلة؟». في بيتها ما كانت على علاقة جيدة لا بوالدها ولا بزوجته. عندما تكون معنوياتها هابطة، تقول إنّ حياتها قصيرة على أيّة حال، سترث أمراض أمّها وتنتهي حياتها قبل بلوغها أواسط الثلاثين. رغم معرفتنا أنّ كلامها غير صحيح تماماً، كنّا نشعر كلّنا برغبة في حمايتها. حتى أكثرنا أنانية يتطوّع لخدمتها. أنظر إلى ساقيها الممدودتين، وإلى عريهما الذي يدفع الجميع، حتى العجائز، إلى الالتفات إلى سيارتنا. لم تبدُ منتبهة.

لم نجد أحداً باستثناء شاب وفتاة متعانقين فوق الكنبة. دخولنا لم يحرجهما وهما شبه عاريَيْن. خرجنا إلى الشرفة بأكياس ثقيلة تقرقع فيها القناني. اقتربت عليا مني، وسألتني إن انتبهت إلى الشاب فوق الكنبة، قلت لا لم أنتبه له. أخبرتني إنّ اسمه ساري يعمل معها، وهو ينام مع زوجة زميل آخر لهم. لكنّ هذا لا يمنعه من إقامة علاقات مع غيرها. لم أدرِ بماذا يهمّني الخبر. قالت إن رفقته مسلية وهو يحكي أطرف القصص. تعبنا من الوقوف فنظرنا باتجاه باب الصالة المفتوح، ووجدنا أنهما أخليا الكنبة. قالت عليا ضاحكة، «إنّ غرامهما كان سريعاً».

أقرأ الرسالة النصيّة من سابين. خرجوا ولن يطيلوا غيابهم، كتبت.

لم تحدّد متى يعودون. فتحنا قنينتَي بيرة، تأمّلنا ستريو ضخماً وقديماً في زاوية الغرفة. وكاسيتات وأشرطة داخل الخزانة الزجاجية. عندما وضعنا شريطاً لنجرّبه علق. خرج الصوت مشوَّهاً يشبه أزيز خزانة. كانت عليا تنبش محتويات جارور في الدرسوار وتُخرِج منه صوراً وبطاقات بريدية ودفتراً عليه وصفات طبخ. تقرأها بصوت عالٍ كأنّها في غاية الطرافة. دبابيس شعر، فتاحة للقناني، وبطّة بلاستيكية. الأشياء التي تنبشها تدهشها لسبب لا أفهمه. في بيوتنا أشياء مثلها. ربما عليّ أن أريها غرابة الأشياء التي يحتفظ بها أهلي في الجوارير أو فوق التتخيتات. عاد ساري مع الفتاة مبللَي الشعر. تناول قنينة البيرة من يدي وعبّ معظم ما فيها، الفتاة تربَّعت أرضاً دون أن تقول شيئاً وانشغلت بهاتفها. ثم وضعت سمّاعاتها وصارت تغني بأعلى صوتها كأنّها وحدها تماماً. أتى ساري بكأس من المطبخ ووقف قرب عليا وأحاطها بذراعه. همس في أذنها شيئاً أضحكها. التفتت نحوي لتخبرني بما قاله عنّي. لم أعلّق بشيء. توجّه إلى حيث أجلس مبعداً ساقي ليتسع له المكان للجلوس ملتصقاً بي. لا أدري إن كان ما راح يخبرني إيّاه حقيقة أم كذباً. أخبرني عن مرّة، عندما كان طالباً في الجامعة، نسيه رفاقه في فاريا ومضوا إلى بيروت. أثناء ذلك تساقطت كميات هائلة من الثلوج وانقطعت الطريق. استيقظ لا يشعر بأطرافه من شدّة الصقيع وارتاب من الصمت حوله لكنّه ظنّ رفاقه نائمين. لولا اضطراره لدخول الحمام لما اكتشف أنّ الوقت جاوز الظهيرة وهو وحيد بلا مال. بطارية هاتفه فارغة لهذا لم يرنّ المنبّه. نام وحيداً في العلية أمّا رفاقه فافترشوا الأرض في الطابق التحتاني. اتصل بهم. قالوا إنّ الطريق مقطوعة وإنّ عليه أن يصمد ريثما يتحسّن الطقس. في الشاليه، لم يجد إلّا كيس شيبس، وقهوة وعلبة بيكون منتهية الصلاحية. هكذا قرّر التسلّل إلى شاليه آخر بحثاً عمّا يأكله بانتظار انحسار العاصفة. سألته إن وجد. لكنّه سكت كمن نسي بما كان يخبرني. قال شيئاً عن ضجره من الانتظار. جاع ويريد أن نخرج لنشتري شيئاً نأكله.

تذكّرت عطلة قضيتها مع روني وشربل ولبنى في البوار. لم يكن موسم سباحة بعد. ليلة وصولنا أمطرت ورعدت. الشاليه كان بدائياً عبارة عن غرفتين صغيرتين، في زاوية إحداهما غاز صغير وبرّاد عليه رقع من الصدأ، وصوفا تتحوّل إلى سرير وأربع كراسي بلاستيك حول طاولة خشب. في الغرفة الثانية خزانة من درفتين وسريران ضيّقان وضع أحدهما لصق الآخر. في زاوية الغرفة عدة غطس كساها الغبار، وماكينتان لإبعاد البرغش. ما إن وضعنا أغراضنا حتى بدأ المطر. رغم الأيّام المشمسة التي بدأ بها شهر آذار، لم تبدُ العطلة مبشّرة بالصحو. شعرت بالضيق لمجرّد التفكير أننا سنقضي وقتنا برفقة شربل ولبنى. ما كان ممكناً الاستفادة من المصطبة المطلّة على البحر. ظلّ شربل طوال الطريق يصف متعة الجلوس عليها عند الغروب أو ليلاً. مكشوفة على الشاطئ الصخري، وفي الوقت نفسه محجوبة عن الشاليهات الأخرى. «يحسّ الواحد أنه وحده في العالم»، قال. أخرجنا ما أحضرناه من طعام وشراب. أكلنا وشربنا حتى سكرنا ونمنا. في الصباح أيقظني برد لاسع. فتحت عينيّ، لم أجد روني. ظننته في الحمام. غفوت قليلاً وعندما سطعت الشمس تفقّدته ولم أجده. مشيت على مهل إلى الغرفة الثانية. كانت لبنى جالسة عل كرسي ملفوفة ببطانية وشربل ما يزال نائماً. شخير خفيف ومنتظم يرافق تنفّسه الثقيل. دون كلام دعتني لمشاركتها شرب النسكافيه. سألتها إن رأت روني. قالت لا. لم أجده لا في الحمام ولا فوق المصطبة.

على خلاف ما توقّعنا، صحا الطقس وظهرت السماء صافية. وقفت في الخارج أنظر إلى الشاطئ. رأيت رجلَين بعيدَين يحملان صنّارة صيد. كنت أدخّن سيجارة تلو الأخرى. لا أدري لماذا قلقت من أن يكون قد رجع إلى بيروت. أعرف أنه قد يفعل شيئاً كهذا. مرّة تركنا في اهدن وعاد إلى بيروت. فاجأه غضبي منه وقال إنّه ضجر، لماذا يفسد عطلتي. قلت له إنّ من تركني برفقتهما هما نسيباه القادمان من استراليا. سياحتهما ليست مهمّتي. ضحك وقال إنّهما وجداني ألطف منه. طال زعلي منه. قال إن لم

أرضَ سيقف أمام المدرسة ويصرخ باسمي بأعلى صوته. الكلّ سيعلم بأنني صاحبة هذا الأخوت قال. أعلم أنّه يفعل كلّ ما يخطر بباله.

بينما أقف فوق المصطبة متأمّلة الماء يوجّ بنور الصباح، ملأني اليقين بأنّه فعلها مرّة ثانية. كنت حزينة ولم أنتبه إلى قدومه. ما إن رآني حتى فتح كيس النايلون. سمكة كبيرة حراشفها فضّية مائلة إلى الأزرق. نسيت قلقي وأخذني الحماس مثله إلى سمكة لا أحد فينا يعرف كيف نعدّها. عندما استيقظ شربل أخيراً نظر إلى السمكة الضخمة، قال إنّ الصياد غشّه هذه سمكة لا أحد يشتريها طعمها كالكاوتشوك. لكنّ روني لم يهتمّ وقال إنّه سيشويها بطريقة مبتكرة. جمع عيدان يابسة وأعشاباً بحرية وأوراقاً وصنع موقدة على الشاطئ. أطعمنا سمكة نصف نيئة قبل العاشرة صباحاً وهو يردّد بسعادة إنّها أطيب سمكة أكلها في حياته.

خرجنا دون سيارة وسرنا في طرقات لا نعرفها ولا ندري إلى أين توصلنا. وجدنا سناكاً طلبنا سندويشات شاورما وبطاطا مقلية إلّا عليا. سألته إن كان يبيع سلطة. قال أن ليس لديه إلا سلطة الملفوف والمايونيز التي يضيفها إلى سندويشات الهمبرغر. رائحة الثوم الثقيلة أفقدتني شهيتي. عندما رآني ساري توقّفت عن الأكل، قال لي هل أنا خائفة من أن تكون رائحتي بشعة عندما أقبّله. لكمته صديقته في خاصرته. عليا أغرقت بالضحك، وأكملت تأمّلها للسندويشات كأنها تأكل معنا بعينيها. عندما عرضت عليها أكل السندويش، أجابت هل أنا مجنونة لأعرض عليها أكثر من ثمانمئة وحدة حرارية؟ الناس الذين كنّا نلتقيهم في دربنا نظروا إلينا بغرابة كأن شيئاً في أشكالنا يلفتهم. ساري قال مستفزاً أحدهم: هل نعرفك؟ فقرصته عليا. رفع صوته أكثر منادياً الشاب الذي أسرع في الابتعاد: أتتركني مع ثلاث فتيات لئيمات وحدي؟

في السماء فوقنا نجوم لا تُعَدّ. ضعنا في طريق العودة إلى أن رأينا البناية من بعيد.

كانوا مجتمعين ساكتين. سابين كانت غاضبة منّا لأننا لم نترك لهم رسالة. الشابّ الذي سألني عن الحادث كان ممدّداً وضمّادة كبيرة فوق جبينه. الدم بقّعها بلون غامق. قالت سابين إنّ أحدهم تحرّش بها وهم يبحثون عن ملهى ليسهروا فيه فتشاجر محمد معه وضربه. بعدها لحق بهم الشاب ورفيقان له وطاردوهم طويلاً. قادوا بسرعة جنونية وأخذوا دروباً لا يعرفون إلى أين تفضي. حتى دخلوا إلى طريق ترابية أختبأوا فيها بعد أن أطفأوا كل المصابيح. ساعة وهم مقطوعو الأنفاس. أصيبت كريستيل برجفة لم تتوقّف. المشروب لم يخفّف من توتّرها. استمرّت تقول إنّها لمحت أحدهم يحمل مسدساً تحت قميصه. ماذا لو علموا أين نحن كانت تردّد. أرادت أن تعود إلى بيروت لكنّ لا أحد وافقها الرأي. أنا أيضاً كنت عاجزة عن القيادة، فلم أعرض مرافقتها رغم رغبتي بالعودة.

بقي المكان صامتاً لفترة قبل أن نبدأ بتدخين السجائر. ليست حشيشة قال محمد بل شيء أقوى سينسيكم إسمكم. تظاهرت بأخذ مجّة دون أن أفعل. الموسيقى أيقظتهم من خوفهم وجمودهم. أتوا بأكياس الشيبس والبزورات التي حملناها معنا من بيروت. جوعهم زاد ففتحوا درف المونة أخرجوا منها معكرونه وقاموا بسلقها. فتحوا معلبات التونة والسردين أكلوها من العلب بالملاعق والشوك. على السجادة توزّعت الأطعمة والكؤوس والمنافض والأكياس والقناني والأحذية. بدت كريستيل حزينة. أرادت أن أرافقها للجلوس على الشاطئ. لم ينتبهوا لنا حين غادرنا. على الشاطئ كان زعيقهم المختلط بالموسيقى يأتينا كأنه من شاشة تلفزيون.

صوت البحر يصلنا مهدهداً. كنت مغمضة العينين عندما أجفلني صوت كريستيل. قالت إنها لا تفهم أحمد أبداً. ما تكاد تتصالح معه حتى يختلفا من جديد. دائماً يتحجّج بعمله كي لا يسهر. يقول إنّه لا يركّز في شغله حين ينام لوقت قصير. قلت أن ليس في ذلك ما يريب. هي لا تزال طالبة. ربّما عندما تبدأ العمل ستتفهّمه. قالت إنّ الأمر أكبر من ذلك.

طباعه صارت غريبة. ثم إنّ الوقت لا يزال مبكراً كي تكبر. لا تريد أن تفكّر لا بالعمل ولا بالمستقبل ولا بالزواج. لا تريد أيضاً أن تصبح كأمّها وخالاتها. سألتني إن كان هناك أحد يعجبني في هذه الأيام. لم أحبّ أن يأخذها الحديث في اتجاهي. لفّقت لها قصة لأضحكها عن نادل في كاريبو كتب لي على المحرمة رسالة اعجاب. انقلب مزاجها وأصرّت أن تعرف ما كتبه. قلت إنّه كتب «صحيح أنك طويلة أكثر من اللازم وفي جبينك ندبة كبيرة لكنني معجب بك» لا أدري كيف صدّقت. وصفته لها. أخبرتها إنّه أخرق غالباً ما يوقع الطلبيات كما يقلب أكواب الماء ويبلّل الزبائن. قالت إنّها في المرّة التالية ستحاول وحدها أن تحزر أي واحد هو بين النُدُل.

قلت لها «ربما ليس مجرّد غرسون. قد يكون طالباً في الجامعة وقد يكون ابن مليونير كبير لكنه يهوى تعذيب نفسه». ذكرتني بجان الذي كان في الجامعة معنا ويشتغل في أوقات الفراغ وفي العطل عند زيت وزعتر. سألتها إن كانت تعرف غيره. ردّت ما المانع من أن يكون الجرسون المعجب مثله. نسيت إلى حين قبل أن تعود إلى أحمد ثانية. قالت إنّ هناك ما يزعجها من بداية علاقتها به. طوال الوقت لم يعرّفها على أهله، بينما هو يعرف والديها وأخوتها وأحياناً يقاسمهم نهارات العطل. سألتها إن كانت عازمة على الزواج منه ليزعجها الأمر. «أكيد لا، لكن هل يخجل بي؟»، قلت إنّه يحاول ألا يأتي بوجع الرأس لنفسه. من يعلم إن كان أهله متعصّبين وذكّرتها بأن أهلها أيضاً مانعوا بشدّة في البداية. أومض هاتفي فظننتها رسالة من رفاقنا يتفقدوننا. ارتبكت عندما قرأتها. «أفكّر بك طوال الوقت» نظرت إلى الساعة وكانت الثانية إلا ربعًا بعد منتصف الليل.

كان صوت الموسيقى ما يزال يسمع لكنّ صياحهم خفّ. حين دخلنا لم يبدر منهم ما يدلّ على انتباههم لغيابنا. عددهم قلّ ولم أدر إن انسحبوا للنوم أو للخروج كما فعلنا. رائحة السردين قوية، قلت. ردّت سابين إنّ أمّها ستقتلها حين ترى السجادة مبقّعة بزيت التونة والسردين.

سألتها عن البقية قالت إنّهم خرجوا للسهر في الملهى. بدا أنّهم نسوا أمر الحادثة التي أرجعتهم مرعوبين. في الغرفة الثانية وجدت ثلاثة نائمين على سرير واحد. أقدامهم متدلّية عند جانبي السرير. أردت أن أنام لكنني لا أحب أن أنام قرب الآخرين. فكّرت أنّ المكان لن يتسع لنا جميعاً. عندما قالت سابين لعليا إنّ بامكانها دعوة من تشاء لم تقصد هذا العدد. أخرجت غطاء من خزانة الحائط لأنام فوقه، لكنني لم أجد مكاناً محايداً لأنام فيه. الشرفة رغم اتساعها تغطّيها طبقة غبار كثيفة. عدت للجلوس أرضاً قربهم. تغطّيت بالشرشف. معدتي كانت ترجع إلى فمي حموضة الفودكا والبيرة. لم أدر كم غفوت عندما أيقظني صوتهم عائدين بعزّ نشاطهم. الشمس غمرت حولي وجوه النائمين إمّا مثلي ساندين ظهورهم إلى الكنبة، وإمّا فوق السجادة. كؤوسهم مقلوبة أو مكسورة. عليا هزتني من كتفي لتتّهمني أنا والآخرين بالكسل. يريدون أن نخرج معهم. فتحت عيني بصعوبة. كانت عليا متأبّطة ذراع عمر. ما أسرعها فكّرت في عقد علاقة مع أحدهم. سألت بصوت بحّ من كثرة التدخين إلى أين. قالوا إنّهم جائعون. جوعهم جعلهم يختلفون أيضاً على الترويقة. منهم من اقترح سودا نيّئة ومشاوي. الفتيات أردن مناقيش أو كرواسون. عليا قالت إنّهم سيسبحون بعد ذلك. البحر رائق ليس فيه موجة . الألم في معدتي منعني من الحركة. أغمضت عينيّ متظاهرة بالنوم. بعد عاصفة الصراخ والكلام العالي حلّ الصمت. كان صوت البحر ناعماً، لا سيّارات تمرّ في صبيحة الأحد ولا شيء سوى رنّات هواتفنا المرميّة حولنا. لا أدري لماذا غمرني شعور بالحزن. تمنّيت أن أكون في عالم لا أعرف فيه أحداً. تذكّرت عندما كنت أستيقظ قرب روني صبيحة أحد. اليوم الوحيد الذي تسكت فيه أصوات الورشة المقابلة للمبنى. يكون معصمي يؤلمني ويلمع كأن أبراً تخزه. ما كنت أفهم سرّ هذا الوجع، إلى أن اكتشفت مرة أنه أثناء نومه يمسك بمعصمي ويشدّ عليه بكلّ قوّته. من حينها صار هذا الألم محبباً إليّ. كان النوم في شقته أمراً نادراً ليس بسبب شريك سكنه فقط

بل لأنّ أهله كانوا يأتون لزيارته حين لا يفعل هو. يدقّون بابه منذ الصباح الباكر محمَّلين بالأطعمة والثياب المغسولة. كانوا يلحّون عليه ليتخلّى عن سكنه. قال والده إنّه مستعدّ لأن يشتري له سيّارة. ثلاثة أرباع الساعة بالكثير تفصل الجامعة عن البيت.

بعد قليل فتحت عينيّ وجدت أنّ سابين مثلي لا تزال نائمة. كريستيل واقفة فوق الشرفة تنظر إلينا دون أن ترانا. أولت ظهرها للبحر. فكّرت بأنّ موضوع أحمد يتعسها حقّاً. تحبّه دون أن تدري. قمت من مكاني، خدر قوي في أطرافي وظهري.

تركناهم نائمين وخرجنا بحثاً عن مكان نشرب فيه نسكافيه. وجدنا خيمة من قصب مبنية قريباً من الشاطئ أمامها ثلاث طاولات بلاستيك ولا أحد. جلسنا قبالة البحر. كل منّا انشغلت بهاتفها. كنت أقرأ عناوين المجلات والصحف حين وصلتني رسالة من كلودا تخبرني إنّ عليّ ملاقاتهم إلى مستشفى بخعازي. أبي أصيب بوعكة مفاجئة. لم تقل ما به أو ربّما هي لا تعلم بعد. أصرت كريستيل على مرافقتي. قالت إنّ رفاقها سيتدبّرون أمرهم في العودة. عندما دخلنا لأخذ أغراضنا وجدنا بعضهم قد استيقظ. قلت لسابين إنّ كريستيل مضطرّة إلى النزول إلى بيروت وأنا أيضاً. تحجّجت بمشوار عليّ أن أرافق فيه ابني كلودا. لم تعلّق كريستيل لكنّها بدت سعيدة بأن أخصّها وحدها بالحقيقة. حاولت أن تخفّف عني بالقول إنّ الأمر قد يكون بلا أهميّة. رفعت صوت الموسيقى. سكتت مكتفية بالتحديق من الشباك.

* * *

عندما وصلنا كانت كلودا وأمي جالستَين في الممشى. قالت أمي إنّهما عاشتا ساعات صعبة وانطلقت في سرد كل تفصيل منذ لحظة ايقاظ أبي لها عند الفجر. قاطعتها لأعلم أين هو الآن. ردّت «في غرفة العمليات» وعادت إلى حكايتها. كيف اتصلت بكلودا وكيف اعتقدتا أنّها

ذبحة قلبية. تبيّن بعد التحاليل إنّها نوبة مرارة تكاد تنفجر من الالتهاب. ثم وجّهت كلامها إلى كريستيل بما أنني تظاهرت بعدم الإنصات لها. تابعت كلامها عمّا عانته وكيف أنّ خوفها رفع ضغطها، الأدوية التي أخذتها كثيرة لتهدأ وتبقى واقفة على قدميها. كدت أذكّرها أن أبي هو المريض وليست هي. لا أدري كيف تجد طريقة دائماً لتكون محور القصص. كلودا بقيت ساكتة. سألتها عن روبير وايلي.أجابت إنّهما عند بشارة. وجدها حجّة أضافت ليتّصل كلّ بضع دقائق. أخذت كريستيل جانباً. قلت لها إنّ بامكانها الذهاب إلى بيتها. الأمر كما أخبرتني هي لا يدعو للقلق. كأنّها محرجة من المضي قبل انتهاء العملية، اعتذرت مؤكّدة بأنّها ستتصل لتطمئن. أضحكتني لم تر أبي أكثر من مرّتين عابرتين وتبدو مشغولة البال أكثر مني. عانقتني بقوّة وهنأتني بسلامة أبي. كررت أنّها ستتصل بي بعد قليل.

كان انتظارنا طويلاً. العملية تجرى عن طريق الشقّ التقليدية لا باللايزر. مرضى فوق عربات بدواليب. وجوه زادها ضوء النيون شحوباً. بكاء طفل يسحبون دماً من ذراعه. امرأة فوق نقّالة موصولة بكلّ أنواع الأنابيب. آخرون ينتظرون ذارعين الممرات بقلق. لم أعرف إن كان الألم في معدتي حقيقي أم هو بسبب ما أراه حولي. تبرّعت لاحضار قهوة لهما. نزلت في المصعد. وقفت قبالة المبنى أدخن سيجارة تمنّيت ألا تنتهي. للحظة فكّرت بألّا أعود.

رسالة أخرى يقول فيها إنّ الأحد يوم فارغ. لو أنّه قادر على حذفه.

في الغرفة التي وضعوا فيها أبي سرير فارغ. جلسنا عليه بانتظار أن يصحو تماماً من البنج. المبذل كشف عن ذراعيه وقدميه. الجلد مترهل شديد البياض، الشرايين بانت بنية وخضراء نافرة. على الحمّالة كان فاقداً للوعي. لكن بعد أن صار يكرّر كلمات غير مفهومة، أصرتّ أمي عليه لتسأله ما يريده وما الذي يقوله.

أتت الممرّضة بالطعام. سألتها أمي إن كان بامكانها أن تطعم أبي. أجابت لا ليس قبل إفراغ ما في بطنه. تأمّلت أمّي ما أحضروه كاشفة عن الأغطية. قطعة دجاج فوق بضع حبات من البازيلا والجزر وأرزّ مسلوق. شيء آخر يشبه المهلبية وتفاحة. عندما رفضنا أن نأكل بعد أن عرضت علينا. قالت إنّها تأخذ أدويتها على معدة خاوية. عليها أن تأكل رغم أنّ لا شهيّة لديها. لتؤكّد أكلها مرغمة، راحت تقول بعد كل لقمة. «ما أصعب الأكل عندما يكون الواحد قلقاً» ورسمت تكشيرة فيما تبتلع الطعام بسرعة كأنّها تخشى أن يفاجئها أحد. أشحت بنظري جهة الممر. كانت أمّي تخطّط لليلتها وتفكّر باستخدام السرير لتنام، عندما أدخلوا نقّالة تحمل رجلاً خمسينياً محاطاً بأهله الكثيرين. خرجت مع كلودا إلى الصالون. لم يكن هناك أي مقعد شاغر. أقنعتها بالتمشّي أمام المستشفى لأدخّن.

امتقع لونها ما إن لمحت بشارة قادماً في يده علبة شوكولا وباقة من الزنبق. لم تردّ على أسئلته المستفسرة عن حال أبي. قالت بلهجة معاتبة: هل تركت ايلي وروبير وحدهما؟ قال إنّ أمه أتت لعنده لتبقى معهما. بينما أجيبه عن أسئلته استمرّ ينظر بثبات إلى كلودا. لم تتحمّل أن تبقى واقفة. قطعت الطريق إلى الجهة المقابلة مديرة ظهرها لنا. لم يبدُ أنّ بشارة سمعني أجيب عن أسئلته، لأنّه قال «صارت الآن تدخّن؟» مع أنّ لا رغبة عندي بالردّ على مكالمة كريستيل، فعلت كي لا أضطرّ إلى الاستمرار بالوقوف معه. تظاهرت بضعف الارسال لأبتعد بدوري وأرحبّ بكريستيل كأننا لم نلتق منذ زمن.

انتظرنا حتى أنهى بشارة زيارته. مشينا في الشوارع المحيطة. أكلنا بوظة ايطالية، مقابل الجامعة الأميريكية. جلسنا في مقهى، تأمّلت كلودا الطلاب، قالت بحسرة إنها لم تكن يوماً مثلهم. لم نعد إلا عندما أرسلت أمي أس أم أس لتسألنا أين اختفينا، تريد أغراضاً من البيت قالت.

أوكلتني بالاتصال في الصباح لابلاغ المدرسة بتغيبها. عندما تأفّفت من مهمّة الاستيقاظ باكراً. قالت إنني كعادتي لا أفكّر إلا بنفسي. بدل أن أعرض الحلول مكانها ليلاً أنزعج من أن أنهض باكراً بعض الشيء. سألتها لماذا لا تفعل هي. هاتفها معها، هي المعلّمة في المدرسة لا أنا. تدخّلت كلودا لتتبرّع هي بالاتصال.

سألتني كلودا أن أنام عندها بدل البقاء وحدي دون أهلي. تحجّجت بالأغراض الكثيرة التي عليّ حملها معي خصوصاً أن الغدّ يوم عمل طويل. قالت نسهر معاً على التّراس. الطقس جميل ، لديها أفلام لم تشاهدها . أو إن أردت تدعوني إلى مطعم ايطالي في عين المريسة بما أنّ ابنيها ليسا في البيت. أو نذهب إلى الداون تاون لنتمشّى ونختار مكاناً نسهر فيه. إصرارها دفعني إلى قبول دعوتها. أحسست كأنّها هي من تخاف البقاء وحدها.

بدت سعيدة وهي تملأ العربة باللحوم الباردة وبأنواع غريبة من الأجبان والبزورات والمشروب. القناني من كل الأنواع كأنها تتحضّر لسهرة فيها العشرات من المدعوّين. سألتني لماذا لا أدعو أصدقاء لي. كذبت مدّعية أنهم خارج بيروت. أجابت: كريستيل؟ قلت إنّها مرتبطة بموعد.

أسرع البواب لحمل الأكياس ما إن دخلنا. رافقنا إلى باب الشقة. أعطته خمسة آلاف. سألتها باستغراب إن كانت توزّع عليه المال كلما فتح لها المصعد. قالت إنّها لا تفعل ذلك إلا من حين لآخر. يوفّر عليها عناء احضار الكثير من الأغراض، لديه سبعة أولاد كبيرهم في الثانية عشرة، ينوب عن أبيه بعد المدرسة.

كان البيت مضاء. قالت إنها في عجلتها فجراً تركت كل شيء على حاله. البيجامات والكتب المدرسية مبعثرة فوق الكنبات. كان منظراً غير اعتيادي لأنّها مهووسة ترتيب ونظافة. لكثرة ما تغسل يديها تبقيان

جافتين، دون أن ينفعهما أي مرطب. أورثت العادة إلى ابنيها. في المدرسة لا يلمسان شيئاً إلّا ويستخدمان بعده معقماً. ملأت رأسهما بمكروبات وجراثيم وخوف دائم من أمراض خفيّة. على التّراس التي جلسنا عليها ارتفع صوت موحّد ينبعث من التلفزيونات. صوت موسيقى بدوية أو فرقة زجل. أعدنا الصحون والكؤوس إلى غرفة الجلوس. وضعت فيلماً قديماً لدي نيرو وميريل ستريب. كانت تستبق المشاهد بتعليقات وشروحات كأنني وحدي لن أفهمها. شربنا فودكا مخلوطة بعصير ليمون. ذكّرتني بأمور كنت أفعلها وأنا صغيرة. قلت لها إنني لا أذكرها. مرّة زعلت منها وكنت دون الخامسة. أخذت دمية كنت أحبّها وضعتها في حقيبة المدرسة مع أقلام تلوين ودفتر وجهاز التحكّم عن بعد وخرجت من البيت دون أن تنتبه لي. كانت غالباً ما توكل برعايتي في غياب أهلي. انشغلت عني بالكلام على التلفون. رآني أحد جيراننا في الشارع مرتدية بيجامتي. أرجعني رغم بكائي واحتجاجي. قالت إنّني أخذت الريموت كونترول ظنّاً أنّها كافية وحدها لأشاهد ويني ذي بو الرسوم المفضلة عندي.

لم أقل لها إنّها تشرب كؤوسها بسرعة، غفت أثناء الفيلم. هززتها داعية إيّاها للنوم. كانت تفتح عينيها مجدداً تأخذ رشفة من الكأس لتعود للنوم. تكوّمت على نفسها. المشاهد تتالت دون أن أركّز فعلاً على الأحداث. وجدت بعض الرسائل على هاتفي. تصفحتها بسرعة دون أن أجيب على أيّ منها. الأخيرة من أمي تشكو فيها من تعبها. أبي متألّم بعض الشيء لكنّ المريض المجاور لا يدع عينها تغمض. يئن بصوت عال مكرراً «يا أمي». قالت إنّهم في المستشفى لن يسمحوا لها بالبقاء ليلة غد. عندما أطفأت التلفزيون استيقظت كلودا، وقامت بثقل تجمع الصحون. فكّرت أنّها لا يمكن أن تنام دون إعادة كلّ شيء إلى مكانه. عادت من المطبخ دامعة العينين. حملت الكاتو الذي اشترته فوق صحن بورسلين تتوزّع ورود عند جوانبه. قلت لها مازحة إنّه جميل ومنظره شهي لكنّ ذلك لا يستدعي البكاء. مسحت عينيها. تأمّلتني كأنّها تراني لأوّل

مرّة. تحدّثت عن التعب عن المجهود الكبير كل يوم لتنهض وتبدأ يوماً آخر. تجاهد للذهاب إلى عملها وتحمّل الناس. سألتها لماذا لا تأخذ دواء ما يساعدها. قالت إنّها تفعل. تذكّرت رفاقي عندما كانوا يحسدونني لأنّ أختي صيدلانية وبإمكاني الحصول على ما أريد من الأدوية. المهدّئات كانوا يمزجونها مع حبوب أخرى. تحسّن مزاجهم يقولون.

كأنّها استيقظت نشيطة فجأة. راحت تغسل الأواني وتوضّب بقايا الطعام. عندما رأتني أنهض لأنام، قالت إن الوقت باكر لماذا لا نجلس على التّراس ونشرب بيرة باردة.

هدوء غريب ساد بعد ضوضاء ساعات الليل الأولى. كنا نسمع وقع أقدام المارّة، صوت قدّاحة تشعل سيجارة. رنين الهواتف، صوت السيّارات تقفل، المصعد، تكّة المفتاح.

مفرقعات وأسهم ناريّة شقّت السماء جهة البيال. تأمّلناها إلى حين تبدّدت وأنطفأت. الصمت دفعنا إلى تبادل الكلام همساً. حكت عن إحساسها فجأة بأنّها ليست المرأة ذاتها. لذلك لا تستطيع العودة إلى بشارة. كأنّ ما فعله، فتح عينيها على حقيقة كانت تجهلها. ليست كما يعتقد الجميع مجروحة من خيانته. هي متألّمة لأنها لا شيء طوال السنين. كيف تظنّ أنّها أنجزت شيئاً. بكاؤها صعّب عليّ فهم كلماتها. تغلغل حزنها إلى أعماقي. كنت عاجزة عن إيجاد كلمات مناسبة. أمسكت بيدها لأحثّها على الدخول، لكنّها تجاهلتني. اعتذرت بعد قليل لأنّها وعدتني بسهرة مبهجة، حوّلتها هي إلى نحيب وشكوى. لم أحاول أن أذكّرها بعملها وأولادها. لا طائل من الكلام في مثل هذه الحالات. حتى لو اقتنعت بما أقول، ستنسى وتعاود تجريح نفسها. حقائق تعلّمتها من علاقتي بنفسي وبرفاقي. كلّ ما تحتاجه أن أستمع لها. لم ندخل إلى النوم إلا قرابة الثالثة فجراً. وضعت أربع حبوب وقذفتها إلى جوفها دون ماء. سألتني إن كنت أريد مهدئاً أو منوّماً. أصرّت أن أقاسمها النوم في غرفتها. تكوّمت عند الطرف الثاني من السرير متلفّعة بغطاء سميك. التبريد القوي منعني

من النوم. ألم في ساقيّ كان يوقظني كلّما سهوت. خفت أن أوقظها إن قمت لإطفائه. لا أدري كيف سأحتمل الغد بعد قلّة النوم والتعب. تسحبت إلى غرفة روبير ونمت دون حركة حتى أيقظتني كلودا. رائحة مناقيش وحليب. اشتراها الناطور عند بربر قالت. بردت المناقيش دون أن نلمسها. اكتفيت بالنسكافيه وبسيجارة. كانت في بنطلون واسع لونه كحلي وقميص أبيض دون أكمام. وجدت أنّها وضعت بعض التبرّج القليل من الكحل والبودرة. الشريان في رقبتها المكشوفة ينتفض بقوّة. قالت إن عليّ أن أسرع في ارتداء ملابسي كي تمرّ بأمي وتحلّ مكانها لساعتين.

* * *

في الرسائل التي عادت لتصلني مرّات عديدة في اليوم الواحد، لهجة مختلفة. تشبه الحديث ولو كان من طرف واحد. يسأل ويجيب. يتخيّل ردوداً على لساني. يقول إن فتاة مثلي لن تنظر إلى شخص مثله. يعلم أنّ لا أمل في أن أقاسمه شعوره، لكنّه يجد صعوبة في عدم الكلام معي. أحياناً يكتب أشياء عامّة لا علاقة لي بها. يخبرني عن الناس الذين يلتقيهم. عمّا يزعجه في التعامل مع الآخرين. أو يصف مكاناً جميلاً مرّ به. يكتب أيضاً تعليقات بشأن الأوضاع والفوضى. مرّة أخبرني عن مرض صديق له. عن صعوبة أن يقبل برحيله قريباً. كنت في رأسي أردّ عليه. صورة له بدأت ترتسم بداخلي.

أجهد في مراقبة والد كريم كلّما حضر. تارة أحسّ أنّه هو وأحياناً لا. انتباهي الجديد له جعلني أراه بعين أخرى. بدأت أطرح على كريم أسئلة لا علاقة لها بمتابعتي له. أستدرجه ليحكي عن أخته عن أمه، عن العطل علّني أربط بين الرسائل والواقع . لكنّ كريم كان صبياً غارقاً في عالمه. أسأله فيحكي لي عن شجاره مع رفيق له، أو عن لعبة أعطيت له هدية لنجاحه في امتحان. يحكي عن والده باعجاب شديد ككلّ صبيّ في عمره. ما كنت فضولية بشأن والده بل أيضاً أمّه. أحياناً كثيرة تحضر ابنها

هي ويعود إلى البيت برفقة والده. اللحظات الخاطفة التي أراه فيها جعلتني أنتبه لتوتّره. يكبس بظفر سبابته اصبع ابهامه كأنّه يحاول شقّه أو جرحه. يتلعثم في حديثه، يبتلع الكلمات، يأخذ نفساً عميقاً بين كلمة وأخرى. هذا الارتباك انتقل إليّ. رغم ذلك رأيته بوضوح، عيناه واسعتان أسودهما مائل إلى الرصاصي. رموشه الطويلة والكثيفة شبيهة برموش الأطفال. فمه عريض، شفته العليا أكبر من السفلى. الشيب كثير عند فوديه. يكرّر عبارات الوداع عدّة مرات قبل أن يرحل حقّاً. يبقى واقفاً وحين يجلس يبقى متأهّباً. لا ينظر إليّ إلا حين أبعد نظرتي عنه. أحسّ النظرة تتسلّل إلى داخلي وتكشف أفكاري، أرتجف كأنّ مسّاً كهربائياً أصابني. ماذا لو لم يكن هو من يكتب الرسائل، وكلّ ما ألحظه فيه مجرّد خيال. ما الذي يصيبني؟ ما كنت أعرف. أقرّر عدم الاكتراث، وأعود إلى التفكير به كلّما وصلت رسالة. مؤخّراً صارت ترسل إليّ لا من هاتف. كنت متأكّدة من أنّ الاسم مفبرك. «راجي عسّاف» لم ألتق أحداً يحمل لا اسم راجي ولا من عائلة عسّاف.

في البيت، أمي تشكو تعبها وأوجاع مفاصلها على مدار الساعة. تقول إن أحمال البيت كلّها ملقاة على عاتقها. أبي أضطرّ للامتناع عن أي جهد بعد فتق والتهاب إحدى القطب. زوّار وأقارب يأتون حتى ساعة متأخّرة مساء. عندما تلتقي بي أمّي صدفة، تنهال عليّ بعتاب محاولةً إشعاري بالذنب. تطوّعت مرة لشراء لائحة من الأغراض ردتني بنصفها لأنّها ليست الأنواع التي تشتريها. تظلّ تردّد بأنني لست نزيلة فندق ويترتّب عليّ أن أعينها لا أن أشغل بالها بغيابي الطويل ليلاً. تشكو أيضاً من تبدّل كلودا وتقول:ماذا فعلت يا ربي لتعاقبني بهذه الخلفة؟ تستغرب عندما أهبّ للدفاع عن أختي. كأن تحوّلي لا يعجبها. تذكرني بما كنت أقوله عنها في السابق. لاحقاً أشفق عليها، أفكّر بأن عليّ ألا أقسو عليها بردودي الدفاعية، لكنّ شيئاً فيها يستفزني دائماً وأنسى بلحظة كل نواياي الطيبة. لهذا لم أتردّد عندما أخبرتني سابين أن آتي للسكن معها خلال

غياب رفيقتها التي أخذت جزءاً من عطلتها السنوية. السكن مع سابين يعني العيش بلا نوم. في ليلة دعت بعض رفاقنا في الجامعة. كان لقاء غريباً خاصة أنني لم أر بعضهم منذ التخرّج. رالف الذي صار محامياً جاء برفقة خطيبته. كان في بدلة. ثبّت شعره إلى خلف بالجل الكثيف. كأن رأسه طلي بالزيت. عطره ملأ لا الشقة بل علق في المدخل. كنّا نشمّه كلما فتح الباب ودخل قادم جديد. جاء برفقة فتاة قال إنّها خطيبته لارا. وجدت صعوبة للجلوس فوق الطراحات الموزّعة أرضاً. فستانها ضيّق وحذاؤها بكعب عال ومروّس. حملت جزداناً بسلسلة ذهبية ،كأنهما يلبّيان دعوة على عشاء رسمي. دون انتباه منّي ظللت أنظر إلى رالف غير مصدّقة أنّه هو نفسه. كلاهما ارتبكا كأنّهما انتظرا أن يكون العشاء رسمياً. لا أدري من أين لرالف هذه الفكرة. لذا لم يطيلا البقاء. ما إن خرجا حتى ارتاح الجميع.

صياحنا دفع بأحد الجيران إلى قرع باب الشقة بعنف. تهديده بالاتيان بالدرك، أسكتنا لنصف ساعة لنعود بعدها إلى ما كنّا عليه. كنّا نحكي في بداية السهرة في الآن نفسه، نتذكّر ما كنا نفعله، نزيد عليها تفاصيل من خيالنا، من لم يكونوا معنا استمعوا إلى قصصنا شاردين. انتبهنا إلى ضجرهم. شغّلنا الموسيقى. جلست قرب عادل، كان أيّام الجامعة طالباً في إدارة الأعمال. أخبرني طويلاً عن عمله في دبي. لا يحسّ هناك أنّه مشتاق إلى لبنان. لديه صداقات. أماكن السهر وكل ما يخطر بالبال موجود. أذكر شهرته في الجامعة. تعرّض مرتين إلى الطرد، مرّة لأنه رشق سيّارة واحد من الأساتذة بالطلاء. ومرة أخرى لأنّه تضارب مع شاب خلال الانتخابات الطلابية. كان يستفزّ الآباء بالحرية التي يتصرّف بها مع الفتيات. كانت طرافته وجرأته محطّ أعجابنا. الكلّ اراده صديقاً. يتنقّل من شلّة إلى أخرى. هو أيضاً تبدّل. لم يبق إلا تلك القصص نرويها عنه لنحسّ أنّه الشخص نفسه. حتى شكله لا يشبه ما كان عليه. اللحية الطويلة غير المشذّبة والشعر الكستنائي المربوط والجينزات المهترئة. عندما أنظر

إلى وجهه الحليق إلى قميصه الأبيض، إلى حذائه الايطالي، أعلم أنني أنا أيضاً تغيّرت.

يسألني إن كنت أرغب في السفر. لديه صديقة انكليزية تعمل مديرة لمدرسة هناك. في البداية لم أجدها فكرة لامعة، ثم قلت له لاحقاً إنني سأفكّر بالموضوع. ما عاد الحديث يجري بيني وبين كلّ من أعرفهم كالسابق. لحظات الصمت صارت فجأة تربكنا، نسارع لملئها بكلام أجده ساذجاً. أزعل من نفسي. سكوتي لا يبطل احساسي. هكذا بينما تستمرّ الضوضاء، أحسّ أنني كمن يغادر جسده ليرحل بعيداً. أشرب وأدخّن حتى تنسدل أجفاني.

استيقظت في اليوم التالي دون أن أتذكّر متى وكيف نمت في السرير. الصداع أبطأ من حركتي. تفاجأت أن أحداً لم يبق البارحة. أفاقت سابين بعدي على رنين المنبّه. شتمت الاثنين والعمل. آثار المشروب أقوى من المعتاد. ليس الحرقة في المعدة بل إحساس أنّ ضربات قلبي تكاد تفجّر صدري. الصداع أشبه بومضات كالكهرباء في جبهتي. لم تكن سابين بحال أفضل منّي. جاءت بقنينتي بيرة. ظننتها تمزح. قالت إن هذا سيداوينا. لم أستطع أن أتحمّل إلّا جرعة.

فكّرت بالأشياء التي أهملت قراءتها. سأعتمد على ما أعرفه ولو جاء عامّاً. حديثي في الاذاعة سيكون عن العقاب وأثر التعنيف. اقتراح من معد البرنامج بعد أن انتشر خبر ضرب أولاد في مدرسة ما بالفلقة. الألم منعني من وضع تصميم في رأسي للأشياء التي سأقولها. قلت أذهب أبكر من المعتاد لأكتب رؤوس أقلام. لا أحبّ أن أعاني ثانية، كما حصل عندما عددت الخطوات التي على الأهل اعتمادها لمعالجة مشكلة الغضب والعناد عند الأولاد. نسيت يومها ما ذكرته فأعدت حديثي دون تركيز.

عجقة السير أخّرتني. شاحنة انقلبت عند التباريس، واصطفت السيارات مطلقة زمورها. نزلت ومشيت حتى الخارجية. هناك ركبت

سيارة أخرى. يوم مليء بالعراقيل من بدايته. جلست في المقهى وجرَّبت أن أركز لأكتب على هاتفي الأشياء التي سأقولها حين لمحت والد كريم على الرصيف المقابل يستعمل الصرّاف الآلي. لأوّل مرّة أراه في غير مواعيد ابنه. كان ثقيل الحركة وهو يعود إلى سيّارته المركونة. نظر نحوي إلى شرفة المقهى لكنّه لم يرني ولم يعلم بالرعشة التي أمسكت بي. فكّرت في نفسي أنني غبية. تذكّرت المرّات التي كنت أفاجئ بها روني دون علمه. أنتظره على الرصيف قبالة البوّابة التي يخرج منها عادة. أراه يحرّك يديه مستغرقاً في الحديث دائماً مع رفاق له. أحبّ الدهشة على وجهه وركضه نحوي ما إن يلمحني. كنت أفعل الشيء نفسه عندما يكون لديه صف في الصباح. أقف أمام محل الخضار قبالة مبناه. أدخن سيجارة محدّقة بالمصعد. أحياناً لا يلتفت ليراني، أمشي خلفه إما أصفر أو أقول إلى أين أنت مستعجل يا حلو. حينها يستدير بسرعة ويعانقني كأنّ وقتاً طويلاً انقضى على لقائنا الأخير. رسالة من كلودا تقول إنها تحبّ أن أكون حاضرة في حفل عيد ميلاد روبير. دعت رفاقه إلى ماكدونالد في بلس.

* * *

لديّ احساس دائم أن الازعاجات لا تـأتي منفردة. عدا صداع الرأس الذي زاد، أبلغت بموعدين إضافيين بعد الظهر. عادة لا أقبل. لكنّ التعب يخفّف من سرعة بديهتي في الردّ. كأنّ المعلومات يلزمها وقت ليفهمها دماغي. قرأت ما حضرته عن تعريف التعنيف وتأثيراته على المعنّف بصوت رتيب مرهق. أول أمّ اتصلت استغربت أن يتصرّف ابنها كالمعنَّفين. لا أحد يضربه تقول. أجبتها إنّ التعنيف ليس ضرباً فقط. قالت أن لا أحد يقسو عليه بالكلام. حين يخطئ تركعه في الزاوية. قلت إنّ العقاب قاس وعنيف. سألتني إن كان لديّ أولاد. ثم أضافت أن التنظير شيء وتربية الأولاد شيء آخر. متّصلة آخرى قالت إنها لا تضرب ابنتها. تصفقها صفقة خفيفة على يدها حين تحاول لمس الأشياء كالزهريات

وغيرها. عندما تعاند تضربها على قفاها لكن ليس بقوة. تريد أن ترسم لها حدوداً قبل أن تكبر وتدخل المدرسة. كنت أتأنّى في اختيار كلماتي كي لا تهاجمني كما فعلت من سبقتها. حين أقترحت عليها حلولاً أقل عنفاً. قالت إنها جرّبت طرقي لكن ما يكتب في الكتب لا ينفع. هي تربّت هكذا وكانت أمها تضربها ولا تشكو الآن من شيء. ضحكات مكتومة حولي خففت من توتري. لم أستطع أن أكتم ضحكتي على الهواء مباشرة. تظاهرت بالسعال وتدخّلت تانيا لتأخذ الاتصالات بدلاً مني. المتصل الثالث كان رجلاً حرص من البداية على ذكر اسمه كاملاً ومهنته. لم يطرح أي سؤال أعاد تلخيص ما قلته في بداية الحديث مدّعياً أنّ لديه معلومات يحبّ أن يضيفها. شكرته تانيا على مداخلته المهمة فيما ايماءات وجهها تسخر منه ومن كلامه. جيّد أنها اذاعة لا تلفزيون.

تمشيت بعد الحلقة، بحثت عن مكان جديد أجلس فيه بانتظار الساعة الواحدة. اخترت طاولة في الخارج. الصالة الداخلية مليئة بالزبائن. لم أهرب من زحمتها أردت تجنب التبريد. رغم الحرّ كنت مصابة بقشعريرة. كنت آكل بسكويتاً بالشوكولا حين رأيت رضا يمشي وفي أعقابه ثلاثة مصورين آخرين. لم اومئ له لكنّه رآني حالما عبر الشارع. عانقني وعاتبني فوراً لأنني لم أتصل لأسأل عنه حتى؟ قال إنه تعرّض للضرب هو ومصوّر تلفزيوني أثناء تغطية اعتصام وقطع طرق في الشمال. وأنا لم أكلّف خاطري بالسؤال عنه. قلت له من أين لي أن أعرف. سأل مستهجناً ألا تقرئين ألا تسمعين؟ انتقل للحديث عن المشاوير والسهرات التي فاتتني وأنا في غيبوبة. ثم ضرب مؤخرة رأسي بكفّه. الفتاة والشابان سلّطوا كاميرتهم باتجاه الشارع. نظرت ولم أر شيئاً يستدعي الصور. أخبرني رضا إن سيّارة مرت ليلة البارحة بعيد منتصف الليل شتمت الشباب في الساحة وأطلقت النار عالياً. اليوم سألوا المارّة عن رأيهم بما حصل. قالوا إنّهم لا يريدون غرباء عن منطقتهم ليهددوهم . سخروا ثلاثتهم من البلد من أوضاعه التي لن تصطلح ولو بعد مليون سنة. كانوا يمسحون

العرق عن جباههم ووجوههم حين سألني رضا إن كان دمي بارداً ولماذا لا أجلس في التبريد. غادروا قبل أن يكملوا شرب بيرتهم. أرادوا انهاء التحقيق، ومقابلة بعض من كانوا في الساحة لحظة الحادث. سألني رضا أن أرافقهم لنأكل سندويشات فلافل. قلت إنني تأخّرت واضطررت لأن أغادر مثلهم مع أن لديّ بعد ساعة فراغ.

* * *

عندما وصلت كان هناك مجموعة لا تتعدّى الثلاثة صبيان بانتظار أهلهم. أمي كانت تحادث بشارة، بينما كلودا واقفة على الرصيف. رغم اقترابي منها لم ترني. وضعت يدي فوق كتفها، قفزت وجفلت. قالت إنني أفزعتها لوهلة. سألتني عن سبب تأخري هكذا. قلت إن لديّ عملاً هل نسيت. كانت الهالات تحت عينيها بنفسجية، شعرها المعقود في أعلى رأسها كشف نحول وجهها الذي زاد مؤخراً.

روبير فرح بهديتي. أحضرت أيضاً لايلي موسوعة عن الفضاء. كلودا اعتبرتها باهظة. لحظة نزع روبير الغلاف عن اللوح انشغل به عن رفاقه. لم يحاول لا بشارة ولا كلودا أن يتعاملا بلطف مع بعضهما خلال الحفلة. كان بشارة يوجّه الكلام إلى كلودا عبر أمّي. أحياناً تردّ بجفاء أو بسخرية حتى. كان ايلي ينظر إليهما خفية متظاهراً بتصفّح الكتاب. أردت أن ألكز كلودا لأكبح عدائيتها أمام ابنيها، لكنني عدلت. لن يفيد ذلك بشيء.

الصداع في رأسي لم تلغه حبات الأدفيل التي ابتلعتها على مدار النهار. فكّرت ألا أنام عند سابين، أحتاج لأن أقضي ليلة طبيعية. لكنّ سماع أمّي تنقّ بدّل رأيي. عبر الواتس آب علمت أن سابين وعليا وكريستيل وسوسن اتفقن على سهرة بنات. نتعشّى قلن لي وبعدها نجرّب ملهى جديداً في جونية. سهرة بنات ما كانت فكرة تعجبني. غالباً ما تنتهي السهرة بالتعرّف على شبّان لا نردّ على اتصالاتهم في اليوم التالي. حتى عليا التي تخرج أحياناً برفقة واحد من الذين صادفناهم، تملّ بسرعة.

نكرّر الأحاديث نفسها. أستمع إلى أسرار زادها الشرب جرأة. أكثر ما يزعجني هو دفعهن لي لأن أفعل مثلهن وأحكي عن نفسي. في مرّات كهذه، كنت أؤلّف قصصاً أحرص على أن اقول أنها انتهت. جورج شكّل موضوعاً لوقت طويل حتى بعد أن انفصلت عنه بسنوات. كنّ يشككن بما أسرد فيتهمنني بالكذب وبتضليلهن. كريستيل عرّفتني مرّة على ابن خالها. قالت إنّه مثلي وسيعجبني كثيراً. دعته دون أن تعلمني. خلال يومي السبت والأحد كان عليّ تحمل تقربه منّي. كنت فضولية لأعرف ما النقاط المشتركة التي افترضتها بيننا. أكثر ما أزعجني هو نبرة صوته لدرجة أن بامكاني النوم بعد سماع جملتين منه. كان طالباً في كلية الطبّ. لم يكن الطبّ اختصاصه بل هوسه. لا يحكي إلا عن الأمراض والاكتشافات والدراسات الحديثة. سألني لماذا لا اتكّلم عن نفسي ، لم يعرف عني سوى اسمي واختصاصي وأنني كما لاحظ سبّاحة بارعة. قلت حينها بعد أن فقدت صبري بأنني لست الفتاة التي أخبرته عنها كريستيل. حبّها لكلينا جعلها تتوهّم أننا سنتفق. لكنني لست مهتمّة بأيّ شكل من الأشكال بالتعرّف أكثر عليه. تركت الشلّة ظهراً وانصرفت. زعلت من كريستيل. عاديتها لوقت، حتى اعتذرت وقالت إنّه على أيّة حال بعد ذهابي تقرّب من ماري. لم تقصد شراً لكنني الوحيدة بينهم التي لا أصطحب أحداً إلى جلساتنا وسهراتنا. فكّرت أنّها تؤدي لي خدمة. لم تكن المرّة الأخيرة. سواء الصبيان أو البنات كلّهم جربوا تعربفي على رفيق أو قريب لهم. صادفتهم مرّة قرب السوديكو وأنا برفقة وليم شاب في الاقتصاد، خرجت برفقته بضع مرات. تحمّسوا وداوموا على سؤالي عنه. أو التعليق على جمال عينيه وأناقته أو طرافته دون أن يتعرّفوا عليه حقّاً. بعدها أخفوا عني رؤيتهم له برفقة فتاة أخرى. لم أفهم مراعاتهم المبالغة لي ولا تردادهم لعبارات معيّنة. حتى رأيته بدوري. استغربوا أن أقترب منه بشكل عادي لأسأله عن أخباره، وأن يعرّفني بدوره على صاحبته. ظنّوا ربّما أنّه يخدعني ويخرج مع فتاة أخرى دون علمي.

ساعدت كلودا في حمل الهدايا. السيّارة مركونة بعيداً. كان العرق قد بلّل قميصي. ارتفع لهاث كلودا كأنّها مصابة بأزمة ربو. الشوارع حولنا مزدحمة. ضجّتها تزيد من صداع رأسي. قبّل بشارة ابنيه موصياً إياهما بالتحضّر جيداً لامتحانات آخر السنة. ناولهما ما يحمل دون أن يحاول الاقتراب منا. رفع يده وابتعد مسرعاً. أمّي أيضاً عادت سيراً إلى البيت. قالت إنها ستصل أسرع مما لو ركبت السيارة معنا. طبعاً لم تنس أن تقول لي إنّني أتركها وحدها ، لماذا لا أساعدها حتى يقف والدي على رجليه؟ كان وجهها متعباً. لأوّل مرّة أرى إهمالها لصبغ شعرها. جذور بيضاء بانت عند مفرق شعرها وفوديها. كأنّ الفكرة نفسها مرّت في بال كلودا. سألتها لماذا لا تصبغه عند الحلاق؟ تعرف مسبقاً أنّ أمّي لن تفعل. لا تصبغ شعرها بنفسها بل تقصّه أيضاً. كانت تقصّ شعرنا جميعاً بما في ذلك أبي. عندما كبرنا صرنا نذهب عند الحلاّق. لا نعترف أمامها بأنها أكثر مهارة منه. تجيد استخدام يديها يقول أبي. في البيت لوحات كانت ترسمها في أول زواجها، بيت وحقل حوله. زهرات بنفسج. أخرى لوجه يشبه ريتا في صغرها. اللوحة التي أفضلها هي رسم لخيال يبتعد، يبين صغيراً وسط شارع كأنّ البنايات الظاهرة فيه توشك على السقوط السماء معتمة. خلف غيومها الرصاصية ضوء أصفر شحيح. في صغري كانت تعلّمني الرسم والتلوين. لكنها يئست مني عندما وجدت أنني ألطّخ كل ما حولي دون أن أتمكّن من رسم شيء له شكل محدّد، مجرّد بقع ودوائر كانت تسحرني ألوانها. ريتا ورثت عن أمي هذه الموهبة. لا تزال أمي تحتفظ بالتطريزات وبالرسوم التي كانت لريتا على مدار السنوات. خجلت ريتا عندما عرضت أمي تلك الانجازات أمام بيير. قالت لها بالعربية إن هذه الأمور لا تهمّه ورجتها ألا تحضر ألبومات الصور القديمة.

وقفت كلودا ممسكة باب سيارتها المفتوح قالت: ما رأيك أن تسهري عندنا. تحمّس ايلي وروبير وانضمّا إليها في الإلحاح عليّ. كذبت زاعمة إنّ لديَّ محاضرة غداً في إحدى المدارس لم أحضّرها بعد . لم أكذب

تماماً لكنّ المحاضرة تلك موعدها بعد أسبوع. ليست محاضرة بل جلسة مع معلّمين في دورة تدريبية. لم أعطِ جواباً بعد. أخشى أن تكون مهمة صعبة. في الاذاعة لا أرى من يكلّمني ولا تكون ردّات فعلي مكشوفة لهم. حين اتصلوا بي تخيّلت مجموعة من الكبار الذين لن يعجبهم أن تعلّمهم واحدة في عمري طريقة التعاطي مع أولاد لديهم مشاكل سلوكية أو تعليمية. أعادني ذلك إلى أيّام المدرسة وإلى إمارات السخرية على وجه الأساتذة عندما لا يعجبهم ما نقول. كان بعضهم يختبئ خلف كلمة مناقشة ليفرض علينا في الأخير أفكاره. أفكار تتباين من واحد إلى آخر إلى حدّ التناقض. كنا نتسبّب عن عمد وتسلية باثارة الخلافات بينهم.

أصرّت كلودا أن توصلني غير مهتمّة بأن تعلق بعجقة سير. قالت إنّ ابنيها أنهيا معظم ما لديهما من فروض ودروس في عطلة آخر الأسبوع. نزلت من السيارة قبل الوصول إلى بناية سابين. وقفت على الرصيف وأشعلت سيجارة غير دارية حقاً هل أذهب عند سابين أو أعود أدراجي إلى البيت. نظرت إلى الرسالة التي وصلتني من راجي عسّاف. كتب أنه لا يرغب في العودة إلى أي مكان بعد زيارته لصديقه في المستشفى. حياتنا هشّة إلى حدّ يخيفه. فكّرت بغرابة أن يكتب واحد لفتاة تعجبه هكذا كلام. كأنّه قرأ أفكاري. بعث باعتذار متمنّياً لي أحلاماً تشبهني. أضحكني أن يظنني ذاهبة للنوم الآن. مثل هكذا كلام يجعلني أتيقّن من أنه ليس في أوّل شبابه، هو والد كريم. ربما عليّ أن أكف عن تسميته هكذا. اسمه جبران متّى وزوجته تدعى مي.

كانت سابين مشغولة بوضع ماكياج على وجهها حين وصلت. حثّتني على الاسراع لأن رفيقاتنا سبقننا. سألتني ما قصتي مع الواتس آب؟ لماذا لا أردّ؟

نظفت وجهي من آثار ماكياج النهار ببطء أغضب سابين. وقفت قربي وراحت تقول إنّ الكحل جيّد رغم تعرّج الخطّ فوق جفني. حبّات العرق

التمعت فوق جبيني وفكّرت إن وضع الفون دو تان سيزيد من إحساسي بالحرّ. اكتفيت بأحمر شفاه، بينما ننزل في المصعد مسحت الكحل فتلطّخت كأنني لُكمت على عيني. قالت سابين إنّ بامكاني اصلاح ماكياجي في السيّارة. الحرارة في السيّارة كانت أقوى مما هي في الخارج. ابتلّت ثيابي في لحظة، والتصقت بجسمي. التبريد تعطّل، عندما تذهب إلى الشمال ستأخذها عند الميكانيكي، قالت. رنين هاتفي استمرّ دون أن أهتمّ. حينها ضحكت سابين وقالت «هكذا إذاً تفعلين؟ لماذا تحملينه في الأصل؟» لم أردّ. نبّهتها إلى السيارة التي كادت تصدمها من خلف. كنت ضجرة لا أريد أن أكمل المشوار. لا أريد شيئاً سوى الاستلقاء في السرير وقراءة كتاب ما. أستطيع أن أبقى هكذا لأيّام. كنت أفعل ذلك في العطل المدرسية. أستيقظ أبكر مما اعتدت أيّام المدرسة. أفتح الستارة. يدخل ضوء الصباح وتبين من زجاج الشباك رؤوس البنايات والشرفات. أتأمّل العاملات يشطفن ويمسحن الدرابزين ناظرات إلى الشارع تحتهن. أقرأ ولا أنهض عندما تناديني أمي للفطور أو الغداء. بماذا كنت أحلم وأنا صغيرة؟ كانت أحلامي تتبدّل مع ما أشاهده أو أقرأه. كنت أطالب بأن يأتي ويني ذو بو ليعيش معنا هو وبيغليت، هذا لا أذكره لكن أمّي تكرّر القصّة كلّما أتت على سيرة طفولتي. تقول إنّها لا تزال تحتفظ بدمية ويني. عندما أشترتها لي ظنّت أنني سأفرح. لكنّني بكيت وسألتها لماذا لا يردّ ولا يمشي؟ لاحقاً حلمت بمساعدة من أحبّهم في الكتب، أتخيّل قوى سحرية لأبدّل أقدارهم التي كانت تبكيني. أبكي حين يحزنني كتاب أكثر مما أبكي في الحياة. الطريق تطول والزحمة أشدّ مما تكون عليه خلال النهار. كنت دون أن أدري ألوم سابين، تارة أتساءل من الذكي الذي اختار هذا المطعم البعيد، وتارة أعترض على الزواريب التي تدخلنا فيها. أنبّهها وأنتقد قيادتها. عندما وصلنا أخيراً بدونا متخاصمتين. بالكاد نظرت نحوي خلال الطعام. قالت كريستيل إنهن شربن كأسَيْ جين تونيك ومتن من الجوع قبل أن تتشرف حضرة الأميرتين بالقدوم. انشراحهن انتقل

إلى سابين بعد قليل. خرجت إلى الباحة الخلفية مرّات بحجّة التدخين. الشرب لم يدفعني إلى الاسترخاء. أعاد إليّ صداع النهار. المطعم وضع كراسي خشب على الشرفة المكشوفة ومنافض. شجيرات صغيرة توزّعت في الزوايا تشبه السرو أو الأرز. بعضهم كان ينفض رماد سيجارته عند جذعها متجاهلاً المنافض. انعدام التبريد خارجاً كان يجعلهم يختصرون. بدل رؤية أعقاب، امتلأت الأرض والمنافض بأنصاف سجائر. وحدي كنت أقف في زاوية يتجنّبها الجميع لأنّها مطلّة على مستوعبي نفايات كبيرين. لم أدر لماذا يعود رأسي ليفكّر بتلك الرسالة من شخص لست متأكدة من يكون، ولماذا أحزن على صديق له. تخيّلت صورة رجل في سرير. الآلات موصولة إلى جسم نحيل أصفر كقشرة الحامض. العينان مغمضتان. ثمة من يصرخ في أذنه كأنه لا يسمع، يريد أن يقول إنه لم يبارح بعد. لكنّ لسانه لا يستجيب له ولا جفنيه المطبقين.

بعد العشاء لم أكن الوحيدة التي لم ترد إكمال السهرة. النعاس أذبل الوجوه. وحدهما عليا وكريستيل لم تريدا افساد الخطّة في الذهاب إلى الملهى.

* * *

انقطعت الرسائل، وصارت أم كريم هي التي تقوم بتوصيله وباصطحابه لاحقاً. حاولت أن أعلم إن تبدّل شيء في سلوكها. لم ألاحظ إلا التعب. لا يدلّ ذلك على شيء. كريم كعادته عصي على أن يُستدرج. قلت له مرّة «حين يعود والدك من السفر ...» أجاب فقط إن والده ليس مسافراً. مرّة أخرى بدأت جملتي «الآن عندما يصطحبك والدك...» أجاب إنّ أمّه آتية لاصطحابه. لم أدر كيف أكمل جملتي. هو أيضاً لم يهتمّ بمعرفة ما أردت قوله. رغم أنّه مطيع ويقوم بكلّ التمارين دون أن يتأفّف لكنّ لحظة أغفل عنه، أجده قد أخرج هاتفه واستغرق في لعبة مطاردة دمويّة. لا أدري كيف يسمحون للأولاد بهكذا ألعاب.

المواعيد قلّت لا بسبب امتحانات آخر السنة بل لأنّ كثيرين يفقدون الدافع. كأنّ المشاكل تختفي ما إن تغلق المدرسة أبوابها. في كلّ مرّة يكون موعد كريم أتخيّل أنّه هو الآخر لن يحضر. كما فكّرت أنّ الاذاعة بدورها ستستغني عنّي في الصيف. لذا حين استدعاني مدير البرامج حضّرت نفسي لأن يسمعني كلمات شكر قبل أن يصرفني. لكنّه فاجأني باقتراحات ما كنت أتوقّعها. قال إنّ الحلقات في الصيف ستكون للكلام عن المشاكل الزوجية، نتائج الطلاق، دور مستشار الزواج في حلّ النزاعات بين أفراد الأسرة. سألته كيف تتعلّق هذه المواضيع بي. استغرب وقال إنّني أنا من سيقدّم النصائح، وإن طلب أحدهم موعداً للاستشارة سيتمّ الأمر كما في السابق. ذكرته أنّ هذا الحقل ليس اختصاصي. أجاب أن لا فرق وإنّ لديّ ثقافة وفي الأخير كل هذه الأمور طق حنك، لكنّ الناس يصدّقونها. كأنّني لم أسمعه أعدت تذكيره بأنّ هذا اختصاص آخر. «أتظننين أنّ طبيب التجميل درس الطبّ أو المحلّلة النفسية تفهم أكثر منك؟ والصيدلي درس الصيدلة ؟»، بدّل لهجته الساخرة ليمدح قدرتي على الردّ دون ارتباك وليزعم أنّ ثقافتي واسعة. القليل من التحضير قبل كلّ حلقة سيكفي لأتحدّث بكلّ ثقة عن أيّ موضوع. أمّا الاستشارات فلا نفع منها. لكن بما أن الناس يظنّون العكس فما المانع من أن أستفيد أنا وتستفيد الاذاعة. قلت إنّ هذا خداع. ردّ إنّني لست صغيرة وأفهم أنّ النصائح والطرق التي يعتمدها المستشار موجودة في الكتب وعلى الأنترنت. إن فكّرت جيداً بالموضوع سأجد أنني ربّما قد أفيدهم أكثر من طبيب يسرق منهم مالهم. أضاف إنّ الأولاد يدفعون الثمن في كلّ نزاع. أليس هذا اختصاصي. فهمت أنّ الجدال لن يفضي إلى شيء معه. عندما صافحته قال أن افكّر في الموضوع وأردّ عليه بعد يومين. كلام أراد منه أن يفهمني أنّه في حال رفضت هناك ألف واحد يتمنّى الحلول مكاني. لم يكن ذلك غائباً عن بالي. هكذا انتقلت في الساعات القادمة من فكرة الرفض القاطع إلى ايجاد تبريرات لقبولي، وبطريقة ما دخلت ذرائعه إلى

عمق عقلي. وجدتني أقرأ بحماس عن الموضوعات، اضافة للأنترنت، طلبت من كريستيل أن تستعير على اسمها كتباً من اليسوعية. ليلة وصلتني رسالة أخيراً قرّرت أن أردّ عليها لأوّل مرّة. كتب أن أياماً لا يراني فيها ولا يكلّمني خلالها ليست محسوبة من عمره. لولا وجودي لما استطاع أن يتجاوز ما مرّ به. لا يعلم إن كان النسيان ممكناً. ماذا يفعل لو استمرّ ألمه على ما هو عليه. سألته: من أنت؟ أجاب إنّ اسمه غير مهمّ ولا عمره. كلّ الأسماء والأعمار لا تبدّل من حقيقة ما يحسّ به. عدت إلى الصمت مكتفية بقراءة الرسائل. أحياناً كنت أسمع رنينها وأنا غارقة في النوم. في اليوم التالي كنت أجد رسائله النصيّة مرسلة على مدار الليل. فكّرت أنّه لا ينام وأنّ صديقه مات، وإلّا ما معنى حديثه عن الألم والنسيان؟

عندما ذهبت للقاء الأساتذة علقت في عجقة فردان، وجدت لحظة وصولي وجوهاً صارمة تنظر نحوي. كأنّهم ما كانوا يتوقّعون أحداً في مثل سنّي. قدّمتني المديرة مشدّدة على البرنامج الاذاعي الذي أشارك فيه. لم أدر إن كان نكاية بي أم بها، هزّوا رؤوسهم في إشارة إلى عدم سماعهم لا عني ولا عن البرنامج. حاولت ألّا أتأثّر بالسخرية المرتسمة على بعض الوجوه. نظرت إلى من بدا متعباً من الحرّ ومن دورة تدريبيّة حكم عليها مسبقاً بالفشل. كنت دون أن أعي أستعيد تعليقات أمّي على مثل هذه الدورات. صوت المروحة في القاعة أذبل بعض العيون، رأيت بعضهم يغطّ في النوم أثناء تفصيلي لما يعتبر اضطراباً سلوكياً. استيقظوا لحظة بدأت أعدّد ما ينتظر منهم في تعاملهم مع كل حالة على حدة. هنا بدأوا يتكلّمون في آن واحد. ليس من اختصاصهم رعاية أولاد كهؤلاء خاصة أن ليس هناك أخصائي في المدرسة. تكلّموا عن البرنامج الذي يفترض بهم انهاؤه، عن عدد الطلاب الكبير في الصف. طبعاً لم ينسوا أن يسألوني بطريقة لئيمة كيف يفترض بهم أن يقيّموا امتحانات هؤلاء الأولاد غير الطبيعيين. صحّحت لهم بأنّهم طبيعيون أكثر منّا وأنّ العديد من النوابغ عانوا من بعض هذه العوائق. ردّوا بحجة لاسكاتي، كيف

يبرّرون ازدواجية المعايير في التصحيح. أكيد هناك أولاد سيسألون عن سبب تدنّي علامتهم في الاملاء مثلاً أكثر من آخر لديه أخطاء أكثر. بدوت كأنني عدوّة لهم. هذا ردّ فعل متوقّع. من أنا بالنسبة إليهم لأفرض عليهم مهمّة أضافية. ألا يكفيهم الساعات المضنية في التحضير والتصحيح وتحملّ تلاميذ يزدادون تشتّتاً سنة بعد أخرى؟ وجوههم كانت تفصح بما لم تقله ألسنتهم. تدخّلت المديرة لتذكّرهم أنّ الهدف ليس فرض أشياء عليهم، بل مساعدة الأهل على اكتشاف مشكلة أبنائهم، ونصحهم بالتوجّه إلى مختصّ. جملة سحرية أعادت الدبابير إلى وكرهم. أحسست خلال ذلك أنّ وجهي احتقن. أخفيت غيظي ولعنت صديقتي التي ورّطتني بهذه المهمة بحجّة أن المديرة خالتها. لن أستفيد لا بمال ولا بشيء. هذا ما حصّلته، سخرية وكراهية مجانية من أساتذة ناقمين. حين دعتني المديرة لأنضمّ إليهم في الاستراحة للشرب والأكل، شكرتها وخرجت بأقصى سرعتي. تكلّمت مع نفسي بصوت عال جعل من يلتقيني يلتفت نحوي. لماذا يستغربون وكلّ الناس يحكون ماشين عبر هواتفهم؟

اخترت أوّل مقهى أصادفه لأجلس فيه. رغم سكن الكثير ممن أعرفهم في هذه الناحية قلّما أقبل أن نختار مكاناً في فردان. لا أحبّها وأفضّل عليها الحمرا. كان وقت غداء ومعظم الطاولات محجوزة أو مشغولة. اخترت طاولة على الشرفة غير المبرَّدة. أزيز المروحة أعاد إلى رأسي الأساتذة والمحاضرة. عندما طلبت بيرة قال أن ليس لديهم إلا المستوردة. ما يعني أن كوب بيرة سيكلّفني ثروة وفوق ذلك في مكان لا أحبّه. أخرجت الرواية من حقيبتي. أردت أن يذهب عقلي إلى مكان آخر. جملة بعد أخرى صرت في بيت صغير تغطي الثلوج دروبه. قشعريرة برد لم أدر أبتأثير من ثلوج الكتاب أم برودة البيرة. الهاتف يرتجّ في حقيبتي مرّات قبل أن أتفقّده. حزرت أنّها كلودا. منذ ذهب ايلي وروبير إلى الجبل، زادت وتيرة اتصالاتها. عندما أرفض دعوتها أحسّ بالذنب. خاصة أنها لا تلحّ. أوافق على اقتراحاتها رغم غرابتها. عندما سهرت عندها خطر

لها ما إن تهيّات للنوم بأن نمشي باتجاه البلد . تحجّجت بالحرّ، قالت إنّ هناك نسمات عليلة في هذا الوقت. كذبت مدّعية إنّ سير فتاتين بعد منتصف الليل قد لا يكون آمناً. خفضت رأسها ولم تضف أيّ شيء. عندما استيقظت صباحاً وجدتها على الشرفة حيث تركتها لأنام. كانت لا تزال في الثياب نفسها. سألتها ألم تنم. قالت بلى لكنّها نهضت قبلي. لم أصدّقها. المنفضة أمامها مليئة بأعقاب السجائر.

تمنّيت لو أعود إلى الوراء وأنظر إلى أختي كما فعلت طوال السنين. لا أريد تلك القيود التي تربط الواحد بالناس. لأسباب لا أفهمها عجزت عن تجاهل قلقي عليها. كأنّها صارت أصغر مني. أدفعها للأكل وللنوم. أمي لم تكن عوناً لها. العتاب هو ما تجيده. لماذا لا تأتي بولديها لزيارتنا، لماذا لم تعاود الاتصال بها. لماذا لم تحك معهما للاطمئنان على والدها. أكثر ما ساءها حين غفلت كلودا عن عيد مولدها. تظاهرت أمي بعدم الاكتراث. لكنّ خيبتها بانت من مرارة كلماتها. كانت تكرّر إنّ قدر الأمهات أن يضحين. الأولاد جاحدون. كانت توجّه الكلام إلى كلودا عبري. رغم أن ريتا تعيش بعيدة لكنّ هناك مناسبات لا تهملها، كعيد مولد والديّ وعيد الأم والميلاد والفصح. لكنّ لا أحد يحتفل كما كانت كلودا تفعل. في كلّ مناسبة تختار قطعة مجوهرات لتهديها إلى أمي أو هاتفاً جديداً أو أشياء تسمع أمي أو أبكي يحكي عنها. عندما زاد تأفّفها من الغسّالة القديمة أهدتها غسالة. عندما اشتكى أبي من دواليب سيارته. اشترت له بدلاً منها بثمانمئة دولار. كرمها كان يدفعني على عكسها، لا إلى تفادي العودة إلى البيت بل أيضاً إلى عدم التعليق، حين تبدأ أمي باستعراض الهدايا أمامي أو أمام زائريها. لا أنبس بكلمة، أشيح بنظري كأنني لا أرى ولا أسمع. في عيد مولدي تشتري لي هدية كما كلودا أيضاً. اتركها أياماً دون أن اقترب منها. لا أفعل إلا حين تبدأ أمي بالبكاء قائلة إنها لا تسمع مني لا شكراً ولا أي كلمة لطيفة. منعاً من سماع النغمة نفسها. أفتح الهدايا متمتمة الشكر دون أن أنجح بالتظاهر بالحماس. حتى أنا لا

أفهم لماذا أنزعج هكذا. الهدايا تكون أشياء نافعة أو أحتاجها حقّاً لكنّني أبقيها في علبها أو غلافها الممزق مرمية فوق المكتب أو الخزانة. إلى أن تعود أمي لتوبّخني لأنني لا ألبس مثلاً البلوزة الحرير التي كلّفتها ثروة، أو لأنني لا أزال أحملِ الحقيبة القديمة المهترئة بدلاً من تلك المصنوعة من جلد. تسألني في كلّ مرّة أتعلمين كم كلّفت كلودا؟ أردّ عليها أحياناً «إن كانت تعجبك إلى هذا الحدّ خذيها.»

أحاول أن أشرك كلودا بأشياء تتعلّق بي. أخبرتها عما اقترحوه عليّ في الاذاعة. استمعت إليّ دون تعليق. سألتها عن رأيها. أجابت ألّا آخذ الموضوع بهذه الجدّية. إنّ مدير البرامج محقّ. في الأخير لا يفيد لا الطبيب ولا المستشار. كلام بكلام. لا يؤخّر ولا يقدّم. قالت إنّ الواحد يقضي عمره يحارب من أجل أشياء يتوهّم أنّها مهمة. نصحتني بأن أفعل ما يريحني. تجرّأت حينها لأسألها إن كانت هي تفعل ما يريحها. قالت لا تعرف حقّاً ما يريحها. تفعل الأشياء بفعل العادة والتكرار.

غياب ابنيها عن البيت لم يكن فكرة سديدة. هناك أيّام لا تذهب فيها إلى الصيدلية. أعرف الأمر من أبي الذي يتّصل يومياً برقم الصيدلية ليسأل عن كلودا. غالباً ما تخبره الموظّفة إنّها لم تحضر منذ الصباح. كان أبي على خلاف أمّي قلقاً على كلودا. لكنّه تعلّم ألّا يزيد الضغط عليها. يسألها عن العمل كأنّه لا يعلم أنها تغيب عنه. لأوّل مرة أنتبه إلى إخفائه هذه الأمور عن أمّي. يخفض صوته حين يحكي معي عنها أويتوقّف عن الكلام ما إن تقترب أمي. إن استفسرت أمّي عن موضوع حكينا، يلفّق شيئاً يتعلّق بالسياسة. تعجب أمي لاكتراثي به. خاصّة وأنني حتى خلال تصاعد وتيرة التفجيرات، لا أشاركهم لا سماع النشرات ولا الحديث عنها. أتصرّف كأن لا شيء تبدّل. اخرج وأعود ساعة يحلو لي. تصدّق مزاعمه لأنها اعتادت أن يتشاركا كلّ شيء. كانت الأمور التي ألحظها عبئاً عليّ لم أستطع تقاسمها مع أبي. عندما أنصح كلودا بأن تخرج قليلاً

مع رفيقات لها. تسأل أيّ رفيقات؟ وحين أذكر أسماء بعضهن. تقول إنّها وحدها افضل حالاً. هم في عالم وأنا في آخر تردّ.

* * *

اشترت سابين كارا أوكي ودعت العشرات للاحتفال بذلك. قالت إنّ الأغاني أكثر روعة من تلك التي نجدها في الأماكن التي نقصدها. كنّا أحياناً نعتمد على الأنترنت لكنّ الصوت لا يكون جيداً ولا عالياً كفاية. كانت متحمسّة لدرجة لم تنتبه أنّ شقتها الصغيرة لا تتّسع لنا كما أنّ جيرانها لن يسكتوا هذه المرّة. أعلم جيداً صخب هذه الحفلات. التسابق على من يؤدّي أفضل أغنية دون أن ينشّز كما نفعل. لم أدر لماذا أهتمّ ليست شقتي وليسوا جيراني. بدأ كلّ شيء بهدوء. أحاديث عابرة وضحك على نكات، وتبادل أخبار الغائبين من رفاقنا. لم يكن هناك طعام بل جزر وبزورات وشيبس وترمس. ترتّب على كل واحد خمسة عشرة دولاراً. ساعدت سابين في إعداد المشروبات. هذا بداية، بعدها كلّ واحد أعدّ مشروبه بنفسه. لم تبدأ جولة الغناء إلّا بعد أن شربنا عدة كؤوس. جلسنا أرضاً. الأصوات خشنة لكنّنا كنّا نغنّي معهم غير مبالين بجمال الصوت أو بشاعته. هناك من ينهض ليرقص فوق الكنبة أو الطاولة أو حتى على الشرفة. الحرارة في الداخل ما كانت تلطّفها مروحة السقف. كثيرون خلعوا قمصانهم. كريستيل خلعت بنطلونها وبقيت في التي شيرت. سابين بدّلت ثيابها هي الأخرى لترتدي قميصاً فضفاضاً بلا أكمام. كانت ثيابنا مبلّلة تماماً وملتصقة بأبداننا. رغم ذلك حين يأخذنا الغناء نعانق من يجلس قربنا، ونتمايل على وقع الألحان. احياناً كان بعضهم ينطلق بحديث شخصي إلى أي جالس قربه. تنزل الدموع وتكثر العناقات. أمضيت جزءاً من السهرة على الشرفة الصغيرة. كنت أراهم في الداخل كأنّني أشاهد واحداً من برامج الواقع. أرى الأيدي تتناقل السجائر الملغومة. عليا تشرب كأسها بسرعة البرق. رأسها كان يرتمي جانباً كأن كتفيها يعجزان عن حمله. تربّع سلطان قربها. وضع يده فوق ساقها. بعد

قليل اتكأ برأسه فوق كتفها. همس لها بشيء أضحكها. أخرجت من جيب حقيبتها حبّة . ابتلعتها، أعطت سلطان واحدة. غصّ بها شرب جرعة كبيرة من كأسه بعدها. سهى خلعت بلوزتها وهي تغنّي، ثم لوّحت بها قبل أن ترميها على المتربّعين أرضاً. الجميع يحاول أن يحاكي المغنين أثناء اداء أغنية. حرّ ودخان واحساس بالوحدة أبقاني هناك إلى حين خرج رمزي. أحاطني بذراعه وسألني بلسان ثقيل لماذا لا أشاركه غناء واحدة من أغاني «وان دايركشن؟» أجبت إنني لا احبّ أغاني الفرقة. نظر إليّ كأنني قلت شتيمة. ثم لفّ ذراعه حولي متكئاً مثلي إلى الدرابزين. تملّصت منه فشدّني من يدي بقوّة ومال برأسه إلى رقبتي. دفعته بكوعي، اختلّ توازنه وكاد يقع. مسحت بقرف لعابه الذي لطّخ عنقي. فكّرت بوقاحته يتقرّب مني وصديقته في الداخل. قال لماذا أنا معقّدة؟ كم أكره هذه الكلمة التي تُكرَّر على الطالع والنازل. أجبته إنّني سأكسر يده إن مدّها. تظاهر بالخوف واصفاً إياي بالغولة. دخلت لأتربّع أرضاً قرب كريستيل. كانت واضعة رأسها فوق كتف أحمد. لم أستغرب عندما رأيت دموعها. الكلّ يصبح عاطفياً في جلسات كهذه. سألتني متى أتيت. لا تذكر حتى أننا تبادلنا الكلام أوّل وصولنا. رسالة من جبران. خبّأت شاشة هاتفي لأقرأها. قال إنّه الآن يحسّ بوجودي كأنني قربه. تحرقه أصابعه كأنني لمسته. أو كأنني على مسافة شبر منه، يمتلئ صدره برائحتي. الليل صامت حوله. يحبّ أن يتخيّل أنه الليل نفسه الذي يغمرنا كلانا.

لماذا لا يريد أن يفصح عن اسمه. وما فائدة أن يكتب لي ويكتفي بذلك. أي حبّ هذا وأي اعجاب؟ إنّه تعذيب للنفس ليس أكثر. كنت غاضبة والحرّ لا يطاق حولي. قمت لأغسل وجهي ولأقرأ الرسالة ثانية بهدوء. كان الحمام مشغولاً ومن الغرفة الثانية تصاعدت أصوات أنين. باب الغرفة مشرع وجسدان عاريان راكعان على أرض الغرفة. ابعدت نظري كي لا يظنا أنني أتلصّص عليهما. لماذا لا يغلقان الباب على الأقل. من الحمام خرج رمزي. التصقت بالجدار في الممر الضيّق كأنني رأيت

شبحاً. قرّب وجهه من وجهي. رائحة بشعة هي خليط من أبخرة معدته ومن الكحول. هياجه والغبش المتجمع عند طرف عينيه قلب معدتي. التصقت بالجدار خشية أن يلمسني. قال ما رأيك أن نفعل مثلهما؟ أجبته «ما رأيك أن أكسر أسنانك؟» أجاب ضاحكاً إنه يحبّ الفتاة القوية النوم معها غير شكل. لم أحبّه يوماً. لم يرق لي لا هو ولا مسرحيته التي دعانا إلى حضورها. حاولت أن أتذكّر من عرّفنا إليه. لم أذكر. أرسل لي قبلة في الهواء وعاد مترنّحاً إلى غرفة الجلوس. كنت أسمّيه بزاقة لأنه يتكلّم دائماً كالسكران. يلزمه وقت لينهي جملته. كنت أتساءل دائماً كيف له أن ينجح في المسرح وهو لا يستطيع سرد خبر دون أن نموت من الضجر.

الرسالة التالية التي وصلتني من كلودا أقلقتني وما عدت قادرة على البقاء في السهرة. كتبت أنّها الآن قبالة البحر. صوته جميل والقمر شبه بدر فوقه. تفكّر بغرابة الحياة. عاشت طوال حياتها قريبة من المكان ولم تره ولم يجذبها. أرأيت كم أضعت أشياء؟ عبارة ختمت بها رسالتها. كانت الساعة قاربت الثانية بعد منتصف الليل. عندما رأيت أحمد ينهض شادّاً كريستيل من يدها. فكّرت أنّه سيرحل وسوف يوصلني إلى الكورنيش. منذ الحادث قلّ كلامي معه،علاقتنا لم تعد كالسابق أبداً. لا أدري أكان هكذا هو دائماً أم أنا بتّ أبحث عن التغيّر فيه لأبرّر البرودة بيننا. لم أطلب من أحمد سألت كريستيل إن كان لديهما مانع من ايصالي. استفسرت عمّا أفعل هناك في هذا الوقت، ثم رفعت عينيها المثقلتين بماسكارا سميكة وهمست في أذني «موعد ليلي يا محتالة؟ ألن تعرّفينا عليه؟» لم أردّ. ستكون مفاجأة لهما حين يكتشفان أنّ موعدي الغرامي مع أختي.

في البداية لم أرها ولم أدر كيف أصل إليها. لم تردّ على سؤالي أين هي بالضبط. كل بضع خطوات يسألني أحمد هنا ستنزلين؟ إلى أن رأيتها واقفة إلى الدرابزين، بعيداً عن مصباح الشارع. عرفتها من وقفتها. في لحظة انتبهت لشبّان جالسين على مقعد خلفها تماماً. ارتجف قلبي كأنّها فتاة صغيرة منسيّة لا تعي الأخطار حولها. سمعت تعليقات أحدهم

وأنا سائرة باتجاهها، قال «إلى أين يا حلو؟ باسم الله على هالطول».
تحرشات غير مؤذية، ربّما لذلك لم تخف. كما أن المقهى على الرصيف المقابل مليء بالزبائن الضاجين. لم تنتبه إليّ رغم أنّ صندلي كان يحدث صوتاً فوق الرصيف. كرّرت اسمها مرتين ولمست ذراعها حتى انتبهت إلى وجودي. ابتسمت لي. أخبرتني كأنها تكمل حديثاً أو كأنني أعرف ما يجول في رأسها. حكت عن رفيقة لها اسمها سنا. على امتداد ثلاث سنوات كانت تقضي معها الصيف في السمرلند. لا تفترقان لا في المدرسة ولا في العطل، لكن في معظم الأحيان كانت كلودا من تبقى عند سنا. لأن أمّها ستّ بيت. سكتت. قلت أنني لم أسمع باسمها سابقاً، ألا زالت على اتصال بها. اكتفت بلا. قالت إنّ البحر ذكّرها بها. بعد قليل قالت إن السيارة التي تقلّ سنا صباحاً إلى المدرسة نزلت عليها قذيفة من قذائف عون. كانت على طريق المزرعة. قتلتها هي والسائق وجُرح أخوها جرحاً طفيفاً كأنه لم يكن معهما. أضافت إنّ الأمر حصل قبل ولادتي. كانت تبكي بصمت وتحاول اخفاء الأمر عني. أشاحت بوجهها بعيداً ودلّتني على السفينة. كنّا نستطيع أن نرى الأشخاص يتحرّكون على متنها كالأخيلة. قلت إنّ الأفضل أن نمشي الآن وأنني أفكر بالنوم عندها.

المدينة لا تنام . كعادتها صاخبة حتى في ساعات متأخّرة من الليل. صحيح أنّ عدد السيارات يقلّ مقارنة بالنهار، لكنّ السير لا ينقطع. صوت رنين رسالة. حدست أنها من جبران. يبدو أنّ النوم جافى الجميع الليلة. أختي مريضة ولا أدري ماذا أفعل. كنت غارقة في أفكاري أتخيّل حديثاً بيننا لأقنعها باستشارة طبيب. ليس عليّ أن أراوغ كما أفعل. عليّ مصارحتها اليوم حتى لو اضطررت إلى الذهاب إلى الاذاعة دون نوم. ما الذي يعيد إليها هذه الذكريات البعيدة. ما الذي يحدث برأسها لتبكيها أحداث قديمة؟ استرجعت في رأسي أسماء أطبّاء سمعت بأسمائهم. كيف أنصحها بأحدهم وأنا أجهل كلّ شيء عنه. ربّما سابين هي الأنفع. عملها في المستشفى يسمح لها بأن تكون على اطلاع أكثر مني. سأقول

إنّ ذلك من أجل ولد أتابعه. كان رأسي يؤلمني لا بسبب المشروب بل لأنني لم أنم ليلة كاملة منذ وقت طويل. ساعات قليلة من نوم متقطّع تدفعني إلى ابتلاع حبات من الادفيل على مدار يومي. في حديقة صغيرة تابعة لأحد المصارف، نيام متكوّمون على أنفسهم بلا غطاء وبلا فراش أو مخدّة. مشهد مألوف منذ زاد عدد النازحين السوريين. كنا قريبتين من بيت أهلي حين دلّتني على البار. قالت لماذا لا ندخل. لم أرد أبداً. تخيّلت عدداً من العجائز متوزّعين في أرجائه يستمعون للجاز. لم نكن نقصده أبداً. كنّا نسخر ونسمّيه مأوى العجزة الذين يرفضون أن يكبروا. أهل عدد من رفاقي يقصدونه. لا ينقص إلّا أن أسهر معهم. صحيح أنني أداري كلودا لكن ليس إلى حدّ قبول كلّ ما تقترحه. عندما رفضت، استمرّت تحثّني على أن نشرب كأساً كلّما مررنا بمقهى أو بار أو ملهى. لم أرتح من دعواتها التي أرفضها كلها إلا حين خرجنا من الحمرا. الشوارع خلت تماماً. شيء من الرهبة شعرت به وأنا أسمع وقع أقدامنا. داومت على الالتفات خلفي كأنّ أحداً يلحق بنا. لم يكن وجود كلودا معي ليقويني. كأنّها طيف لا امرأة ناضجة.

* * *

المرّة الأولى التي تكلّمت فيها عن أهميّة الصراحة بين الزوجين كانت الأصعب. رغم التحضير كنت غير واثقة من نفسي. في أعماقي كنت خجلة مما أقوله أو أقترحه. الاتصالات الكثيرة ساعدتني على تجاوز حرجي. عدد المتصلين فاق بكثير من كانوا يسألون عن أولادهم. كالعادة هناك ما له علاقة بالموضوع وهناك من يتصل ليسمع صوته. ما استغربته هو أن بعضهم كان يذكر اسمه كاملاً ثم يحكي عن شريكه دون أي حرج. هناك امرأة اشتكت أن زوجها يفضّل أن يخبر أمه كلّ شيء. قلت إنّه ربّما يخشى أن يقلقها. سخرت من جوابي وقالت إنّه يسأل أمه رأيها في أمور تخصّ حياتهما المشتركة تخجل أن تذكرها على الهواء. حتى الجهود التي تبذلها في البيت تفشل. دائماً على لسانه «أمي تطبخها

بطريقة أفضل، أمي تفعل كذا أو تقول كذا». تعليقات المخرجة المضحكة خففت من توتري. جيد أنني وحدي من يسمعها. لزمني وقت لأتعوّد على سماعها في أذني تطلق مزحاتها. أجفل كأنّ المستمعين سيسمعونها معي. رجل واحد أزعجني. اتصل ليقول إنّ زوجته لا تحسّ لا بتعبه ولا تقدّر كدّه. لا نهاية لطلباتها. هو لا يوافقني بموضوع الصراحة. يجب أن تعفيه زوجته حين يعود منهكاً من النقّ والشكوى. سألته إن كانت تعمل أجاب إنّ عملها الوحيد هو اقلاق راحته وضحك من جملته. عندما لم أشاركه الضحك. سألني عما تفعله النساء غير ذلك. قلت له إنّ المرأة سواء في البيت أو خارجه تعاني من الضغوط نفسها. سخر قائلاً «أيّ ضغوط؟ الذهاب إلى الحلّاق؟ أو شراء الفساتين وافلاس الأزواج؟ شكرت المخرجة بحركة من يدي لأنّها قطعت الاتصال. تفعل ذلك عندما ترتفع النبرة. التعامل مع الصغار شيء ومع أمثال هؤلاء الأزواج شيء آخر. عاد موضوع تقديم استشارات للأزواج يفسد عليّ وقتي. إذا كنت لا أطيق سماع بعضهم لثوان فكيف أحتمله لساعات. أيّ ورطة أنا فيها. ما أراحني أنّ أحداً بعد لم يتّصل تحت الهواء ليأخذ موعداً. لحسن حظي أن الأمر ليس سهلاً. هناك موضوع اقناع الزوج أو الزوجة بالذهاب إلى مستشار. لكن في المقابل سيقلّ دخلي. أولاد قلائل لا أزال أتابعهم. كثيراً ما أغفو بعد الظهر وأنا جالسة في المكتب. يوقظني جرس الباب. أبقيه مغلقاً بالمفتاح. لا أحبّ أن يدخل أحد ليجدني مستغرقة هكذا في نومتي.

عندما جاء جبران متّى بقي واقفاً كالمرات السابقة . كلّمني محدّقاً بلوحة معلقة خلفي. قبل أن يسألني عنها لم أنتبه لها. قال إنها جميلة هل أنا من اختارها؟ قلت أنني وجدتها مع كل ما في المكتب. اقترب منها وقرأ اسم الرسام بصعوبة. النسخة قديمة وألوانها خبّت. وجود كريم جالساً على الكرسي أربكنا كلينا كأنه على علم بما يدور في رأسينا. بينما يصافحني سألني متى أكون متفرّغة ليناقش معي بعض المسائل. أردف إنّهم سيقضون عشرين يوماً في الجبل ويريد أن يعرف كيف يساعد كريم

خلال انقطاعه عن التمارين. قلت بعد ساعتين أجاب إنّه مشغول، هل يزعجني أن اقابله صباح غدّ عند الثامنة؟ وافقت على الفور. حين غادر وقفت أتأمّل اللوحة. لم أعلم ما الذي أعجبه في أشكالها الهندسية. انزعجت من تصرّفاتي. لم أرد أن يلحظ أيّ شيء. لكنني أرتبك كمراهقة بلهاء. وصفت نفسي بكل النعوت السيّئة علّني أصرف نفسي عن التفكير بالغدّ. لم ينفع.

رسالة من كلودا تخبرني فيها إنّ روبير وقع عن دراجته في الجبل وكسر رجله. هم في المستشفى لأنّه يحتاج إلى عملية. في ساقه أكثر من ثلاثة كسور. تذكّرت محادثتنا عن الأطبّاء. وكيف قطعت عليّ الطريق بجزمها بأنها ليست مريضة، وليس هناك أدوية تبدّل ما يحدث في رأسها. عندما أصررت عليها، أجابت إنّها ستحكي مع طبيبة عائلية تعرفها من أيام الجامعة. لكن بماذا تخبرها؟ ألا يحقّ للواحد بمراجعة حياته واستنتاج تفاهتها؟ اتصلت لأسأل أمي لا كلودا عن روبير. كرّرت ما كتبته كلودا. استغربت أنني لا أزال في المكتب ولم ألاقهم بعد. سألتها إن كانت تتوقّع منّي أن أطير مثلاً؟ أجابت إنّ أقلّ ما أفعله هو أن أساند أختي. لا أدري كيف تعلّم وهي لا تتمتع بذرة منطق. لن أتزحزح من مكاني إلا بعد انتهاء المواعيد. تركتها تظنّ أنني سأوافيهم بأسرع وقت.

فكّرت أن حاجة روبير لأمّه قد تفيدها وتلهيها عن نفسها. ليست الكسور شيئاً خطيراً في الأخير. سيحتاجها في كلّ ما يفعله. لن تملك الوقت لتستغرق في أفكارها وذكرياتها. لم أعلم إلا متأخّرة مساء بالمشاجرة التي نشبت بين بشارة وكلودا أمام الجميع في المستشفى. عندما اتصل بها بعد وقعة روبير، رفضت بشكل قاطع أن يدخله إلى أي مستشفى قريب. قالت إنها تريده هنا في مستشفى الجامعة الأميركية. ما إن وصل حتى وجدها منهارة تماماً. أفزعه اضطرابها. سأل أمي «ما بها؟» انفجرت به كلودا قائلة إنه لا يتحمّل أيّ مسؤولية لا هو ولا أمّه. كيف سمح له بركوب الدرّاجة على الطريق العامّ. كانت تبكي وتكرّر

إنّ وقعته كان يمكن أن تحصل في وسط الشارع. لم تنه كلامها لتقول إنها تخيّلت شاحنة تدهسه. في كلّ مرّة يأتي ايلي وروبير من الجبل تنبّههما من الشاحنات ومن أفاعي الحقل، ومن ضربة الشمس. ترعبها الشاحنة سواء كانت محملة أم فارغة. الحوادث الكثيرة التي تتسبّب بها في المنطقة هناك، جعلتها تخشى القيادة. كان بشارة من يقود في الجبل. عندما أخبرهم الطبيب بنتائج صور الأشعة وبالعملية. ارتعبت ولم تنفع تطميناته. أمي لم تستطع أن تتخيّل أنّ كلودا الجريئة القوية تنهار هكذا بسبب كسور يتعرّض لها الكثير من الأولاد. حاولت أن تهدّئها قائلة إنّه في البيت يمكن أن يقع ويكسر ساقه. أجابتها بعدائية «لكنه لم يقع في البيت على حدّ علمي؟ ماذا لو لم يقع في الجل عند جانب الطريق؟» خيالاتها كانت ترعبها. ظهرها انحنى وآلمها بسبب شدة توتّرها. «اشكري ربّك بدلاً من البكاء هكذا». عبارة كان يكرّرها الجميع على مسامعها وتجنّ. الطبيب الذي يعرف بشارة قال إنّه ليس قلقاً على روبير بل على كلودا. اقترح أن تأتيها الممرضة بمهدّئ. كانت تلتفت نحوي لتهمس لي باكية إنّهم وضعوا له قضيباً وبراغي في ساقه. تسألني كأنني أملك أجوبة. تخاف ألّا يستعيد مشيته. أقلقها تفتّت العظم قريباً من مفصل الركبة. أكّدت لها رغم جهلي أنّه صغير وعظمه يتعافى بسرعة كما إنّها أشبه بطبيبة وتعرف أكثر منّا. قالت إنّها أمّه الآن وكلّ العلم لا ينفع في طمأنتها. ماذا لو صار أعرج؟

مرّة أخرى أحسّ كمن أوقع في فخّ. هل أنا أكبر؟ منذ متى أهتمّ؟ لماذا لا أدعهم وليتدبروا أمرهم كما اعتادوا دوني. تشبّثت كلودا بي ما إن وقفت لأتهيّأ للمغادرة. كان أبي يقف جانباً دون أن يتدخّل. لا يقترب حتى حين تناديه أمّي. عيناه تطاردان كلودا كأنّها هي من تجرى لها العملية لا حفيده روبير. نظر نحوي متوسّلاً كي لا أغادر.

كان روبير يتمتم كلاماً غير مفهوم. يفتح عينيه إلى حين. يبتسم أو يتأمّلنا حوله غير فاهم أين هو. البنج لم يزل تماماً. كانت كلودا تقبّل

أصابع يديه تكرّر وسط دموع لا تتوقّف «حبيب الماما كيف سمحت لهم بإقناعي؟» أو تقول إنّها المخطئة أيّ أمّ هي لتسمح لولديها بالابتعاد من أمام ناظريها. عندما يراها أحد. كان يسأل أمّي بوجوم عن المرض الذي يعاني منه روبير. يتنهّدون بعدها متمنّين لو أنّ حفيدهم أو ابنهم كسر ساقه مثله. لسذاجتها كانت أمّي تكرّر هذه الأحاديث ظنّاً منها أن مآسي الناس ستشكّل عزاء لكلودا. لا تعلم أنّها ستضيف إلى رأسها وساوس ومخاوف.

* * *

تأمّلت وجهي في المرآة. كانت الهالات السوداء ظاهرة حتى تحت طبقة كثيفة من الكريم. بدا البلاش غير طبيعي كأنني وضعت لطختين فاقعتي اللون. أزلتهما. لوني الأصفر ربما أفضل. وصلت باكراً. تعجّب الذين التقوا بي في الاذاعة.

كنت أجفل عند أيّ ضجة. كلّما سمعت خطوات تسارع قلبي كأنّه ينبض أيضاً في كلّ جزء من جسمي. تصفّحت الرسائل التي لم أقرأها. اكتشفت بينها واحدة من رضا، يقول فيها إنّه ذاهب مع صحافيين أجنبيين إلى القلمون في سوريا. وضعت كلمة قلمون على غوغل. لم أفهم أيّ عمل يستحق أن يموت الانسان من أجله أو يؤسر. كيف يتجرؤون وبم سيستفيدون؟ أشياء كثيرة يصعب عليّ فهمها، أن يموت الناس في مظاهرة أو في تسلّق جبل أو في محاربة أحد. الرسالة الثانية من كريستيل، قالت إنها تمكّنت أخيراً من أن تحجز لستة منّا للدخول إلى سكاي بار. تسألني رأيي، من بين رفاقنا ستقول لهم ليسهروا معنا؟ لم تنس الطلب مني أن أبقي الأمر سرّاً. لا تريد أن يزعل الآخرون. شهور وهي تحاول بعناد. لست شديدة الحماس للسهر في مكان لا أحتمل لا ناسه ولا كلفته. سمعت ألف مرة عن الجوّ المختلف فيه وعن الأضواء والموسيقى. رسالة من عليا تقول إنّها مسافرة إلى تركيا لأسبوع، كانت تتمنّى لو

وافقت على الاستراحة لأسبوع ومرافقتهم. لم أدر من تقصد، ربما سبق وأخبرتني ولم أكترث. دعايات، اعلانات. أخيراً أرجعت ظهر مقعدي. وضعت سمّاعات الأذن ورحت أستمع إلى الأيديتيرز. لم أسمع لا الخطوات ولا الطرق على الباب، الجرس أيقظني. غفوت دون أن أنتبه. عندما دخل بدأ بالاعتذار كأنّه فعل ما أزعجني. قال إنّه طرق الباب عندما لم أفتح رنّ الجرس. جلس هذه المرّة دون أن يصافحني. لون بنفسجي غامق تحت عينيه. نظارات الشمس تركت علامات بيضاء تحتها. الشمس جعلت بشرته شبه محروقة. أكمام قميصه مطوية، يقطبّ حاجبيه وهو ينظر نحوي كمن يبذل مجهوداً ليرى. لم يسألني كعادة الناس عن الحال والصحة. تكلّم عن كريم عن التمارين التي ساعدته أيضاً في أن يصير أكثر صبراً وتركيزاً. أخبرني إنّ مشكلة كريم كان يمكن أن تكون أسهل لولا الأقارب والمحيطين بهم. الكلّ يسأله إذا كان شاطراً ومتفوّقاً كأخته ليا. الأمر نفسه يتكرّر. ابتسم وانتظر أن أستفسر ماذا يقصد. لكنني لم أفعل. يداي تعرّقتا. كنت أشدّ بقوّة على قلم رصاص أحمله. ارتجّ هاتفي. التفت نحوي ليرى إن كنت سأردّ. لم أفعل. لحظت الشيب الكثيف عند فوديه. هو أقلّ في أعلى الرأس. قال إنّه كان يفضّل ألا يتوقّف كريم عن المجيء ولو أنّ الغياب لن يتجاوز الأسابيع الثلاثة. لفظ اسم زوجته بصوت منخفض قائلاً إنّ مي تحبّ أن تذهب إلى بكفيا خلال عطلتها السنويّة. هواء نظيف وهدوء والأولاد يسرحون في الطبيعة. علّقت بجملة تافهة كي أخفي ارتباكي، قلت إنّ بكفيا بلدة جميلة. سألني إن كنت أعرفها جيداً وأراد أن يدلّني على بيتهم. قال إنّه ليس بعيداً عن لوكانده كورسيني. كأنني قضيت عمري أسرح بين مطاعمها. هززت برأسي وتركته يحكي عن البيت الذي ورثته زوجته. بناه في الأصل جدها. قال إنّه في ترميمه وتجديده لم يحاول أن يفسد هندسته القديمة. كأنّه انتبه إلى أنه تكلّم اكثر من اللزوم عن جمال البيوت التراثية القديمة. سكت واعتذر قال إنّه أخذ من وقتي الكثير. ثم قلت له عن بعض التمارين. وقف ليغادر أحسست

بخيبة. قال وقد صار على مقربة من الباب إنّ صوتي عبر الاذاعة جميل وإن ردّي على المرأة التي اشتكت من أن زوجها ما عاد يتغزّل بها كالسابق أضحكه كثيراً. سمعت خطواته تبتعد بسرعة على الأدراج. أنصتّ إلى صداها حتى اختفت. وقفت إلى النافذة ونظرت إلى الشارع. لم أره في أيّ ناحية. ربّما ركن سيّارته في الجهة الخلفية من المبنى. كيف قرّر عقلي إنّه هو. راجعت حركاته وكلماته. ماذا لو قال إنّ صوتي جميل. مجاملة أسمعها دائماً. لا تعني بالتأكيد أنّه من يراسلني. أحسست أنني تعبة. تفكيري بالبرنامج زادني رغبة في الهرب.

* * *

رافقت سوسن لحضور معرض أشغال قالت إنّها تعرف أحدى مصمّماته. مجموعة من الخرّيجين تساعدوا لتحويل ما يُرمى في الزبالة إلى قطع أثاث أو زينة أو مجرد أشياء للعرض. اختاروا مرآباً قديماً للسيارات وحوّلوه إلى صالة. كنت أتجوّل في المعرض دون أن يفارقني الإحساس بأنّ ما أراه ما يزال خردة. الأخشاب المرميّة والمتحوّلة إلى طاولات ربّما الأنجح. عدا ذلك رأيت قطع سيّارات من حديد محوّلة إلى لمباديرات. لم تكن جميلة كما إنّها ثقيلة الوزن. خزائن درفاتها من الأباجورات القديمة. الخشب رغم تعتيقه ودهنه بدا مهترئاً. كانت سوسن تطلق ككثيرين صيحات الإعجاب. بداية ظننتها مزيّفة لارضاء رفيقتها، لكنّها بعد ذلك قامت بشراء شبّاك خشب حوّل إلى إطار كبير لعرض الصور الفوتوغرافية. ما أحببته هو بوستيرات أفلام من السبعينات والتسعينات وبطاقات بريديّة وصور بالأسود والأبيض. كثير من اللوحات المعروضة مصنوع من قصاصات الجرائد والصور المأخوذة من مجلات ما عادت تنشر. كان هناك ثياب خيطت من قصاصات أقمشة مزيّنة بأزرار تشبه المجوهرات بأحجارها اللامعة. لكنني وجدتها غير قابلة للارتداء إلا أذا كان الواحد مهرّجاً. تجوّلت بعيداً عن الزحمة. معظم الحضور شباب. العجائز هم من أهل المصممين. أكثر من يثير أعصابي

هم الطلاب. لا يكفّون عن مناداة بعضهم لمدح فكرة أو شيء معروض. كأنّهم أمام لوحات فان غوغ. لا أمام مقود حوّل إلى طاولة قهوة. لأنه يوم الافتتاح أتى الكثير من الناس. كنت أبتعد عن التجمّعات قدر الامكان. اومئ لسوسن لأحثّها على أن نخرج. لكنّها لم تهتمّ واستمرّت تصافح معارف وأصدقاء كأنهم يطلعون من تحت الأرض.

كان يدير ظهره لي، لم أعرفه. ربّما لأنه يرتدي قميصاً يصل إلى الركبة كالتي يرتديها أهل باكستان. قماش موشّى باللون الذهبي والأخضر والسكري. عرفت صوته عندما بدأ يكلّم الفتاة والشاب اللذين كانا برفقته. أعلم أنّ كلّ ما في جسمي أختلّ كأنني سأتعرّض لذبحة قلبية. كم من شهور حلمت أن ألتقي به صدفة. كم ألفت أحاديث عتاب وكم بكيت. كل القصص التي ألّفتها وتخيّلتها لا تشبه بشيء اللحظة التي تيقّنت فيها أنّه روني. كل ما أردته هو أن أتوارى عن الأنظار وأذوب كالملح. نظرت حولي لأتسلّل بعيداً. لا أصدّق أنّه على بعد أقلّ من أمتار. كأنّ عينيه معلّقتان في ظهره. استدار ناظراً إليّ كمن يعرف مكاني بالضبط. بحركة مفتعلة مسرحية ناداني باسمي فاتحاً ذراعيه. عرّفني بمن معه دون أن يعلق في رأسي لا اسماهما ولا شكلهما. كنت أجيب عن أسئلته بعموميات وابتسامات. سألني إن كنت لا أزال أعمل في المدرسة هززت برأسي. كمن ينتظر منّي أسئلة وقف متأمّلاً وجهي. لكنّني لم آت على ذكر لا لندن ولا متى عاد منها. قال إنّه سيتّصل بي قريباً هل بدّلت رقمي؟ كنت أبتعد فيما صوته يكمل توديعه لي وتأكيده أننا سنجتمع قريباً. هربت من هناك كأنّ انفجاراً مدمّراً ضرب الصالة.

لم أرد على سوسن التي كانت ترسل لي لتعرف أين أنا ولماذا لا تجدني بين الحضور في الصالة. هل أنا في الحمام؟ سألت أخيراً.

لا أدري المسافة التي سرتها. حين توقّفت أخيراً كنت مبلّلة تماماً. العرق يسيل من كل مساماتي. رائحة العوادم والمسلخ سمّمت النسمات

التي بدأت تهبّ. تفاصيل هذا اللقاء القصير عادت إلى رأسي. يده تمسك براحتي بينما يكلّمني. قال إنني لم أتغيّر لكن هل نحلت؟ لم أجب قلبت شفتي لأقول إنني لا أعلم. لم أنظر إليه أبداً. كنت أوجّه عينيّ إلى أسفل. حفظت تفاصيل الصندل الذي كان ينتعله. واللون الأزرق الذي غطى ظفر ابهام قدمه. انتبهت أيضاً إلى أنواع الحصائر التي مدت فوق أرضية المعرض. رغم ظنّي أنّ حبّي له زال، اضطربت إلى حدّ لم أتوقّعه بعد هذا اللقاء. هل هكذا تنتهي الأشياء؟ هل هو نفس الشخص العفوي الجريء ؟ أنا أيضاً هل لا زلت تلك الفتاة. أم أننا كلانا نسختان معدّلتان عمّا كنا عليه. أردت أن أمحو كل ما حدث. أن أستمرّ بالتفكير أنه لا يزال هناك في لندن. لا أريد أن أفكّر مجدّداً بأنني قد ألتقي به في كل مكان أقصده. عشت سابقاً هذا الجحيم. لا أريده ثانية.

* * *

انشغلت كلودا كما حدست بروبير. اشترت كل أنواع الألعاب التي يمكنه ممارستها جالساً. لعبة رمي السهام، كرة للسلة، ألعاب فكرية، بازيل، عدّة نجارة. أشياء كثيرة كانت تبدي ممانعة من شرائها سابقاً إما لأنها تفسد الجدران أو لإحداثها الضجيج أو تقول إنّ لا مكان مناسب لها.

كانت خائفة على عضلاته أن تضعف. في البداية كان ايلي يلعب معه، لكنّه سرعان ما ضجر ورغب في الخروج مع رفاقه ليلعب كرة القدم في النادي. عندما تجد روبير مشغولاً بهاتفه أو جالساً قبالة الكمبيوتر تتحدّاه ليلعبا معاً. اكتشف أنّها تتركه يربح. ما عاد يقبل بأن تلعب معه. لاحقاً كانت تتصل بي بحجج مختلفة كي أزورهم وألعب مع روبير. لما وجدت أنني قلّما ألبّي دعواتها، صارت تدعو رفاقه، تقيم حفلات لهم. تعدّ لهم أطعمة لا تسمح عادة لابنيها بتناولها إلّا في المناسبات. لا تهتمّ للساعات التي تقضيها في تلميع الأرضيات وتحضير جوّ دائم من الاحتفالات.

كانت تتبرّع أيضاً بايصالهم إلى بيوتهم. غياب أيلي معظم النهار عن البيت صار مصدر قلق دائم لها. يتجاهل اتصالاتها وهو خارج البيت، ترتعب وتقف على الشرفة مترصّدة كلّ حركة. مرّة اتصلت بي، صوتها أفزعني، ظننت أنّ كارثة ما حصلت. تبيّن أنّ ايلي لا يردّ على اتصالاتها ولم يعد في الساعة التي حدّدتها. عندما وصلت كانت عيناها حمراوين، وايلي يواصل احتجاجاته، قائلاً إنّ لا أحد من أهل رفاقه يتصرّف مثلها. لم تؤنّبه على نبرته. قالت شيئاً عن الأحوال، عن السيارات المسرعة، أو عن حوادث التي قد تقع أثناء لعبه في النادي. «هل تتوقّعين أن ألعب حاملاً هاتفي مثلاً؟» أسرع باتجاه غرفته صافقاً الباب بأقوى ما يستطيع. التفتت نحوي وقالت كأنني ما كنت حاضرة «عاد قبل قليل وهو غاضب مني، ألست محقّة في انشغال بالي؟» ذكّرتها أنه مراهق الآن ويحتاج فسحة من الحرية. قالت بانكسار، البارحة أخبرها إنّه يفضّل ألف مرّة أن يبقى مع بشاره، بحجّة أنه لا يضايقه ولا يعامله كالطفل الرضيع. كان شكلها يفطر القلب، لم أجد كلمات توقف بكاءها. قالت إنه محقّ. لا تعرف سبب مخاوفها الجنونية. كنت أبيت عندها أحياناً دون أن تطلب مني. ليس لأنني قلقة عليها لكنني كنت أرغب بالابتعاد عن جميع من أعرفهم. كنّا نجلس على التّراس، نشرب فيما هي في حركة لا تتوقّف بين الغرف حتى ينام روبير. بعدها تسألني عن الكتاب الذي أحمله. لا تكترث للكتب التي تتعلّق بالزواج أو الأولاد. تحبّ أن أخبرها عن الروايات فقط. أسألها لماذا لا تقرأها. تحكي عن فقدانها القدرة على التركيز. أحياناً نشاهد فيلماً أو نحضّر معاً وصفة طعام جديدة. غالباً ما لا تأكل إلّا القليل منها. لم نعد نتمشّى ليلاً لا بسبب الحرارة العالية بل لخوفها من ترك روبير، تخشى أن يناديها أو يحتاجها في شيء ولا يجدها. تقول بحسرة إنّه هو أيضاً يكبر بسرعة وقريباً سيتصرّف مثل ايلي ويبتعد عنها. كان يخطر لي للحظات عابرة أن أشركها في أفكاري. لكنني سرعان ما أبعد هذا الخاطر. كثيراً ما تساءلت في الأيام الماضية إن كان روني من يلعب معي لعبة الرسائل. ثمّ

أعود للقول إنّ ذلك ليس منطقياً أبداً خاصة بعد كلّ هذ الوقت. بدا جاهلاً أنني أعمل في الاذاعة. تركته يظنّ أنني لا أزال في المدرسة.

عدم ورود اتصالات تحت الهواء من الأزواج أراحني لفترة لكنني بعدها قلقت حقاً. تكلّمت مع مدير البرامج. تفاجأ أن أطلب أنا مقابلته. قلت إنّ تحديد كلفة الجلسة ربّما غالٍ وإنّ الناس قد يسخون بالدفع من أجل أولادهم فقط. أجاب إنّ التسعيرة التي حددوها لا تتجاوز الثلاثين دولاراً، وإنّ ساعة الدروس الخصوصية تكلّف أكثر. ثم اشتكى من أنّه يدفع ستين دولاراً لقاء ساعة لمعلّم الرياضيات الذي يدرّس ابنه من أجل امتحانات الدورة الثانية في البكالوريا. كأنّه نسي سبب مجيئي راح يشكو من جشع المدارس لاعناً الأساتذة الذين يظنّون أنّهم دكاترة. في اليوم التالي مباشرة اتّصلت امرأة لتأخذ موعداً للاستشارة. تمنّيت لو أنني على معرفة مسبقاً بطبيعة المشاكل بينها وبين زوجها، على الأقلّ أعلم ما عليّ قراءته. كنت كمن يخضع لامتحان صعب. ماذا لو قلت أشياء ساذجة؟ أحسست بتأنيب ضمير لا يهدأ، كنت كمن يعالج الناس دون أن يدخل إلى كلية الطبّ. أتقلّب في فراشي دون نوم. أضيء اللمبة لأعود إلى الكتب التي استعرتها. أدوّن الملاحظات. أخشى أن تفوتني معلومة جوهرية.

الموعد سار بطريقة مرضية. الزوجة حضرت وحدها. قالت إنّها أرادت سؤالي إن كان هناك أمور تفعلها قد تنقذ زواجها. لم أستطع أن أحزر عمرها، لكنّها لم تتجاوز الثلاثين بعد. قالت إنّها توقّعتني أكبر سناً. أخبرتني إنّها متزوجة منذ سبع سنوات. ليس لديها أولاد. في البداية ظنّت أنّها السبب في عدم الانجاب لكنّ الطبيب أكّد أنّها لا تعاني من أيّ عائق. قبل زوجها بصعوبة إجراء الفحوصات ليتبيّن بعدها أنّ المشكلة منه. تعقّدت حياتهما منذ ذلك الحين. رفض أن يعلم الناس بالحقيقة، خاصّة أهله. استمّرت حماتها بالطلب منها أن تزور أطبّاء. أخذت لها مواعيد دون سؤالها. لكنّ الأمور بينها وبين زوجها ساءت. صار يغضب من أدنى كلمة. لم يصدّق تأكيدها له أنّ الأولاد ليسوا كلّ شيء في الحياة. كلّ ذلك

تحمّلته واعتبرته مرحلة عابرة. فكّرت أنه سيتقبّل الحقيقة مع مرور الوقت. لكنه تحوّل إلى شخص غيّور بطريقة مرضية. مجاراته لم تنفع في تخفيف حدّة غيرته ولاعقلانية تصرّفاته. امتنعت عن زيارة أهلها الذين يسكنون قريباً منها. ما عادت تتبرّج في خروجها إلى العمل. عندما يكونون في اجتماعات عائلية لا توجّه الكلام لا لأخوته الشباب ولا إلى أصهرته. لكنّه مؤخراً صار ينتقد ما ترتديه للذهاب إلى النادي حيث تعمل مدرّبة لياقة. يتّهمها بأمور تخجل من ذكرها. لم ينج أحد من غيرته حتى صبيّ التوصيل الذي يحضر الخضار إلى البيت. تحسّ أنها تعيسة وتتمنّى لو أنّ ساعات عملها تطول أكثر لتبقى خارج البيت. لا تتذكّر متى كانت آخر مرة قال لها فيها شيئاً لطيفاً. منذ تلك الفحوصات اللعينة صارت كأنها عدوّة له، أو امرأة منحلة. فيما تتكلّم استمرّ جفنها يطرف كأنّها تغمزني. سألتها إن جلست بهدوء وحاولت التحاور معه. كانت عيناها قد امتلأتا بالدمع، لم تتمكّن من إكمال جملتها. مسحت عينيها، اعتذرت من انفعالها. قالت إنّ هكذا جلسات كانت تجرّ عليها صراخاً واتهامات جديدة، كأن يقول إنّ عليها فحص عقلها، من أين تأتي بهذه التخيّلات، او أنّها ربّما تبحث عن ذرائع لتفلت على رأسها. إهانات وشتائم هو كلّ ما يسمعها إيّاه. كانا يخرجان في سهرات مع أصدقاء لهما، لكنّها منذ ضيّق عليها بغيرته باتت تتجنّب صديقاتها حتى. حين تأتي واحدة منهن لزيارتها، يبدأ إمّا بانتقاد لبسها أو حركاتها. إن لم يجد شيئاً يسألها عن الأسرار التي تخفيانها عنه، وإلا لماذا سكتتا حين وصل. سألتها إن أمكن أن تقنعه بالمجيء. قالت إنّ ذلك من المستحيلات. أردفت إنّ النساء اللواتي يتعرّضن للضرب أفضل منها. أهلها قلقون، لكنّها لا تجرؤ أن تشاركهم ما تعيشه. لا والدها ولا أخواها سيرضون بالسكوت. سألتها هل تحبّه. قالت إنّها لا تحبّ هذا الرجل، تأمل أن يهدأ ليعود كما كان. لم أدر ما أفعل أو ما أقول. لا امكانية من مجيئه ولا أمل في الحديث الصريح بينهما. سألتها إن كان هناك شخص مقرّب جداً منه يمكن أن يؤثّر به. عادت للبكاء، أخفت عينيها

بيديها. سألتني إن كنت أمانع من عودتها وحدها؟ قلت إنّ بامكانها أن تأتي ساعة تريد بعد تحديد موعد. كنت أعلم أنّ النصائح التي ذكرتها بلا أيّ نفع، لكن كان عليّ قول شيء لا الاكتفاء بالسماع. على أيّة حال هي ربّما جاءت للافصاح عما يخنقها. حاولت أن أجد حلولاً في الكتب التي أقرأها. لكنّ الكثير منها لا يطبّق على أرض الواقع ولا يتناسب مع كلّ الشخصيّات.

فكّرت أنّ الاختصاصي مختلف عنّي. لا يدع ما يسمعه يدور مراراً وتكراراً في رأسه. لم أستطع طرد صورة المرأة التي أسمها سيبيل من مخيّلتي. أستعيد جلوسها عند طرف الكرسي كتفاها محنيان إلى الأمام كأنّها متكوّمة على جذعها. الرعب ارتسم على ملامحها لحظة بدأت بالكلام عنه. استمرّت تنظر إلى الباب المغلق، كأنّ زوجها سينقضّ داخلاً منه ويفاجئها. حتى صوتها كان أشبه بالهمس، كأنّها إن رفعت نبرته سيسمعها. هل يكون تصرّفي غير مهني إن قلت لها أن تتركه بعقده وتنجو بنفسها؟ كنت أتمنّى لو أنّ المواعيد تتمّ عبري لكنت امتنعت عن أخذ المال منها. شيء فيها ذكّرني بكلودا. لم أستطع أن أحزره.

* * *

«الفتاة في الفيلم الذي شاهدته ذكّرتني بك. ليست بجمالك لكنّها تمشي مثلك مشية عسكرية. كلّ شيء يعيدني إليك. إن علقت بزحمة سير أتساءل عن مكانك وعمّا يمكن أن تفعليه. هل تنشغلين بهاتفك أو تستمعين إلى الموسيقى أم مثلي تلعنين البلد وعذاباته؟ إن أعجبت بأيّ شيء أتساءل عن رأيك به. الآن أنا وحدي. هدوء حولي يقطعه نباح كلب بعيد.»

قرأت الرسالة لحظة استيقظت. أرسلت عند الخامسة صباحاً. فكّرت أنّ المرسل إمّا يكون شاباً سهر طوال الليل أو كبيراً كجبران متى. من غير كبار السن يستيقظ في مثل هذه الساعة. آخر مرّة التقيت به

أبعدت عن رأسي احتمال أن يكون هو. لكنني دون أن أنتبه عدت لظنّي السابق.

أوّل شخص يخطر ببالي لحظة أفتح عينيّ هو روني. منذ التقيته أتخيّل أنني سأراه في كلّ مكان أقصده. عبثاً أطرده من رأسي لكنّه يعود ليفسد تركيزي في التحضير والقراءة. في المقاهي في الشارع، التفت حولي كأنّه سيكون الشخص التالي الذي يأتي فجأة. أعلم أنّ هذا غباء لكنّ جزءاً منّي أراد أن يثبت له بأنه ما عاد في حياتي.

خلال البرنامج الذي تحدّثت خلاله عن ضرورة التنازلات في الزواج، كثرت الاتصالات وانتهى البرنامج دون أن نردّ على الجميع. أكره نفسي كلّ يوم أكثر، الكلام عن الأولاد مريح، لكنّ سماع الأزواج يحكون عن زواجهم كأنّه تجارة يقزّزني. على الناس أن يتريّثوا طويلاً قبل الإقدام على ذلك. كثيرون فهموا التنازلات على أنّها ماديّة أو شيئاً يشبه هدنة الحروب. واحدة قالت إنها تنازلت وتزوّجته رغم أنّ هناك تفاوتاً بين مستوى عائليتهما لماذا هو بالمقابل لا يقدّم أيّ تنازلات ويؤمّن لها الحدّ الأدنى من الحياة. اشتكت أنّها طوال زواجها لم تسافر مثلاً ورضيت أن تربّي ابنها دون أيّ مساعدة رغم ذلك لا يقدّرها. امرأة أخرى أرادت أن تسدي نصيحة للنساء انطلاقاً من تجربتها. قالت إنّها لا تردّ ولا تنبس بكلمة حين يبدأ بالصراخ لأنّ المرأة الجيدة هي المتعقّلة التي تحافظ على بيتها، أليس الرجل رأس المرأة؟ رغم أنني اعتدت كبت ضحكي لكنّه يلزمني دقائق كي أتمالك نفسي وأردّ على مثل هؤلاء. سائق سرفيس اتصل ليقول إنّ على زوجته أن تتفّهمه يتحمّل شقاء الطرقات وقرفها طوال النهار فيما هي جالسة تشاهد مسلسلات تركية وتطقّ حنك مع جاراتها. أأريد منه تنازلات أكثر من ذلك؟ طبعاً لم أجبه كما لا أردّ على الذين يريدون إتحافنا بآرائهم العظيمة.

* * *

فتحت شبابيك سيّارة المرسيدس كلّها. بدلاً من الهواء دخلت الضجّة والزمامير إلى عمق رأسي. ندمت لأنني رفضت دعوة جهاد للسهر في عاليه. بدلاً من ذلك سأنام عند سابين. لا أدري ما بها. طوال أيام وهي تتصل وتكتب أس أم أس تلو الآخر. أجّلت النوم عندها متحجّجة بالعمل. قالت إنّها تريد الكلام معي في موضوع مهم، لماذا يصعب أن تراني، هل صرت مهمّة إلى هذا الحدّ؟ استغربت غضبها. نسيت أنّ علاقتنا انقطعت وقتاً، بأيّ حقّ تطالبني بهذا القرب؟ لكنّني وجدت نفسي أوافق مرغمة. طوال الطريق كنت أفكّر بسيبيل التي عادت لتراني بعد أقلّ من ثلاثة أيام. هذه المرّة لم تقل الكثير. كان بكاؤها شبه متواصل. بصعوبة فهمت أنّه أهانها أمام صديقتها. عادة كان يكتفي بتكشيرة إلى حين أنتهاء الزيارة، لكنّه هذه المرّة بدأ بتذمّر يشبه الصراخ عن ضجره من أكل الطبخة نفسها على مدى أيّام، صباحاً لم يجد قمصانه التي يريدها مكويّة. بسرعة خرجت صديقتها لم تدر كيف تمالكت نفسها في حضورها. لأوّل مرة تردّ عليه بالقول إنّها تعمل مثله وأكثر. جنّ جنونه ووصف عملها بالتافه ومعاشها بلا أيّ نفع. بالكاد يكفيها لشراء ثيابها وبنزين سيارتها. جيرانها فتحوا أبوابهم عندما علا صوته لاستطلاع ما يحدث. رغم سكوتها استمرّ بصراخه. خرج بعد ذلك صافقاً الباب بأقوى ما يستطيع. لم يعد إلّا في الصباح لتبديل ثيابه. تظاهرت بالنوم، لكنّه لم يبال ونعتها بالمفسودة المدلّلة التي لا تتحمّل أيّ مسؤوليّة وتنام حتى الظهر، ثم ردّد كأنّه يكلّم شخصاً ثالثاً «وتقول بعد ذلك إنّها تتعب في العمل؟» رغم أنّها لم تنم أحسّت لأوّل مرّة بنوع من الراحة، لا بل صلّت لينام عند أهله ويريحها. سألتني هل من الأفضل لها أن تهجره. قلت لها إنّ الجواب عندها وحدها. قالت إنّها تخاف أن تحكي معه في الموضوع. كانت ترتعش. بدت لي أكثر هشاشة من الزيارة السابقة. حاولت أن أتصرّف بمهنيّة، وأخفي حزني وتعاطفي معها، لكن ذلك كان صعباً. سألتها شيئاً عن علاقتها بأهلها، قالت إنّها قريبة من أخيها الكبير. نظرت إليّ كأنّها تحاول فهم ما أقصده. لم أستطع أن أشير عليها

بحلّ. حاولت أن أدلّها بطريقة غير مباشرة. لا أفهم ما يدفعها إلى التحمّل. عادة الناس يحكون عن مصلحة الأولاد، لكن لا أولاد لديها. لم يبد من كلامها أنّها مغرومة به. لا ألحظ إلّا الرعب في كلامه عنه. ذكّرتني برواية قرأتها، عن علاقة معقّدة بين سجينة في المعتقلات النازيّة وأحد الحراس.

أوصلت السيارة ووضّبت ما أحتاجه، وقفت أمي عند باب غرفتي. سألتني إلى أين أنا ذاهبة. لم يكن صوتها معاتباً كعادته. لا أدري لماذا أكره أن أخبرها الحقيقة. كذبت وقلت إنني مدعوّة عند عليا. سألتني لماذا لا أسهر معهما أبداً؟ فكّرت بأنه لم يطلّ الأمر بها حتى تستعيد نبرتها المعهودة. لم أردّ. قالت إنّ أبي لا يفتح فمه، يقضي وقته متنقّلاً من نشرة أخبار إلى برامج السياسة، شيء يطفئ القلب قالت بتأفّف. سألتها لماذا لا تسهر عند كلودا؟ قالت إنّ كلودا صارت مثل أبيها شبه خرساء.

كانت سابين تنتظرني. فتحت لي الباب قبل أن أقرعه. الشقة هادئة تماماً. التلفزيون مطفأ وزميلتها في السكن عند أهلها. كانت في شورت أبيض قصير يكشف عن ساقيها المسمرين، وبلوزة واسعة من القطن الأصفر الفاقع. على الطاولة أمامها كأس فيه قطع ثلج شبه ذائبة والكثير من الأوراق المبعثرة بعضها مطبوع وبعضها بخطّ يدها. لحقت بي بينما أخلع ثيابي لألبس قميصاً فضفاضاً. قالت إنني تأخرت وظنّت أنني لن آتي. كانت عيناها محمرتين. شيء من الماسكارا سال وتجمع عند طرف عينيها. وجودي وحدي معها وسط هذا الهدوء أربكني. شغّلت التلفزيون ورحت أقلّب المحطات واقفة. أعدّت لي كأساً مثلها دون سؤالي. قالت إنّها مؤخراً تحسّ بالاختناق. ربّما كان عليها منذ البداية أن تستشيرني. على الأقلّ تعلم أنني لا أطلق أحكاماً تافهة كصديقاتها الأخريات. لم أقل ما يشجّعها على الكلام. سكتت ثم التفتت نحوي لتسألني إن كان هناك شخص ما في حياتي. أومأت نافية بحركة من رأسي. «حقّاً؟ أم تخفين أمورك كالعادة؟».

قالت إنّها منذ مجيئها إلى بيروت تعرّفت على طبيب في المستشفى ثمّ راحت تسرد تفاصيل لقاءاتهما بالصدفة. مرّة في المصعد وأخرى في الكافيتيريا إلى أن عرّفتها الطبيبة النفسيّة التي تعمل معها به. أوّل مرّة تخرج برفقته وحدهما دعاها إلى مطعم في المنصورية. ثم إلى برمانا. ما كانت تعلم لماذا يختار أمكنة بعيدة إلّا لاحقاً. في مشوارهما الثالث أخبرها إنّه متزوّج ولديه ابنتان واحدة في العاشرة والصغرى في السابعة. فكّرت أنّ كونه متزوّجاً لا يعني أنّه سعيد في حياته. قد يكون شبه منفصل عن زوجته، معظم من تعرفهم إما مطلّقون أو على أهبّة أن يفعلوا. لم تكترث. ولم ترغب في أن تطرح عليه أسئلة. كان انجذابها إليه أقوى منها. على عكسه كانت مشاعرها واضحة تجاهه من البداية. أمّا هو فاكتفى بإسماعها عبارات الاعجاب والغزل. فكّرت أنّه يحبّها. قد يكون ممن يستصعبون البوح بمشاعرهم. أخبرها إنّها لفتت انتباهه منذ رآها أوّل مرّة. في المستشفى كانت تطارده بعينيها لكنّه لحظة يلتقيها يسلّم عليها كما لو أنها معرفة عابرة. لم تفسّر الأمور على نحو خاطئ. هو في الأخير متزوّج ويخشى على سمعته. بعد أقلّ من أربعة مشاوير صارا يلتقيان في شقة مفروشة في الحمرا. عندما سألته عن صاحب الشقة المفروشة، ادّعى أنّها لصديق له. كانا يبقيان وقتاً برفقة بعضهما. أحياناً كانت تحضر معها شيئاً من الطعام والمشروب. مرّة ناما طوال الليل في الشقة. لم تعلم أي حجّة قالها لزوجته. هو طبيب بإمكانه أن يغيب دون تبرير. لكنّ الأمور لم تبق على حالها. ساعات اللقاء تحوّلت إلى نصف ساعة أو أقلّ. ينام معها وينصرف. ثم بدأت في المستشفى تسمع ما تقوله الممرّضات عنه. لم تكن أولى مغامراته ولا آخرها على ما يبدو. رأته بأمّ عينها وهو يتقرّب من ممرضة جديدة لم تتجاوز العشرين من عمرها. ثم صار يتهرّب منها. يتحجّج بالعمليات أو بمناسبات عائلية وأشياء أخرى كي يؤجّل اللقاء بها. قالت إنّها جلبت ذلك لنفسها. الآن لا تستطيع النوم وتكره الأكل. في عملها تظلّ مشتّتة وتحاول أن تترصّده وأن تتظاهر بلقائه صدفة. لا يردّ

على رسائلها وعندما تتصل به يحوّل الاتصال على البريد الصوتي. المرّة الوحيدة التي ردّ فيها هي حين استخدمت هاتفاً غير هاتفها. رحبَّ بها كأنّها غريبة ثم أردف إنّه الآن مع مريض وسيتصل بها لاحقاً. «مضت أيّام ولم يفعل». قالت فيما تحوّل بكاؤها إلى شهيق كأنّ لا أنفاس في صدرها. عندما نصحتها بإلهاء نفسها عن التفكير به. قالت إنّها لا تستطيع. تفعل أشياء غريبة عنها. في فراغها تتمشّى إلى البناية حيث الشقة. تقف متأمّلة أن يأتي. عزمت على مكالمته غير مبالية إن كان برفقة أحد. لكن حتى ذلك لم يجدِ نفعاً. كانت تصبّ كأساً تلو الأخرى، السكر زاد من حزنها وبكائها. لم أقل إلّا كلمات قليلة. علمت أنّ نصحها بإهماله لن يجدي نفعاً. تذكّرت أختي كلودا. كنت أنتظر لمرافقتها إلى المحامي وكان ايلي يأكل في عجلة قبل خروجه. قال شيئاً عن أنّ العجة التي أكلها عند أبيه أطيب. «منذ متى يطبخ والدك أم هي جدتك؟» أجاب دون اكتراث «لا جومانه حضّرتها». رأيت لون كلودا كيف امتقع وصعُب عليها أن تدخل المفتاح لتشغيل السيارة. بعد وقت قالت جملة واحدة: «أرأيت الكذب؟ أتذكرين قوله إنّها لا تعني له شيئاً؟» في الطريق خفت من عصبيتها في القيادة. صرخت لأنبّهها إلى السيّارة التي أعطت إشارة للتوقّف. الفرامل رمتني إلى الأمام. معصمي ارتطم بقوة . الذراع نفسها التي تحمل ندبة. هلعت كلودا ولعنت نفسها وشرودها وسيرة بشارة اللعينة. المارة وقفوا عند سماعهم الفرامل ونظروا إلينا طويلاً كأنهم يشاهدون كائنات فضائية. كانت تقلب معصمي وتسألني كل لحظة إن كان يؤلمني. هي أيضاً بدت كسابين، بمجرد ذكر اسم تلك الفتاة حلّت عليها كآبة، كأنّ غيمة سوداء حجبت نظرتها. هل ينفع أن أقول الآن لسابين أو لكلودا بأنّ هذا الشخص أو ذاك لا يستحقها؟ سألتني سابين بلهجة يائسة «قولي ماذا أفعل؟» ربّتّ على ساقها وأشعلت لها سيجارة. كانت الساعة قاربت الحادية عشرة ليلاً، سألتها إن كانت ترغب بالخروج إلى الحمرا. السير مفيد، والحرارة خفّت الآن. سألتني إن كان لديّ مانع من أن نأخذ طريقاً أطول لتريني

الشقة؟ كلّ الكلام عن فقدان أيّ أمل من علاقتها به مجرّد وهم. لزمها وقت لتنهي ارتداء ثيابها. عدّلت ماكياجها وارتدت ثوباً زهريّاً مكشوف الظهر كأنّها حتماً ستلتقي به.

* * *

قبل موعد الخامسة وصلتني رسالة. من شدة توتّري لم أقرأها. إنّه موعدي الأوّل مع ثنائي. انتظرت طويلاً حتى حصلت على موعدين آخرين. سيبيل انقطعت عن المجيء. لكنني ظللت أتساءل عمّا حلّ بها. هل ستستمرّ بتعذيب نفسها؟ عاد إليّ وجهها. لا يمكن أن أنسى عينيها. كأنّ العالم لا ينعكس في نظرتها. لا شيء فيهما إلّا الخوف والوحدة.

أنظر إلى الساعة دون توقّف. عندما تأخّرا ربع ساعة، استرجعت هدوئي وفكّرت أنّهما لن يأتيا. ربّما غيّرا رأيهما في الدقيقة الأخيرة. تذكّرت كيف لمحت صباحاً شخصاً يشبه روني. نزلت من البناية وفيما أقطع الشارع، رأيت شخصاً يشبهه في مشيته وشعره ولباسه. توقّفت لأحدّق بظهره منتظرة أن يستدير وأرى وجهه. لكنّه اختفى عند المنعطف دون أن أراه. حجبته عني سيارة جيب كبيرة. تخيّلت أنّه يراقبني في تحرّكاتي. في قرارتي أعلم أنّ ظنّي غير منطقي لكنّ الفكرة جعلتني أستيقظ سعيدة في الصباح وأختار ثيابي بعناية. أتخيّل أموراً باستمرار. وإلا لماذا أرى شبهاً بينه وبين من ألتقيهم. راكب يهمّ بالصعود إلى سيارة أجرة، شاب جالس أمامي في صالة السينما، أو صوت أسمعه. ألتفت وغالباً ما لا أرى ذرّة شبه.

سمعت صوتهما قبل وصولهما. المرأة في أواخر الثلاثين، ترتدي بلوزة دون حمّالات تكشف عن منبت ثدييها. شمس البحر تركت فوق جلدها الكثير من النمش والبقع البنية. صافحتني ذاكرة اسمها وكذلك فعل زوجها. كان رغم الحرّ يرتدي بدلة. نظر باتّجاه مروحة السقف وخلع الجاكيت ثم طواها فوق مسند الكرسي. كرش مستدير كان يكبس أزار

قميصه. ظلّا صامتين بانتظار أن أبادر بسؤالهما عن سبب الاستشارة. خيّل إليّ في البدء بأنّهما هادئان. الزوجة تبرّعت لتبادر في عرض مشكلتهما. قالت إنّ زوجها يعمل منذ أوّل زواجهما في السعودية وأنّها تحمّلت تربية الأولاد وحدها ومشاكل العيش والأحوال الأمنية. الزيارات التي يقوم بها أو تقوم بها هي برفقة أولادها ليست كافية برأيها. لم تتزوّج لتعيش وحدها. قاطعها بقوّة وقال من يسمعها يظنّ أنّه هناك يلعب. يتحمّل الحياة الزفت من أجل من في الأخير؟ كان الموعد شاقّاً. اضطررت مرّات أن أذكّرهما بضرورة أن يصغي كلّ واحد إلى وجهة نظر الآخر دون مقاطعة. انقضت ساعة ونصف في محاولة فاشلة مني لجعلهما يتكلّمان بهدوء. لكنّ ما حصل أنّهما تبادلا الاتهامات وذكّرا بعضهما بالتضحيات التي زعم كلّ منهما أنّها الأكبر والأهمّ. لكنّ ما أضحكني هو أعتباره مكالمتهم كلّ مساء عبر سكايب بمثابة مشاركتهم العيش. قالت إنّها ليست خادمة وإنّ شبابها انقضى دون أن تخرج أوتعيش كبقيّة الناس. أجابها بما يشبه الصراخ أنه يعيّشها كالملكة. مجوهرات وسفريات في العطل. ثم أردف «أردت الاستشارة ونشر غسيلنا الوسخ أمام الناس وقبلت، ما المطلوب مني أكثر من ذلك؟ ليكن بعلمك أنّ مليون امرأة تتمنّى عيشتك». كان يلتفت نحوي بينما يحكي كأنّه يتساءل كيف أذعن لزوجته وحضر. فكّرت بأنه لا يأخذني على محمل الجدّ. الأفضل ألّا أعتبر أنّ الأمر موجّه ضدّي. على الأرجح يستخفّ بكلّ الأمور النفسيّة. كلّما ذكرت شيئاً يبدأ بتعداد الأشياء التي اشتراها وكتبها باسمها كبيت الجبل والسيّارة أحدث موديل. أقساط أولاده الذين يتعلّمون في أفضل المدراس والجامعات. أليس هو من تدبّر لأخيها عملاً؟ ذاك الأخ الضائع. لولاه لما كان له أيّ مستقبل. كنت أنظر إلى الساعة لتذكيرهما بأنّ الوقت انتهى. فكّرت أنّه لا يلزمهما مستشار بل مخفر من الدرك ليفصل بينهما.

بصعوبة أوقفت سيل الاتهامات بينهما وطلبت منهما أن يكونا صريحين في شأن رغبتهما بحلّ مشاكلهما. هدآ فجأة وقالا إنّ مجيئهما

اليوم هو أكبر دليل. انشغلت الزوجة بتدوين الخطوات العشر التي طلبت منهما اتباعها قبل أن يأتيا في الأسبوع القادم.

* * *

عاد كريم من الجبل فاقداً أيّ حماس. كان عليّ أن أتحمّل تأفّفه من التمارين، تارة بسبب الحرّ وأخرى لأنّ رأسه يؤلمه. لم أبالِ. هكذا هم الأولاد. إمّا بطنهم إمّا رأسهم حين يريدون التهرّب. حاولت أن أعيد إليه تركيزه وحوّلت التمارين إلى لعبة يكسب فيها نقطة كلّما نجح. حين سألني ماذا يربح من جمع النقاط، تردّدت. لم أرد ربط ذلك بمكافأة مادية، قلت إنني سأسمح له بأن يفعل في الوقت الباقي ما يشاء رغم علمي أنّ الشيء الوحيد الذي يريده هو الانصراف إلى الألعاب على هاتفه. أمه أوصلته. كان شكلها مختلفاً، لم أدرِ أهو اللون الأسمر أم الثياب التي ترتديها. لم تكن ذابلة الوجه كالسابق.

الرسائل التي وصلتني مؤخّراً غريبة. من يكتب لفتاة يحبّها عن لا جدوى الطموح وتفاهة كل ما نشقى لتحقيقه؟ أو عن معنى الحياة إذا ربط الواحد نفسه بقيود ما عاد يؤمن بها؟أقرأها فأحزن. هذه الكلمات لا تشبه روني. قد يكون نسي حتى أنّه التقى بي.

كريستيل بدورها تجاهلت اتصالاتي طويلاً. زعلت كثيراً لأنني فوتّ الذهاب معهم إلى سكاي بار. كان ذلك غريباً بالنسبة إليها. هي الأكثر تسامحاً من بين من أعرفهم. ليس من طبعها أن تعاديني. اليوم فقط أرسلت لي أس أم أس لتقول إنّها سعيدة باقتراحي أن نذهب أربعتنا إلى الشاليه. فكرت أن هذا المشروع قد يلهي سابين عمّا بها ويبعدها مسافة كافية كي لا تنصرف إلى مطاردة ذلك الطبيب. في الأيام الماضية لم أستطع تجاهلها كالسابق خفت أن تقوم بشيء جنوني. قالت إنّها ستدقّ باب بيته وتحرجه أمام زوجته. قلت لها إنّها لن تستفيد شيئاً. وقد لا يكون عاد إلى بيته. ومن جوابها علمت أنها تراقبه وتعلم حتى بخروجه مع

تلك الممرّضة الجديدة. تعلم مواقيت العيادة ودواماته في المستوصف وجدول عملياته. حاولت تعقيلها وإفهامها أنها لن تحرج إلّا نفسها. من كان مثله بإمكانه إقناع زوجته بأنّ سابين مهووسة به وتلاحقه. كما قد تخسر عملها لأنّ كلمته مسموعة في المستشفى. المسافة بين الصفرا والحمرا كافية لالهائها خلال الويك أند. أرادت عليا أن تدعو واحدة تعرّفت عليها في سفرتها إلى تركيا. لكنني منعتها وقلت لها إنّ لا أحد منّا يرغب بأيّ مجهود، نحن ذاهبات للاسترخاء والسباحة. كم يسهل عليها التعرّف إلى الناس، يكفي رؤية عدد أصدقائها على الفايسبوك حتى يظنّ الواحد أنّها فنّانة ولها متابعون. في تركيا التي لم تمض فيها أكثر من أسبوع صادقت شابّين سائحَين واحد ياباني والثاني بلجيكي. تحكي عن رغبتها في تلبية دعوة كلّ منهما. ستدفع ثمن التذكرة فقط وتقيم عندهما. هل هي ساذجة أم أنّها حقّاً لا تفكّر بعواقب ما تفعل. الأمر الجنوني الذي قامت به هو حملها حبّات الأكستازي إلى تركيا. قالت إنّها أخفتها بين حبّات الأدفيل. قولي لها إنّه كان يمكن أن توقفها الشرطة وتودعها السجن أضحكها كأنني أخبرها قصة خرافيّة.

لحظة وصلنا لبسنا المايوهات، وحملنا برّاد البيرة وركضنا باتجاه الشاطئ. لا يفصلنا عن المسبح القريب إلّا شريط شائك. نسمع صيحات روّاده وهم يركضون إلى الماء ويتراشقون. عدّة مرّات كان ينادينا أحدهم لنردّ طابة سقطت جهتنا. المكان الذي اخترناه لا يقصده إلا من يسكن في المجمّع. الناس يفضّلون عليه المسابح القريبة. إضافة للبحص يمتلئ المكان بحقن وقوارير فارغة وأكياس نايلون وزجاج مكسور وزبالة. لا نتجرّأ على السير دون صنادل تحمينا. نحاول تنظيف المكان الذي نمدّ فيه حصائرنا قدر الامكان. رغم تجاوز الساعة الخامسة لا يزال الناس كثيرين. الشمس خفّت حدّتها لكنّ أشعتها تسطع بقوة. خلعن ثلاثتهن حمّالات المايوه واستلقين على بطونهن. شبّان وقفوا قرب السياج متظاهرين بالتدافع واللعب للتلصّص على

ثدي قد يظهر حين تسوّي إحداهن من وضعية استلقائها. أحدهم رمى عن قصد ريشة الراكيت جهتنا. خاب أملهم عندما تحركت أنا لأردّها. في كثير من المرّات يذهبن للسباحة في أماكن مخصّصة للنساء ليتمكنّ من تسمير صدرورهن. رافقتهن مرة وندمت. لا أدري لماذا أفزعني المكان. ليس السبب الحشمة. كل شيء فيه كان بشعاً. الأغاني، الأجساد العارية التي تستعرض الأوشام ، لا أحد يجد حرجاً من تأمّل الأخريات كأنّه في غياب الرجال كلّ شيء مسموح. تذكّرت معاناة أمي لتقنعني بارتداء أوّل حمالة. كنت أخفي صدري النابت بقميص القطن فأبدو مسطحة كالصبيان. لتقنعني بضرورة ارتدائها قالت إنّ صدري سيصبح شبيهاً بصدر جدتي المرتخي. حين لم ينفع ادعّت إنّه سيستمرّ بالنمو إن لم أرتد حمّالة. قولها أفزعني فرضخت أخيراً. لم أرد أن أشبه رفيقاتي عارمات الصدور. بينما أكبر كانت أمّي تتساءل كلّما لبست بلوزة مكشوفة عمّن ورثت هذا الصدر الصغير.

الموسيقى التي تسمعها كل منا منعتنا من الحديث. لبست سابين حمّالتها وجلست تشرب بيرتها وتدخّن. أشعلت سيجارة لي أيضاً. كنت أرى انتفاض الشرايين في رقبتها وصدرها. نظرت نحوي وسألتني إن كنت أجد أنّ عليها تغيير مكان عملها. لم أجب لأنّ عليا جلست بدورها لافّةً المنشفة حول صدرها وسألت إن كنا سنكتفي بالبقاء في الشاليه كالعجائز ليلاً؟ سألت كريستيل وهي لا تزال في وضعيتها إن كان بامكاننا الذهاب إلى «أسيد» الجوّ يكون ولعان ليلة السبت. لا سابين ولا أنا تحمّسنا للفكرة وذكّرتهن بالمداهمة التي حصلت في آخر مرة كنّا فيها هناك. كنّا قد قصدناه عند الواحدة وبعد أقلّ من نصف ساعة جاء الدرك وعاملوا الجميع كالمجرمين، ودفعوا بنا إلى الخارج، وبعد تفتيش المكان اقتادوا البارمان مكبّلاً. طار الشرب من رأسنا وفوق ذلك تشاجر ناجي مع شبّان لأنّهم تحرّشوا به وتغزّلوا بجماله وبمشيته. هجم على أحدهم ونال أحمد الضرب من كلا الطرفين وهو يحاول الفصل بينهم. خفنا لأنّنا

لمحنا أحدهم يخرج شيئاً يشبه الشفرة. صرخنا كاذبين إنّ الدرك عادوا فتفرّقوا بسرعة باتجاه السيارات.

بعد السادسة خلا المسبح. نزلنا إلى الماء. كان صافياً ودافئاً. أسراب من السردين كانت تلامس أجسامنا وتدغدغها. حين سبحت بعيداً سمعتهن ينادين إليّ كي أعود. لكنني لحظتها كنت خفيفة كأنّ لا ثقل لجسمي. الماء حملني وملأ عينيّ بزرقته النقية. كأنني غادرت العالم، كلّ شيء اختفى الأفكار والأحزان والوساوس. لا ناس، لا أحد. سمكة كبيرة تنزلق فوق ساقي، أمدّ يداً نحوها فتبتعد.

وافقت عليا بصعوبة على أن نكتفي بالعشاء في مطعم قريب. لم نجد أي طاولة فارغة في البدء. في كلّ مرّة يسألوننا إن كان لدينا حجز . حتى قررنا الذهاب إلى جبيل. لا أدري لماذا يكثر ضحكنا دون سبب في كلّ مرة نكون وحدنا من دون شباب. ذكرني ذلك بالليالي التي كنّا فيها صغاراً وننام عند رفيقاتنا. ما كنّا نغفو لحظة، نتظاهر بالنوم حتى تُطفأ الأنوار، ثم نتسلّل على مهل لأكل ما في البراد أو نشاهد التلفزيون ونحن نضحك، أو نتّصل برفيقات لنا في الصف ونوقظ أهلهم دون أن نبالي بتهديدهم لنا.

التبريد منعنا من فتح الشبابيك لشمّ النسمات البحريّة. كنّا نغني بأعلى صوتنا ونطلب من كريستيل أن تسرع أكثر. تقول إنّ هناك ردارات للسرعة لكنّها في الأخير قادت كأنّها تطير.

تكرّر الأمر نفسه في جبيل إلى أن وجدنا أخيراً مطعماً تنبعث منه موسيقى شرقية. لم نجد طاولة في الصالة المبردة. جلسنا في الخارج إلى طاولة تطلّ على الشارع الفرعي. لكنّ صوت البحر كان مسموعاً. سابين التي بدت أكثرنا هدوءاً طلبت من النادل قبل أن نجلس كأساً من النبيذ الروزيه البارد. قلنا له إننا نريد قنينة بما أننا جميعاً سنشرب الشيء نفسه. قبل أن يأتي بعشائنا كنّا قد شربنا القنينة الأولى وأكلنا كل ما في الصحون من بزورات وجزر. قالت عليا إنها بعد هذه الشراهة سيزيد وزنها. عندما وضع النادل أمامها السمكة والبطاطا المشوية، لم تلمسها. على طاولة

مجاورة استمرّ ثلاثة شبّان ينظرون باتجاهنا. كان حديثهم عن مغامراتهم وسياراتهم. عندما ضحكت كريستيل على نكتة قالها أحدهم لكزناها. خفنا أن يتشجّعوا لمحادثتنا. في أقلّ من دقيقة اقترب واحد منهم وقال إنّهم تشارطوا ويريد أن يعلم إن كنّا من بيروت. قالت عليا «نعم من ربح فيكم؟» أشاروا إلى الجالس الذي كان يحدّق من بداية السهرة بكريستيل. سألونا إن كان لدينا مانع من الجلوس معهم. «نتعرّف على الصبايا الحلوين ونكمل السهرة في مكان هادئ». سابين ردّت: «لا شكراً لم نأت لنتعرّف على أحد». لهجتها ربّما هي ما دفعهم إلى الكفّ عن ملاحقتنا. بعد قليل خرجوا وودّعونا كأننا معرفة قديمة. لم نردّ على تحيتهم وتظاهرنا بعدم سماعهم.

شيئاً فشيئاً انطفأنا وساد هدوء بيننا. صارت أحاديثنا خافتة. قالت عليا شيئاً لم أسمعه عن زوجة أبيها. ثم فهمت أنّها تشاجرت مع أبيها بسبب ما قالته لها. شتمت زوجة أبيها قالت عنها حرباء كاذبة. قالت إنّ أكثر ما يغيظ زوجة أبيها هو عندما تناديها باسمها. الجميع يناديها باسم جينا. «ما علاقة خديجة بجينا؟» تسألنا هازئة. لا أدري كم مرّة سمعت الحديث نفسه.

سابين استمرّت تنظر إلى القطط المتجمّعة حول كيس زبالة بينما يداها تحوّلان قطعة خبز إلى فتات صغير. كريستيل حكت عن أنّ أحمد يفكر بعرض عمل في دبي. قالت إنّها ستجد هي الأخرى عملاً هناك. لكنها متردّدة. تنتظر أن يقترح عليها ذلك. كل يوم يسألها لماذا هي عدوانيّة ولا ينتبه إلى ألمها. الصبيان بلا أيّ إحساس قالت. وافقتها سابين على الفور وسألتنا أن نقول رأينا بصراحة. هل هي بشعة؟ هكذا ترى نفسها في هذه الأيام. لم تبال بمديحنا ثّم قالت كان يمكن أن تكون الآن متزوّجة ولها أولاد لو لم تختلف مع خطيبها. سألتها عليا لماذا اختلفا. أجابت إنّها صارت تضجر برفقته وتجده بلا روح، لم تتخيّل أن بامكانها احتمال عمر كامل معه. عندما خطبا كان يعجبها، لكنها لاحقاً وجدت أنها تنجذب إلى شبان آخرين، لا يشبهونه. ضحكت وقالت خافضة صوتها «إنّها كانت

معجبة بأخيه أكثر منه». لم تأت على ذكر علاقتها بالطبيب. كانت تنظر باتجاهي كأنّها تخشى أن تفلت من لساني أيّ كلمة. رغم أننا شربنا كثيراً قرّرنا أن نختم مشوارنا بقنينة بيرة نشربها عند المرفأ. كان هناك الكثير غيرنا رغم تقدّم الوقت. فتيات وشبان جلسوا على الصخور فيما أمواج البحر ترشّهم برذاذها. الرائحة أزعجتنا فابتعدنا إلى جهة السوق القديم.

في طريق العودة قدت بدلاً من كريستيل. أطفأت التبريد وسرت على مهل. سابين غفت متّكئة على كتف عليا. كريستيل كانت تغنّي وحدها بصوت خنقته كثرة التدخين. سمعت رنين رسالتين وصلتا إلى هاتفي بفارق ربع ساعة.

في اليوم التالي لم تطل وحدتنا. قبل أن أستيقظ سمعت ضجة الأصوات. عليا دعت شاباً اسمه عادل، وكريستيل اتصلت بأحمد، هذا عدا مجيء شقيق كريستيل مع شلّة من رفاقه. كانوا يشربون البيرة . فتاة لم أرها سابقاً كانت جالسة في أحضان شاب. تُرفق كلّ كلمة بشتيمة فيما يداها تحاصران رأس رفيقها كأنّها ستقتلعه . ثم نهضت وأطلقت صيحات عالية راقصةً وحدها على أنغام أغنية لبيونسيه. كان صدرها يهتزّ ويظهر ثدياها من حمّالة المايو المكشوفة. لم تهتمّ بالعيون المحدّقة بما يكشفه البيكيني.

رغبت على الفور بالعودة إلى بيروت وكذلك سابين. زعلت كريستيل ورجتنا أن نبقى. ذكّرتنا بالمرّات التي حضّرنا فيها طعامنا وتسلّينا، قالت إنّ أحمد أحضر معه دجاجاً ولحماً للشوي. قلت إنّ لديّ مواعيد. لم تصدّقني وسألت كيف يكون لديّ مواعيد عمل الأحد! سابين ادّعت وجعاً في رأسها ومعدتها. قالت إن بقيت لن تستطيع منع نفسها من الشرب مجدّداً. أوصلنا أحمد إلى الدورة. هناك أوقفنا سيارة. وصلنا بوقت قصير. كأنّ بيروت مدينة أخرى أيّام الأحد.

* * *

كانت أمي وحدها في البيت. تنقر كوسى فيما تتابع مسلسلاً لبنانياً. أسرعت إلى غرفتي لأبدّل ثيابي التي بلّلها العرق. كانت تصرخ لي بكلمات لا أسمعها. لذا لم أجب بشيء. ثم سمعتها تقترب لتقف بباب الغرفة وهي لا تزال تحمل حبّة كوسى. قالت إنّ كلودا دعتنا جميعاً للغداء في نبع مرشد. سألتها لماذا تنقر الكوسى إذاً. قالت إنّها طبخة الغد. حتى خلال عطلة الصيف لا تتخلّى عن عادة التخطيط المسبق لكلّ أمر. تكتب كل شيء على لوائح منظّمة. واحدة لأغراض البقالة وأخرى للخضار وواحدة للأدوية وطبخات الأسبوع. عندما بدأتْ منذ سنوات تعاني من الهبّات الساخنة، صارت تكتب لوائح لمعرفة وتيرتها ومدّة كلّ واحدة. قيل لها إنها لن تبقى بهذه الوتيرة. لكنّها استمرّت وجعلت منها شخصاً مختلفاً. كل شيء يغضبها حتى أدنى مشكلة. كنت أتساءل عمّا يفعله تلاميذها عندما تحمرّ كالمصابة بحروق وتصرخ بهم. لم ترد أن تأخذ الأدوية التي نصحها بها الطبيب متسلّحة بقول كلودا عن أنّها قد تسبّب السرطان. تستطيع كلودا أن تقول ذلك. هي لا تعيش في الأخير معنا لترى الجنون الذي يمسك بأمي دون سبب. كانت تثور وتبكي بانفعال مفسّرة أيّ شيء على أنّه جارح. اعتاد أبي أن يكبت غيظه من ردودها بعد أن سمع من كلودا شرحاً مفصّلاً عن التغيّرات الهرمونية. تستيقظ في الليل وتأتي بكميّة من الثلج وتمرّرها فوق وجهها ورقبتها. تبدّل ثياب النوم المبتلّة. ثمّ تنام على الكنبة في غرفة الجلوس. أسوأ المرّات هي حين أعود من سهرة وأجدها مستيقظة. بلمح البصر تستطيع أن ترمي عليّ مسؤوليّة ما يصيبها. فجأة أصير السبب في أرقها وتوتّر أعصابها ونوبات الحرارة التي تفسد ليلها ونهارها.

في صغري كانت تعدّ لي برامج لمراجعة دروس الامتحانات دون أن تغفل الاستراحات ومواعيد الطعام. لكن منذ أن صرت في الصفّ الأوّل المتوسّط تمرّدت على برامجها ومخطّطاتها. مؤخّراً رأيتها تكتب تواريخ تتعلّق بتبديل قارورة الغاز وتتّهم شركة الغاز بالخداع وإلّا لماذا

فرغت القارورة في وقت أقصر من المعتاد؟ ظنونها تغضب أبي، يقول إنّ عليها أن تتخلّى عن فكرة أنّ الجميع يغشّها.

استغربت دعوة كلودا. لم أعرف سببها إلّا لاحقاً عندما عاد أبي يحمل هدية لأمي. يبدو أنّه هو أيضاً نسي وإلّا لما اختار الأحد ليبحث عن هدية. ليس ممكناً أن أغفل عن السبب على أيّة حال. ظلّت تردّد «من يصدّق أنّ أربعين عاماً مضت على زواجنا». لم أنبس بكلمة كعادتي في مناسبات كهذه. إن فعلت مرّة سأكون مضطرّة إلى أن أفعل ذلك إلى الأبد. ربّما شعرت كلودا بالذنب لنسيانها عيد أمي السابق فأرادت أن تعوّض عليها. أمّا أنا فلا شأن لي بهذا الأمر. نظرت إليّ وقد ارتديت قميص قطن واسعاً. أحجمت في اللحظة الأخيرة عن التساؤل إن كنت سأذهب معهم. لم تُرِد أن تعكّر مزاجها. تحبّ المطعم، قصدته مرة في رحلة للمعلمات وبقيت منذ ذلك الحين تتحدّث عن جمال المكان وعن لقمته الطيبة. سألتني بعد أن لبست ثوباً كحلياً مقلماً بالأبيض إن كانت تبدو فيه سمينة. قلت لا دون أن أهتمّ. ثم أضافت «هل أعجبك؟ احزري كم دفعت ثمنه؟» تحبّ أن تشتري لا خلال التخفيضات العادية بل خلال التصفيات. تتباهى بعدها بقميص لم تدفع ثمنه أكثر من عشرة آلاف، وبنطلون بالسعر نفسه. عندما تسألني عن سعر ما أشتريه أكذب وأختار السعر الذي يعجبها. وإلّا اتّهمتني بالتبذير. كانت في ما مضى تصطحبني معها وتشتري لي ثياباً لا تناسب مقاسي. حجّتها أنّ السعر خيالي. لا تهتمّ إن كان أكبر منّي مقاساً. بينما أكبر صرت أرفض تجريب ما تختاره وتشتريه لي غيابيّاً. كنّا نتشاجر في المحلّات على مسمع الجميع. بعدها صرت أذهب مع رفيقاتي للتسوّق. أحتمل استغرابها إنفاقي كل مصروفي على قميص فقط. هكذا بّت ألبس ثيابي حتى تهترئ وتعتق. بعد أن صرت أعمل، لم أرافقها ولو مرة إلى السوق. مشاوير ما كان يأتي منها إلا الشجار والشكوى من تصرّفاتي اللئيمة ومن قولها المأثور «من تظنين نفسك ابنة الملكة اليزابيث؟» ثم تلعن جيلنا وقلّة عقله. لم أكن من محبّي الثياب على أيّة

حال. عكس رفيقاتي اللواتي لا يفهمن لماذا لا أقبل أبداً أن أتسوّق معهن. أيّام الجامعة كان هناك لا بين الفتيات فقط بل الشبان أيضاً من لا يُرى في الثياب نفسها مرّتين. أتخيّل أنّ بيوتهم عبارة عن خزائن دوّارة وإلّا كيف يتذكّرون ما عندهم.

كان المبرّد يهدر فأغفو ويسقط الكتاب من يدي. جفلت من رنين رسالة. نظرت بعينين تعبتين إلى صورة أرسلها رضا، جثة امرأة مقطوعة الساقين ومعلّقة فوق عمود كهرباء. هل سقطت واستقرّت هناك. قبل دقائق ربّما كانت تقف على الشرفة ككلّ خلق الله. رددت دون تفكير إنّ بإمكانه أن يعفيني من هذه المناظر. لو أردت رؤيتها لعملت في مهنة مختلفة. كنت غاضبة حقاً من تحجّر مشاعره. ردّ: ألا زلت على قيد الحياة؟ لا تقولين حتى الحمد لله على السلامة. كتبت له أنّه تمساح بلا قلب. كلّ الصحافيين يتحمّسون للمآسي ويتاجرون بها. أجاب: «يا متفذلكة هل نحن من يتسبّب بها، نحن فقط ننقل أخبارها؟ ماذا أنت فاعلة الآن؟ غضبي دفعني إلى عدم الردّ. يلزمني وقت كي أزيل هذه الصورة من مخيّلتي وكوابيسي الليلية. كما لا رغبة عندي في لقائه لا هو ولا شلّته. أردت البقاء وحدي. لا أدري أهو تعب ليلة البارحة أم شيء آخر جعلني أحسّ أنني كبرت سنوات. كأن أحداً يطاردني. أركض وأركض لكنني أبقى مكاني.

منذ الصباح الباكر وصلتني رسالتين من سابين. قالت إنّها لن تذهب إلى العمل. ستتصل لتقول إنّها مريضة. اقترحت أن تلاقيني بعد البرنامج لنأكل معاً. قلت إنّ لديّ موعداً. سألت أهو حقّاً بعد البرنامج؟ أشفقت عليها وقلت إن لديّ ساعتين من الفراغ قبله. كتبت لها العنوان بالتفصيل وأرسلته مع خريطة وجدتها على غوغل.

كان الموضوع الذي اخترته هو التأثيرت السلبية للزواج في سنّ مبكرة. ردود الكثيرين ما لبثت أن تتالت. أمثلة عن أمهات أو جدات تزوّجن

دون الخامسة عشرة. رجل آخر قال إنّه متزوج من امرأة تصغره بخمسة وعشرين عاماً وهما منسجمان. متّصلة أخرى حكت عن زواجها وهي في السادسة عشرة وكيف لا تحسّ أنها أم أولادها بل أختهم. الموضوع حساس يصعب أن يتجرّأ أحد ليخبر على الهواء مشكلته. حتى لو لم يذكر اسمه الحقيقي سيتعرّف أحدهم إلى صوته أو قصته. لذا عندما قالت امرأة إنّها الآن في عزّ شبابها ومحرومة من لذّة الحياة لأنّ عليها رعاية زوجها تفاجأت من جرأتها. قالت إنّها أصغر من أولاده. سألتها إن تزوّجته عن حبّ. قالت إنّ أهلها ألزموها به. لكنّها قطعت الإتصال بغتة كأنّها ارتعبت فجأة. مسك الختام كان اتصالاً من واحد راح يسألني عن عمري وإن كنت عزباء أم متزوّجة. عندما قلت إنّ سؤاله خارج السياق. تكلّم عن بنات اليوم اللواتي لا يجدن إلا اللبس والسهر وقلّة الحياء. الزواج ستر للمرأة. لهجته كانت استفزازية ولم أستطع منع نفسي من القول له إن الفتاة ليست فضيحة لتطلب الستر. لكنني بدوت غاضبة. أكملت الردّ عليه دون أن أنتبه إلى أنني أعطيته أهميّة أكثر مما يستحق. عادة أتمالك نفسي لكنّ بعضهم يتكلّم كأنه يملك كلّ حقائق الكون. المخرجة استغربت وسألتني باشارة من يدها عمّا بي. لأوّل مرّة أتّهم أحداً بطريقة شبه مباشرة بالتخلّف والرجعية.

لزمني وقت كي لا تعود تلك الأحاديث تدور في رأسي. جلست إلى طاولة في الداخل. انتظرت سابين ولم تأت. سألتها أين هي. أجابت إنّها عالقة في الزحمة. شربت بيرة وتجاهلت رغبتي بتدخين سيجارة. استمرّ النادل يسألني إن كنت أريد شيئاً آخر. إنّه وقت غداء والموظّفون الراغبون في اليخاني ملأوا الطاولات حولي. اختلطت روائح الصيادية بيخنة قرنبيط. على اللوح كتب بالطبشور الأبيض سعر كل طبق يومي. فكّرت بأن أطلب سلطة يونانية حين تأتي سابين. شربت بيرة ثانية قبل أن تصل.

كان شعرها مربوطاً كيفما اتفق. جاءت بشورت جينز واسع وبلوزة قصيرة ظهر منها بطنها. التفت بعضهم لتأمّلها قبل أن يعودوا إلى صحونهم.

كانت غائبة تماماً عمّا حولها لم تنتبه لا لارتطامها بالنادل ولا أنّها كادت توقعه مع الصينية التي يحملها.

كانت تنبش قطع الخضار المقطّعة بطرف شوكتها دون أن تأكل. قالت، قبل أن تبدأ بإخباري ما فعلته، إنّني سأزعل منها الآن. البارحة بعد أن عدنا من الصفرا. داومت على الاتصال بالطبيب كلّ بضع دقائق. أرادت أن تنتهي من الأمر بشكل واضح. إن كان لا يريدها فليقل بصراحة لا أن يهرب كالجبان. ظلّت تتّصل به دون فائدة. أخيراً تركت له رسالة تلو الأخرى. مرّة بلهجة متعقّلة تدعوه للجلوس والمصارحة ومرّة أخرى تتّهمه باستغلالها والكذب عليها. لكنّ أسوأ ما فعلته تهديده بفضحه أمام زوجته. همست إنّه لم يكن يجدر بها ذلك. ثم راحت تبكي غير مبالية بالعيون الفضولية التي راحت تنظر باتجاهنا. قلت لها إنّ ما حصل لا يمكن تغييره. كانت تكرّر إنّها تتمنّى الموت. كيف تستمرّ في حبّ شخص مثله؟ كأنّها شخصان. شخص يقول لها إنّ عليها نسيانه لأنه لا يستحق إلّا الاهمال، وشخص يتمنّى أن يراه ويعود كلّ شيء إلى سابق عهده حتى لو كان يتسلّى بها. عاد بكاؤها ليستجلب النظرات. الطاولات بدأت تفرغ من حولنا وراح النادل يحوم حولنا. بدّل المنافض. أخذ صحني الذي فرغ. نظر إلى صحن سابين الذي تحوّل إلى فوضى من نتف الخضار والزيتون والجبن. لم أرد أن أدعوها إلى المكتب. كيف أطلب منها المغادرة قبل الموعد. أحتاج إلى وقت قبله لأستجمع شجاعتي. نظرت إلى الرسالة التي وصلتني خلسة تحت الطاولة. «أعلم أن لا أمل لي. أعلم أنّ لا شيء عندي قد يلفتك. أعلم أنني مكبّل بقيود لا خلاص منها. لكنني أعلم أيضاً أنني أحبّك. أمتنع عن الكتابة إليك أيّاماً وأجد أنني خلالها شبه ميّت. زعلت كثيراً لأنّ هذا الرجل الحمار أغضبك. لا تهتمّي، أنت أرقّ من أن تفهمي هكذا بشاعات. أعتذر أيضاً لأنني أربكك برسائلي، لكنّها الشيء الوحيد الذي يفرح نهاري.» فكّرت بأنني معجبة بشخص لا أستطيع أن أرسم له شكلاً. مرّة واحدة كتبت أسأله عمن يكون.

لا بدّ أنني بدوت حزينة لتسألني سابين إن وصلني خبر سيئ. وجدتها فرصة لأقول لها إن عليّ أن أنصرف. لم تتحرّك عن كرسيها. سألتها لماذا لا تخرج بر فقة كريستيل. ستجد أنها نّهضت قبل قليل من نومها. قالت إنّها لا تستطيع. رفقتها لا تبهج أحداً. سألتني متى أنتهي من مواعيدي. قلت لها إنني سأقابل زوجين وبعدهما ولداً وإن انتظارها لي ليس فكرة جيدة. الأفضل أن تشاهد فيلماً أو تفعل شيئاً تلهي نفسها ومساء أتصل بها. كان اقناعها أمراً صعباً. اضطررت إلى تصفّح العروض واختيار الفيلم. قلت لها إنّ السينما قريبة بإمكانها ترك سيّارتها في الموقف. المشي سيفيدها. رضخت أخيراً ونهضت كالدائخة.

أوّل دخول الزوجين، فاجأتني هيئتهما وعمرهما. المرأة أضخم وأطول من زوجها. نحيل لونه رماديّ. بقع من العرق بادية تحت أبطيه. قدّرت من النظرة الأولى أنّهما في أواخر الأربعين. بقي الزوج واقفاً فيما جلست زوجته مرتاحة كأنّها جاءت ألف مرة إلى المكتب. أظهرت استغرابها من غياب التبريد. لا أدري لماذا شعرت تجاهها بالنفور. أهو ثقتها الزائدة بنفسها أم لإصدارها الأوامر ما إن وصلت. كانت هي من أشارت لزوجها بالجلوس. عرّفتني باسمهما وقالت إنّ لديها محلاً ربما زرته. ثم أخرجت من حقيبتها نظّارات راي بان قالت إنّها هدية لي. حكت عن محلّها وكيف كانت أوّل من تاجر بالماركات العالمية. هي لا تأتي كغيرها ببضائع مقلّدة من الصين وغيرها، تذهب إلى تركيا وتشتري كلّ ما يخطر بالبال من أصغر غرض إلى أثواب السهرة. تذكّرت أنّ عليا اشترت من تركيا عطوراً ونظّارات مقلّدة بطريقة متقنة.

قالت إنّهما متزوّجان منذ خمسة وعشرين عاماً. حكت عن قيامها وحدها بأعباء البيت. زوجها يعمل ليوم ويتبطّل لشهور. استغربت عدم مقاطعته لها. كان ساكتاً كأنّه لا يسمع أو كأنّه في مكان آخر. لم يبالِ بوصفها له خيال رجل. شعرت أنّ وجهي احمرّ عندما قالت ذلك . لولا ابنها جوزيف الذي يستمع إلى البرنامج لما فكّرت بالقدوم. فعلت ذلك

إكراماً له، يخشى مما قد يقوله الناس إن حصل هجران بين والديه. ثم نظرت باتجاه زوجها وقالت إنّها تعمل طوال النهار. عندما تعود إلى البيت تجده أمام التلفزيون، لا يسألها لا عن حالها ولا عن يومها. عندما عرضت عليه أن يتولّى تخليص البضائع ونقلها وتفريغها في المستودعات رفض. هدوؤه وصمته حيّراني وتخيّلته لا يسمع. عندما سألته ما لديه ليخبرني إيّاه عن سبب مشاكلهما. قال إنّه لا يمانع إن كانت لا تريده، سيعيش مع أمّه العجوز، ماذا يفعل هو إن تخلّت عنه المدرسة التي عمل في قسم محاسبتها سبعة عشرة عاماً؟ لا أحد يوظّف شخصاً في عمره. قاطعته زوجته لتسأله بحدّة لماذا لا يساعدها. لم يجب. حدّق بأصابعه المشبوكة متنهّداً . فكّرت في سرّي ما عساي أفعل لهذين الزوجين. لا يبدو الزوج معنيّاً بأيّ شيء أنصح به أو أطلبه. ينظر باتجاه الباب كأنه يفكّر بالنهوض والانصراف. الزوجة أيضاً كانت تردّ على كل نصيحة أذكرها بالتأكيد لي أنّها جربت ذلك ولم ينفع. متسائلة إن كنت أظنّها وُلدت البارحة . لديها تجربة كبيرة في الحياة. كنت بدوري لا أفكّر إلا بما سأقوله لها لأرفض هديتها. لم أرد أثراً منها بعد رحيلها. نظرت إلى الساعة وحين رأت أنّ وقتهما لم ينته بعد، أخبرتني عن البضاعة الجديدة التي وصلتها حديثاً. قالت إنها ستخصّصني بحسم أنا وكل من يأتي من جهتي. يكفي أن يذكر اسمي. لا يهمّ سواء كانوا رفاقي أم أقاربي. نظرت نحوي كأنّها تنتظر منيّ ردّاً. لم أدرِ ماذا أفعل. سألتُ إن كانت المشاكل بدأت منذ فقد الزوج عمله، وهل حصوله على عمل يبدّل الحال. ضحكت كأنّني قلت نكتة. سألتني إن كنت أظنّ أنّها ربّت أولادها الثلاثة وعلّمتهم في أحسن مدارس من معاشه؟ لو اعتمدوا عليه لكانوا ماتوا جوعاً. رمقته بطرف عينها هازئة. عندما حوّلت نظري باتجاهه لأسمع ردّه، لم يبد راغباً في قول شيء. أكملت هي لتقول ما حاجتها لرجل لا يأتي منه إلّا أعباء إضافيّة. اضطهادها له لم يغضبه. لأوّل مرّة ألتقي برجل مثله. ربّما لذلك حزنتُ عليه. عندما وقف قبلها لينصرف، سخرت من استعجاله وتساءلت إن كان

هناك برنامج فاته على التلفزيون؟ خرج قبلها دون قول كلمة، بقيت هي جالسة وقالت: أرأيتِ أيّ معاناة عليّ العيش معها. الواحد يريد العودة إلى البيت ليجد من يفهمه ويحكي معه ويقول له يعطيك العافية. أحسّتْ أنني لا أتعاطف معها رغم دموعها. مددتُ النظارات باتجاهها، قائلة إنّ قبول الهدايا مرفوض في مهنتي. عاتبتني كيف أرفض الهدية وأكّدت أنّها لن تأخذها. كررتْ كلمة عيب مرّات قبل أن تقف أخيراً وترحل. بعد ذهابها، شرّعت الباب. أردت أن أطرد روائح عطرها. رميت النظّارات في النفايات. رفعت صوت الموسيقى علّها تلغي الأفكار من رأسي.

* * *

رغم انقضاء أيام على مشوار نبع مرشد ظلّت أمي تشكو من المطعم الذي ما عاد على حاله، لا شيء طيّب عنده كالسابق. لا تفهم سرّ كثرة قاصديه. لكن أكثر من اشتكت منه هو كلودا. أبي كان ينظر نحوي أثناء ذلك كأنه يرجوني ألا أردّ عليها. «لا ليست ابنتي التي أعرفها» أو تقول «هل تؤدّي واجباً بدعوتنا؟ كنا كالمعاقبين نأكل صامتين» أو تهنئني على ذكائي ورفضي مرافقتهم. كان كلامها يزيدني حزناً على أختي، وأجدني أتصل بها على غير عادتي. تردّ عليّ بصوت منطفئ حتى سؤالي عن روبير وايلي لا يثير حماسها ولا يدفعها للكلام. دعواتها لأنام عندها توقّفت. رغم ذلك كنت أفعل من حين لآخر. صار لديها عادة نبش الأشياء القديمة صور طفولتنا، أشغال ورسوم من الصفوف الابتدائية لم أعرف أنها تحتفظ بها. ألبومات إبنيها في طفولتهما الأولى، ثيابهما أولّ بطانية تغطّيا بها.

هناك الكثير مما يتعلّق بطفولتي وضّبته أمي في صندوقين على التتخيتة. عندما أقول لها أن ترميها، تقول إنّها ستعطيني إيّاها عندما أتزوج ثم ترفع عينيها إلى الأعلى مردّدة «هذا إن وضعت عقلك في رأسك وتزوّجت» هناك أغراض تحتفظ بها من أجل ريتا. في كلّ مرّة تسألها لماذا لا تأخذ بعضها معها. تجيبها ريتا إنّها لا تحتاج زبالة إضافيّة في شقتها

الضيّقة. لا تيأس أمي، تكرّر السؤال نفسه في كلّ مرّة تأتي فيه ريتا إلى لبنان. في المرّة الأخيرة قالت لها إنّهما اثنان وحقائبهما تتسع. غضبت ريتا وسألتها عن حاجتها لتفاهات قديمة. تعدّد أمي المشاريع التي نفّذتها في طفولتها والدفاتر التي كتبت عليها موضوعات انشائية رائعة. هي أيضاً تحتفظ بمطرزات ويوميات من أيّام المدرسة. لديها تذكارات ورسائل شكر من تلاميذ ورسائل مصفرّة من ريتا تعود إلى أول سنتين سافرت فيهما. عندما أقرأها أجد أن أختي تبّدلت كثيراً.

اتصلت كلودا لتخبرني إنّ ايلي عاد إلى الجبل، وسكتتْ. سألتها لماذا تستغرب وهي تعلم تماماً مشاكل المراهقين مع سلطة أهلهم. سيختلف أيضاً مع بشارة ويعود إلى بيروت مجدّداً. قالت إنّها عندما تتصل إمّا لا يردّ أو يكتب لها إنّه مشغول بشيء ما. من يسمعها يظنّ أنّ نهاية العالم حلّت بها وحدها. قلت لها إنني سأنام عندها دون سؤالها إن كانت مشغولة.

في كلّ مرّة أجدها مختلفة عن المرّات السابقة. لا أستطيع أن أحزر أهو فقدانها المستمرّ للوزن أم بسبب تلك الشرايين التي برزت منذ حين في رقبتها ويديها وقدميها كأنّ جلدها شفّ. كان التلفزيون مطفأ فشغّلته. أيّ صوت أفضل من هذا الصمت. اقترحت عليها أن نذهب مع روبير إلى السينما. لم تتحمّس. استغربت أن تسألني إن كان أبي من أرسلني. أكدّت لها إنّني جئت من تلقاء نفسي. قالت إنّ أبي يربكها بزياراته، يظنّها غير فاهمة ما يجول في رأسه. تكره تلك النظرة في عينيه. «كأنني مريضة أو على مشارف الموت» قالت. تفضّل أن يفعل كأمي. لا تحبّ أن تضطرّ إلى طمأنته. تذهب إلى الصيدلية من أجله. مع أنّ بإمكانها البقاء في البيت خاصة أنّ روبير يحتاجها. لماذا أدفع لصيدلانيّة إن كنت سأعجز عن التغيّب؟ تتصنّع الضحك في حضوره وتُرهق من اختراع أحاديث وأخبار. في كلّ مرّة يدّعي أنّه كان يمرّ بالقرب من بيتها ليبرّر زيارته. إمّا كان يسير أو أنّه جاء عند واحد من معارفه القدامى. أو يقول إنّ أمي أرسلته

للاطمئنان على ما قاله الطبيب لروبير. يمرّ بالصيدلية ويبقى فيها ساعات. الموظّفة تخبرها ذلك دون أن تخفي امتعاضها. كأنّه يشكّك في نزاهة عملها. لا ينقصها أن تحزن من أجله. ارتفعت نبرة صوتها وهي تسألني أيّ مشكلة في أن تراجع حياتها، لا تحبّ ما كانت عليه. ولا ترغب في أن تبرّر نفسها أمام أحد. كدت أذكّرها أنني أقف في صفها خاصّة بعد أن راحت تكرر: «قولي له إنّني جاوزت الطفولة ولا أحتاج أحداً ليعلّمني دروساً في الحياة» أشعلت سيجارة بيد مرتجفة، خرج روبير من غرفته بعد سماعه صوت أمه. نظر نحوي ليسألني ماذا حصل. أجابته «لا شيء حبيبي. كنت أخبرها عن شيء حصل في الصيدلية». عاد إلى غرفته وارتفع صوت لعبة المطاردة التي يلعبها.

أنا التي لا أحبّ تحضير الطعام أقنعت كلودا بأن نعدّ سلطة نيسواز ونشرب جين تونيك. صرت حذرة في كلامي. لم أرد أن تظنّ أنني أفتعل حديثاً أو أنفّذ رغبات أبي. فهمت لماذا باتت تتجنّب مراسلتي أو الحديث معي. لو كنت مكانها لزعلت. ربما فكّرت بأنّ أبي هو السبب الوحيد لهذا التحوّل في علاقتنا. بينما أقطّع البندورة سألتني إن كنت أتذكّر جدي مسعود. تظلّ تحلم به في هذه الأيام. كأنّ قولها نبش من أعماقي صوراً لا أريدها. كنت في السابعة أو الثامنة، عندما زادت عوارض عجزه. في معظم الأحيان كانت أمي تتحجّج بالتصحيح أو بالتعب كي لا ترافقنا. علاقتها بأهل أبي متوتّرة من بداية زواجها. تقول إنّ جدتي كالأفعى السامة لا يطلع من فمها إلا السمّ. قبل أن يتعبه المرض كان جدي يحبّ أن أخرج معه إلى شرفتهما الكبيرة، يمسك بيدي بقوّة كأننا سنقطع مسافة طويلة. يدلّني بإصبعه إلى شوارع كانت مليئة بالخضار لا البنايات، يحكي كيف كانت الحمرا قديماً، يحكي عن أمّه التي كانت تربي الدجاج والخراف في قلب بيروت. تضحكه دهشتي وسؤالي له عن مصير تلك الدجاجات وتلك الخراف. كان يسمّي لي شتول الزهر التي زرعتها جدّتي في الأصص. يريني صوراً بالأسود والأبيض. تضيق جدتي باضطرارها

إلى نبشها في كل مرّة. تنهره طالبة منه عدم ازعاجي بقصص لا تعنيني. كنت أحبّ قصصه ولا أضجر من تكرارها على مسمعي في كلّ مرّة. لكن قبل وفاته ثقلت حركته، كان يلزمه وقت ليقطع المسافة بين غرفة النوم والصوفا في غرفة الجلوس. عندما نجلس للأكل عندهم في الأعياد. أذكر الوجوه المقطّبة. الصحون التي لا تمسّ، إسراع جدّتي لتمسح السائل الذي لطّخ فمه وذقنه وثيابه، تأنيبها له، صوت أمي تستعجل أبي للخروج لأنّها ما عادت تتحمّل كلّ هذا القرف. بعد عودتنا إلى بيتنا تستمرّ لأيّام في الكلام عن الرائحة الفظيعة والبيجاما الملطّخة بالبول. أذكر أيضاً معاقبتي لأهلي بعدها بالصمت حيناً وبالعناد حيناً آخر. في أعماق قلبي كنت أكرههم وأحسّ أنّ كلماتهم قد تعجّل في موت جدي. شكواها الدائمة من الكنار الذي أهدوني إيّاه أماتته. هذا ما فكّرت به حينها. كنت أعتكف بعيداً عنهم. ظننت أنني إن لم أسمع الكلمات سيبقى جدي على قيد الحياة. عندما مات ملأني الخوف، لم أصدّق زعم أبي بأنه صعد إلى السماء. كنت أنظر نحوها فلا أرى لا جدّي ولا الكنار.

بقي روبير في غرفته. لم يرد مشاركتنا الطعام الذي حملناه إلى الترّاس. قال إنه يريد سندويشاً من الشاورما. بعد أخذ ورد زعل مدّعياً إنّه ليس جائعاً. رضخت أخيراً واتصلت بسناك قريب. كان يردّ على كلامها بالقول لماذا تضرّهم وحدهم هذه المأكولات. رفاقه يأكلون منها كلّ يوم في العطل وفي المدرسة حتى.

في الخارج بان القمر هلالاً مشعّاً في سماء صافية. الحرّ بدأ يخفت. قالت إنّها تحلم لو أنّها في مكان آخر. بحثتْ عن معلومات على الأنترنت ووجدت أنّها قد تجد عملاً في كندا. رأت تحقيقاً عن استراليا أيضاً وغاباتها. فكّرتْ أنّ العيش في مكان شاسع كهذا يحرّر الواحد من الناس وكلّ الروابط التي لا معنى لها. تحتاج إلى مكان مختلف. كلّ شيء حولها يُطبق على صدرها. ظننت أنّها غير جدّية، من أين لها القوة لتبدأ حياة جديدة كلّها مصاعب. رغم ذلك ذكّرتها بأنّ بشارة لن يوافق ولا ابناها.

ستخسر حقّها في حضانتهما إن فكّرت بالسفر. موسيقى هادئة على البيانو بدأنا نسمعها. قالت إنّ جارهم موسيقي. غالباً ما تسمعه حين تهدأ حركة الشارع. ساعات عزفه تستمرّ إلى ما بعد منتصف الليل. لم ترض أن توقّع عريضة السكان المحتجّة. قالت إنّها تفتقد عزفه حين يكون خارج بيته. عندما سألتها عن عمره، قالت إنّها لا تعرف من منهما يعزف. هما أخوان غير متزوجين. أحدهما في الستين ربما والثاني أصغر بقليل. الكبير فيهما لا يركب في المصعد أبداً وعندما يلتقي أحد الجيران في المدخل يحني رأسه كي لا يضطرّ إلى إلقاء التحية. انحنينا فوق الداربزين لتدلّني على جمال الأحواض فوق الشرفة. لو أنّها أكثر جرأة لطلبت منهما غصناً من تلك الشتول. لا تحبّ النبتات التي عندها لأنّها تشبه ما تراه في كل البيوت. قلت لها إنّها يابانية على ما أعتقد.

ذكّرتني بشيء كنت أفعله في طفولتي. كنت آكل أوراق وأغصان الشتول، رغم مراقبة الجميع لي كنت أتسلّل بخطوات متعثّرة لأحشر ورقة أو شيئاً من تراب الأصص في فمي. لا الضرب على اليد ولا شيء كان يردعني. ما كانوا يفهمون كيف أحبّ هذا الطعم الكريه. ضحكت وقالت إنني كنت آكل أشياء مقزّزة حتى وأنا أكبر. كنت آكل حبّات الثوم وتظلّ رائحته تفوح من أنفاسي. قالت يبدو أنّ هذه الأشياء وراثية وحكت عن روبير الذي اضطرّها إلى اخراج كل الشتول من الداخل في طفولته. لكنّه لم يكن عنيداً مثلي.

في المباني قبالتنا، كانت الأنوار تُطفأ تباعاً. أنا أيضاً أردت النوم. كلودا تحجّجت بالتوضيب وغسل الأطباق والكؤوس. نهضت لتتفقّد روبير في نومه. تأكّدت أنّ لديّ في الغرفة كلّ ما يلزمني. وقفت قليلاً في الباب كأنّها متردّدة في قول شيء. لكنّها لم تفعل.

تقلّبت في السرير دون أن يأتي النعاس. كأنّ كلودا تنقل إليّ عدوى أفكارها. في كلّ مرّة أراها، يحصل لي الأمر نفسه. تركت السرير وعدت

إلى الشرفة. كانت لا تزال تدخّن ناظرة بثبات إلى نافذة مضاءة، امرأة عجوز جالسة في قميص نومها، يداها مشغولتان في شيء على الطاولة لا يبين بوضوح . أخبرتني إنّها تبادلت ايميلات مع ريتا مؤخّراً. قالت إنّهما كالغريبتين الآن. كانتا مقرّبتين في صغرهما. حتى في المدرسة، لم تكن ريتا كالأخوة الكبار الذين يتهرّبون من رفقة أخوتهم الصغار. مرّة عوقبت بالطرد لأسبوع لأنّها ضربت صبياً ظلّ ينادي كلودا بألقاب تبكيها. تتفقّدها في كلّ الفرص. لم يكن هناك أسرار بينهما. كانت تحميها حتى من والديها. عندما أفسدت كلودا مكنسة السجّاد، ادّعت ريتا إنّها هي من فعل ذلك. تحمّلت حرمانها من المصروف لثلاثة أشهر. الآن حين تتذكّر ما حصل لا تعلم كيف لم تفكّر حتى بتقاسم مصروفها مع ريتا. كانت رأت دعاية عن كيفية شفط المكنسة لكلّ شيء بثوانٍ، دلقت ما في الزبالة ووضعت أوراقاً مجعوكة ومحارم ودبابيس الشعر كما في الدعاية.

قالت إنها تتفهّم أسباب هذا الجفاء. هي مسؤولة عنه. «كلّ هذه السنوات أتتخيّلين مقدار اللحظات التي مرّت دون جدوى؟» قالت فيما انهمكت بجمع الصحون. ساعدتها رغم اعتراضها. شغّلنا التلفزيون. جلسنا صامتتين. صور من الكليبات مرّت فوق الشاشة. حدّقنا إليها. أنا كنت أفكّر أنني غداً لن أذهب إلى الاذاعة. من أين أتى كلّ هذا التعب؟ لا أريد أن أرى أحداً. لا أريد أن يتّصل بي أيّ مخلوق.

الرسائل التي وصلتني في اليوم التالي لم تدفعني إلى تبديل رأيي. كلودا لم تسألني شيئاً عندما لاحظت أنني جلست في ثياب النوم أشرب معها القهوة. كأنّنا درجنا على فعل ذلك كلّ صباح. عدا الاذاعة أتصلت أمّي. عندما لم تلق جواباً تركت رسائل صوتية تصاعدت لهجتها مع بدء البرنامج دون أن تسمع صوتي. قالت كلودا إنّها كذبت على أمي مدّعية أنني أعاني من آلام حادة في بطني. عندما تهيّأت للخروج، عدّدت لي أصناف الطعام في البراد في حال رغبت بالأكل. قالت إنّ غيابها لن يطول على أيّة حال. ستوصل روبير في طريقها لأنه مدعوّ لقضاء يومه

عند رفيقه. كان عقلي هامداً. لا أعلم إن كنت سأبقى أم أرحل. لكن إلى أين؟ في البيت لن أنجو من أسئلة والدي عن آلامي المزعومة وعمّا إذا كنت أبلغت الاذاعة وأشياء لا أريد التفكير فيها. كيف أخذتني الظروف إلى القبول بهكذا عمل؟ الكلام مع الأزواج أو عن مشاكلهم كان يفسد روحي كلّ يوم. أسوأ ما عشته هو أن أستمع إلى تراشقهم اتهامات، كأنّ لا شيء جمعهم ذات يوم. الأولاد عالم أحبّه رغم تأكّدي أنني لن أنجب ولداً أبداً. أحبّ تخيّلاتهم، أقوالهم التي لا تخضع لسلطة الكبار. فكّرت أن أخرج ولم أدرِ إلى أين. أحبّ السير. الزحمة لا تضايقني، لكنّ الحرارة تملؤني كسلاً. قالت كلودا شيئاً عن خروجنا معاً إلى الجبل حين تعود. لكنني لا أقوى على أيّ مجهود. لا أرغب لا في الطبيعة ولا في أيّ مكان. سابقاً كنت حين تستولي عليّ هذه الحالة أهرب إلى الاحتفال والخروج مع أصدقائي. لا أدري ما الذي اختلف الآن. أنا وحيدة في بيت صامت.

لم أنتظر عودة كلودا، الحرّ جعل سيري بطيئاً. كنت أقطع الشوارع شاردة الفكر، تجنّبت الحمرا وجلست في مقهى بحري جهة الروشة. روّاد قليلون يتوزّعون في أرجاء المكان. واحد مشغول بالكتابة على أوراق مسطرة. وآخر يأكل فولاً مدمّساً ويشرب ليموناضة. امرأة ثلاثينيّة تتجادل مع رجل بصوت عالٍ. يتكلّمان عن إرث ما. تكرّر أنّها لن تتخلّى عن حقّها. البحر ضرب الإفريز وبلّلني برذاذه. لأوّل مرة أقصد المكان. طلبت ليموناضة، فتحت رواية بدأت قراءتها منذ أكثر من عشرين يوماً. أعاني للتقدّم فيها. كلّ كلمة أقرأها أحسّها تحفر في قلبي. تعيد إليّ ما لا أريد الاعتراف بوجوده. كانت أمي تسخر مني عندما أبكي بسبب رواية أثّرت بي، لذا اعتدت أن أفعل ذلك وحدي. رجل يصطاد على الإفريز الصخري رفع من طرف صنارته سمكة كبيرة تخبّطت بين يديه وكادت تسقط ثانية في البحر. هاتفي يرتجّ مرّات. أطفئه دون النظر إليه، كأنّه مصدر وباء. حديث كلودا عن العيش بعيداً جعلني أفكّر بأحلام تخلّيت عنها. ليس إكمال تعليمي ولا الوصول إلى أي ممّا يطمح إليه الناس. أريد

فقط أن أحسّ أنني خفيفة. أن أمشي في الشوارع دون أن ألتقي بشخص يعرفني. أن أكون نكرة تامّة. أنظر إلى النوارس كأنّها تمشي فوق الأمواج. صوتها يجرح الهواء حولي. تذكّرت المرّات التي كنت أذهب فيها برفقة والديّ إلى شاطئ بعيد خارج بيروت. لا أعرف إن كان جهة الجنوب أم الشمال. كانت أمي تخجل من ارتداء المايوه. تلبس شورتاً يصل إلى ركبتيها وبلوزة. أمّا أبي فقد قصّ بنطلوناً قديماً إلى حدود الركبة وجعل منه لباس سباحته لسنوات.في بيروت لا تستطيع أمي أن تفعل ذلك. تخشى أن تلتقي بتلاميذها او أحد معارفها. كانت رحلات قليلة لكنني بقيت أتذكّرها. عائلات كثيرة كانت تأتي إلى الشاطئ محمّلة بالأطعمة والأراكيل. خليط من كل الأعمار. بعضهم بملابس السباحة وبعضهم ينزل البحر بكامل ثيابه. ما كنت أحبّه هو كثرة الأولاد. بسرعة تنشأ صداقة بيني وبينهم وأقضي النهار أبني معهم قصور الرمل أو نحفر لنصنع بحراً صغيراً يتّسع لنا جالسين. كنت آكل أيضاً من طعامهم، متجاهلة مناداة أمي المتكرّرة لأعود، أو لأضع قبعة فوق رأسي. لا أذكر أنني التقيت الأولاد نفسهم أكثر من مرّة. كان يحلو لي أن أكون ما أريد. مرة دلّلتهم على امرأة لا أعرفها ادّعيتُ أنّها أمي. كما قلت إنّ بائع البوظة في الكشك هو أبي. هذا أكثر ما كنت أحسد عليه، هذا يعني أنّ بامكاني أن آكل بوظة قدر ما أشتهي. بعضهم كان يشكّك بقصصي خاصّة أنني كنت أخبر عن ساحرة تأتي ليلاً إلى غرفتي بعد أن ينام أهلي. أصف الأماكن التي تنقلني إليها، قصور الشوكولا، مدينة الأقزام، غابة تمشي فيها الأشجار وترقص. كنت أبكي بمرارة عندما أواجه ولداً مشكّكاً. تلك القصص كانت بالنسبة إليّ أكثر واقعيّة من الحياة. لم يخطر لي أبداً أن أسأل أحد والديّ عن تلك الشطآن البعيدة. كنّا نقضي اليوم بطوله. أذكر غروب الشمس وانسحاب الأشعة الحارة، الحصائر التي تُنفض، قرقعة الأواني، عنادي في أن نغادر قبل الأولاد الآخرين. تهديد أمي بعدم اصطحابي ثانية كان يدفعني للرضوخ. لوقت طويل حفظت أسماء هؤلاء الأولاد الذين تعرّفت عليهم

على مدى أكثر من ثلاث سنوات. كانوا لي وحدي ولا يشبهون أولاد مدرستي في شيء. أستمرّ لأيام في تبنّي لهجاتهم وطريقة نطقهم لكلمات ما كنت أعرفها. كان ذلك يضحك أهلي وما كنت أفهم لماذا يشبهانني بالإسفنجة.

* * *

مرضي المزعوم صار حقيقة. حرارتي ارتفعت إلى تسع وثلاثين درجة. ألم قوي في رأس معدتي. كنت أرتجف برداً رغم الحرّ القوي. أخلط بين أوقات النهار وأرفض إصرار أمي على أن أذهب عند الطبيب. لا قوة لديّ لأقف. العالم حولي تحوّل إلى خيالات وأصوات غير مفهومة. أحلام اختلطت فيها وجوه من الماضي البعيد. كوابيس رأيت فيها أنني أقود السيارة من أعلى الجبل. الطريق تضيق كلما تقدّمت. وادٍ لا قرار له أخشى أن تتدهور السيارة إلى قاعه الأسود. في الأخير أفتح عينيّ بينما أهوي. أبواب السيارة تنفتح وتنفصل عن السيارة كأنّها من ورق. لماذا لا أفتح عينيّ قبل أن تسوء كوابيسي. دائماً تصل إلى خواتيمها المرعبة. هناك كوابيس تحيّرني، في الواقع لا أخاف الحشود لكن أثناء نومي، أركض وتطلع الوجوه والناس كأنّها تنبت من تحت قدميّ من أمامي وخلفي. أهرب كأنّ وحوشاً تطاردني. كما تتحوّل وجوه أهلي وأصدقائي إلى أخرى مفزعة وشريرة. حتى الأولاد الذين أتابعهم تتبدّل ملامحهم وتمّحي الطيبة والبراءة عنها.

الأدوية التي أحضرتها كلودا لم تزل ألم معدتي لكنها أعادت حرارتي إلى طبيعتها. ظلّت أمي تنقل إليّ أخبار المتّصلين خاصّة من الاذاعة. تنسى اتصالات رفاقي وأنا ما كنت مبالية. على مدى ثلاثة أيّام لم يدخل فمي إلّا الماء. لا أنواع الحساء ولا اللبن المخفّف بالماء استطعت تحمّله. ملعقة واحدة كافية لتأجيج أوجاع تمتدّ من معدتي إلى صدري. في اليوم الرابع تمكّنت من أكل ملعقتي أرز والقليل من اللبن. كلّ حركة

تتطلّب منّي جهداً. حين أستوي في جلوسي يخفق قلبي كالمجنون كأنني شاركت في الماراتون. جاءت سابين ليلاً وقالت إنّها أخذت العنوان من كريستيل . تذكّرتُ تجنّبي دعوة رفاقي إلى بيتنا. قالت إنني عندما أتفقّد هاتفي سأجد أنّها ملأت بريدي الصوتي بألف رسالة. اعتذرت لأنّها لم تعرف أنني مريضة إلى هذا الحدّ. أسفها على حالتي لم يدم، كانت في عجلة لتتكلّم عن الطبيب. مجرّد ذكره أشعرني بموجة من الآلام الجديدة. قالت إنّها رأته وحده في الكافيتيريا. سحبت كرسياً ببساطة وجلست، قالت له بهدوء إنّها لم تترك وسيلة لمعرفة بماذا أخطأت. ثم وصفت تأثّره وقوله إنّه رغم إعجابه بها، لا يستطيع أن يربطها به. مهما كان وضعه مع زوجته عليه أن يفكّر بمصلحة أولاده. لا ذنب لهم. أيّ قرار أو أي انفصال سيؤثّر بصحتهم النفسيّة إلى الأبد. قال إنّها تعلم هذه الأمور ولا يظنّها تقبل بأن يدفع أبرياء كالأولاد الثمن. وصفت حزنه والألم الذي بدا على وجهه. سألته عن الممرّضة التي تراه يكلّمها ادّعى إنّها نسيبة لزوجته وهو لا يفعل سوى مساعدتها ريثما تستقرّ في عملها الجديد. قال إنّها مجرّد طفلة كيف تغار منها؟ المصارحة أفادتها إلى حين لكنها فكّرت ما ذنبها هي أيضاً؟ كيف تلتقيه كلّ يوم وتقبل أن تتحوّل إلى غريبة. هل يمكن أن تنتهي قصة حبّ حياتها بكلمة. لا تحسّ أنّها ستنسى وتعيش كأنّ شيئاً لم يكن. هو يعود إلى زوجته وأولاده في آخر النهار، هي لا تعود إلّا لوحدتها وذكرياتها. لم أقل لها بالطبع أنه ممثّل كاذب. كيف تغيب عنها ألاعيبه. ألهذا الحدّ يعميها حبّه. هل أنا مثلها دون أن أعي ذلك؟ أخفت عينيها الدامعتين عندما دخلت أمي لتقدّم لها كوب ليموناضة. لأوّل مرّة لا يزعجني أن تجالس أمي ضيفتي. أغمضت عينيّ فيما راحت أمّي تخبرها عن شدّة مرضي ورفضي الذهاب إلى الطوارئ. لولا كلودا لكانت حالتي في الويل قالت. علمت أن كريستيل جاءت البارحة رفضت أن يوقظوني من نومي. بدأت أمي كعادتها تستجوبها عن عملها وأهلها سألتها حتى عن راتبها ودوامها، تململ سابين لم ينفع

في إسكاتها. ضحكت في سرّي وفكّرت أن المسكينة سابين لن تعرف الخلاص الآن. كلّما حاولت الوقوف لتستأذن وتنصرف، عاجلتها أمي بخبريّة أو سؤال. كأنّها كانت صائمة لشهور عن الحديث. أبذل جهداً لأبقي عينيّ مفتوحتين. لم أحسّ بهما تخرجان من غرفتي. لم أدرِ كم من الوقت غفوت لكن حين فتحت عينيّ كان الظلام حالكاً. من حركة الشارع قدّرت أن الوقت جاوز منتصف الليل. منذ أيام لا أدخل الحمام دون أن أتّكئ إلى الجدران. لم أدخّن خلالها أيّ سيجارة. الشعور الدائم بالغثيان أفقدني الرغبة في أيّ شيء. جلست في عتمة غرفة الجلوس، برد اقشعرّ له بدني. أهلي ما عادوا يشغّلون التبريد ليلاً. حين يبدأ شهر أيلول يحسّون أنّ الصيف انتهى حتى لو استمرّ الحرّ إلى عيد الميلاد. كنت جائعة بعد كلّ هذا الصيام ولا أعرف كم خسرت من وزني. فتحت البرّاد دون اضاءة لمبة المطبخ، سمعت عطسات أبي وتقلّبه في الفراش. خفت أن ينهض، أودّ أن أبقى وحدي. انتظرت أن تهدأ حركته وفتحت البراد ثانية. القليل من الكفتة في الصينية، بقايا من طبخة محشي باذنجان،نصف قالب جبنة فتة، علبة حلاوة بالطحينة، في الأخير اخترت علبة اللبنة وخيارة وورقتي خس. شغّلت التلفزيون دون صوت، لم أجد إلّا أفلاماً عن الغزو الفضائي للأرض وأخرى يستمرّ فيها بطل الفيلم بضرب كل من يلتقيهم، لا أفهم كيف يتفوّق عليهم مهما كان عددهم وعتادهم. لمن يضعون هكذا أفلام؟ حتى محطّة الموسيقى تعرض كليبات لا أحبّها. اللبنة حامضة الطعم، أوّل قضمة من الخيارة أشعرتني بعودة الألم إلى معدتي. لم أجد وقتاً كافياً لأسرع إلى غرفتي حين سمعت خطوات أبي باتجاه غرفة الجلوس. عندما أشعل اللمبة جفل وهو يراني على الكنبة. قال إن الحرّ والبرغش أيقظه. سألني إن كنت أفضل حالاً وتبرّع على الفور حين رأى الصينية أمامي بتسخين حساء الدجاج الذي أعدّته أمي من أجلي. قلت إنّني شبعت. نظر إليّ متردّداً ثم سألني إن كانت كلودا أخبرتني شيئاً. سألته عمّا يقصده. بدا مهموماً وعجوزاً

أكثر من أيّ وقت مضى. الشعرات الطويلة في أذنيه كثيفة، استغربت أن يتركها هكذا. اعتدت أن أراه يشذّبها واقفاً إلى المرآة. بسبب ذلك كنت أنظر إلى آذان رفاقي وأتساءل إن كانوا يزيلونها بمهارة أم هم مختلفون عن أبي. سأل مشكّكاً ثانية ألم تخبرني عن نيّة بشارة بالزواج ثانية ؟ هو ينتظر فقط أن تصبح أوراق الطلاق نهائية؟ أكّدت له أنها لم تفعل كما ذكّرته بأنني كنت شبه غائبة عن الوجود في الأيّام الماضية. أجاب إنّ بشارة أخبر كلودا منذ أكثر من أسبوعين. قلت إن شيئاً ايجابياً قد ينتج عن ذلك. قد يعود إيلي إلى حضن أمه أكثر تعاطفاً. لا لن يعيده قال ووالده ينفّذ له كل رغباته، أيّ أب يشتري رضا ابنه بهذه الطريقة ألا ينتبه إلى أنّه يفسده؟ ارتفعت نبرة صوته وهو يردف أنّ الأمر نفسه سيحصل مع روبير. حاولت أن أتذكّر إن كانت كلودا أوحت لي بالأمر. لا لم تفعل. قال إنه يحسّ دائماً بأنه أخطأ في حقّ كلودا. كان عليه أن يسعى بطريقة أفضل لإصلاح زواجها. حين يرى مقدار ما أثّر بها الأمر يعلم أنّه أب فاشل. سكت طويلاً بانتظار أن يبتلع دموعه. فكّرت أن أستغنم الفرصة لأدّعي النعاس وأنهض. لكنّ قلبي لم يطاوعني. تماهى مع حالة كلودا وصارت كآبته دائمة. أشياء كثيرة أقلع عن فعلها. كالذهاب أيام الآحاد إلى الكنيسة والجلوس مع جارنا للعب الطاولة أو مرافقة أمي في زياراتها لمعارف وأقارب إمّا للتهنئة أو لتقديم العزاء. ذهابها دونه كان سبباً دائماً في شجارهما. تسأله أيّ حجة لغيابه، ماذا تقول. من يصدّقها حين تقول على الطالع والنازل إنّه مريض. ما عاد يشغل يومه بإصلاح الأشياء في البيت. حتى حين تكرّر أمي شكواها من حنفيّة تنقط أو من انسداد بالوعة يتظاهر بعدم سماعها، حين يضيق بشكواها يقول لها إنّه ليس سمكرياً، لتتصلْ بواحد. يجنّ جنونها حين يردّ عليها بهذه الطريقة. تبكي مردّدة إنّ حظّها قليل في هذه الحياة. لا تسكت إلّا بعد أن يراضيها ويشكرها على صبرها في تحمّله. لكنّ قوله لا ينطلي عليها، رغم أنها تهدأ تظلّ تقول «يظنّني ولدت البارحة ليضحك عليّ بهكذا كلمات».

أحياناً تحاول أن تدخلني وسيطاً أو شاهداً بينهما. أرفض دائماً مكرّرة أنّه ليس شأني. تردّ أنّ لا خير يأتي منّي أبداً.

من أمي علمت أنّ تانيا أخبرت المستمعين عن مرضي متمنّية لي الشفاء العاجل، خبيرة بسمنة الأولاد حلّت مكاني موقّتاً. الوجع جعلني بعيدة عن العالم. لا أردّ على الاتصالات ولا أتفقّد بريدي. ولا أجد القوة لأقرأ. حتى الموسيقى لا تريحني. النفخة في بطني ما كانت تزول. رغم محاولتي أكل القليل من البطاطا المسلوقة أو اللبن، كنت أحسّ بتعسّر شديد في هضم ما آكله أو أشربه. كأنني أكلت وليمة دسمة لا نصف حبّة بطاطا مسلوقة. فكّرت أن أذهب وحدي عند الطبيب. لم أرِدْ أن يرافقني أحد رغم وهني الشديد. انتظرت خروجهما من البيت.

الطبيب الذي عاينني في الطوارئ طلب جملة من الفحوصات. لولا التأمين الصحي عن طريق أمي لما قدرت على دفع هذه المبالغ. انتظرت ساعة ريثما تأتي موافقة شركة التأمين. كالعادة لا يمكن رؤية ما يسرّ في المستشفى. ولد يصرخ ويبكي فوق نقّالة. امرأة غائبة عن الوعي يجرّها المسعفون بأسرع ما يستطيعون. ممرّضة تحاول عبثاً إيجاد شريان في ذراع عجوز. أغمض عينيّ. الدوخة تشتدّ كأنني سأفقد وعيي. أنهض بثقل إلى الحمام لأغسل وجهي بماء بارد. ليت هناك دواء سحريّاً يقضي على هذه السكاكين التي تنخر أحشائي دون رحمة. كنت أشعر أنني وحدي بشكل مخيف. لا شيء يربطني بأحد أو بمكان. ماذا لو كان مرضي خطيراً؟ هذه الأمراض لا توفّر أحداً. تذكّرت ماريا، غابت في آخر السنة الأولى المتوسّطة ولم تُجرِ الإمتحانات. عادت في بداية العام الثاني بشعرٍ مستعار أشقر يصل إلى أوّل كتفيها. تهامس رفاقي طوال النهار لا عن مرضها بل على أنّها صارت صلعاء. بلا رموش تقريباً وبحواجب مرسومة بقلم كحل. لم نُخفِ نظراتنا الفضولية إليها في الصفّ. لسبب نجهله كان عليها البقاء خلال الفرص بعيداً عن الملاعب. أحياناً في المكتبة أو في الصف برفقة واحدة من صديقاتها. لم تبق إلا أسبوعاً وغابت السنة بكاملها. لا أدري

لماذا كنا نتفادى الاقتراب منها أو التحدّث معها. قبل امتحانات آخر السنة أعلمتنا مسؤولة الصف بأنّ ماريا ماتت، أذكر البكاء والحزن الذي استمرّ إلى الفرصة الأولى. خصّصت لنا ساعة لنكتب رسائل وُضعتْ فوق طاولتها الشاغرة. بعدها عاد الجميع إلى ما كان عليه. حتى مباراة كرة السلّة بين صفنا وصف آخر لم تؤجّل، أُجريت عند فرصة الظهر وانتهت بفوز صفّنا واحتفال الجميع بالأغاني والأناشيد المؤلّفة في لحظتها. كانت المرّة الأولى التي أفكّر فيها أنّ الموت ليس حكراً على العجائز بل يصيب الصغار. بعدها بسنة مات رفيق لنا في حادث سير هو وأبوه. ثم كرّت السبحة. ألف طريقة للموت حتى الوقوع عن الجت سكي. ما عاد الموت فكرة مبهمة وبعيدة. كنت أخاف أن يصيب أمي أو أبي أو أيّاً من رفاقي. ماريا التي لم أكن رفيقة لها صارت بعد موتها هاجساً يسكنني. وصرت أتذكّر أشياء تتعلّق بها. في الحضانة الأولى كانت مثلي في فريق الهنود الحمر، تجلس قربي. أذكر أنني كنت أحبّ أغراضها وأتبادل معها الأشياء. هكذا استبدلت مبراتها التي على شكل بيت ملوّن بممحاتي التي على شكل دولاب. تلك المبراة بقيت معي لسنوات. لاحقاً كنّا أكثر من يتغيّب عن حصّة الرياضة. معظم الأحيان نأتي بحجج وهمية يكتبها أهلنا لنا. ترسلنا الناظرة إلى المكتبة. هناك كانت تضحك بصوت مسموع وهي تقرأ القصص المصوّرة. كانت طويلة مثلي لكنّها شقراء وعيناها عسليتان. أذكر بياض جلدها الذي تحوله الشمس إلى أحمر كأنّه احترق. حتى دروس السباحة التي كنت أحبّها كانت هي تحاول التملّص منها. كانت معلمة الرياضة تصطحبنا بدءاً من الربيع إلى مسبح عند الروشة لنتمرّن على مختلف الرياضات المائية. عندما تجبرها المعلمة على تنفيذ القفزة من علو إلى البركة كانت تتقدّم خطوة ثم تبدّل رأيها وتفرّ هاربة إلى خلف مصطدمة بمن دوره بعدها. لا أدري كم من الوقت بقيت ذكراها هي الفكرة الأخيرة قبل أن أغمض عينيّ وأنام. ظللت لوقت طويل كلّما دخلت مكتبة المدرسة أنظر إلى حيث كانت تجلس قريباً من رفّ القصص المصوّرة.

بعد فحوصات الدم عيّنوا لي موعداً لفحص المعدة بالمنظار. الفكرة أرعبتني. تخيّلت أنبوباً معدنياً سيحشر من فمي إلى معدتي. الطبيب وصف لي دواء قال إنّه سيهدّئ ألمي إلى حين تأتي نتائج الفحوصات، شدّد أنّ الدواء ليس علاجاً بل هو فقط لحماية المعدة. عندما سألته ثانية ما يعتقده. قال إنّ هناك احتمالات عديدة لا يستطيع أن يجزم قبل أن يرى نتيجة زرع الدم. تهرّبه من أن يشخّص سبب مرضي، دفعني إلى الاعتقاد أنني مصابة بسرطان ما. اشتريت الأدوية من صيدلية في طريقي. لم أرد أن تعرف لا كلودا ولا أهلي بأنني قصدت الطوارئ. لم أتوقّع أن تجاوز الفاتورة المئة ألف ليرة. ما كنت أحمل معي مبلغاً كافياً. سألت الصيدلاني عن كلّ دواء كي لا أستغني عمّا يخفّف الأوجاع. قلت إنني سأعود لشراء الباقي. هذا مبلغ كان بامكاني توفيره لو أخذت أدويتي من عند كلودا. لم أنتبه إلى أنني وصلت إلى البيت. طوال الطريق كنت أفكّر بالأشياء التي أزعل بسببها. مقارنة بالمرض ما أتفهها. عندما دخلت البيت كانت أمي قد عادت، نادتني من المطبخ، قالت شيئاً عن أنّ خروجي يعني تحسّني فلماذا لا أتّصل بالاذاعة لإعلامهم بموعد عودتي. ابتلعت دواء الحماية حالما دخلت غرفتي. جلست أتفقّد مواقع الصحّة على غوغل. كتبت عوارض مرضي ووجدت احتمالات بسيطة وأخرى خطيرة. العوارض نفسها تنطبق على عشرات الأمراض. كيف أعلم مابي. عدت إلى سريري. حاولت إبعاد الهواجس عن رأسي. لم أستطع. فكّرت بأن أسأل كلودا علّها تطمئنني. كيف سأحتمل أسبوعين من انتظار النتائج. ندمت لأنني لم أسأل الطبيب مباشرة. لكنني لم أجرؤ، خفت أن يقول إنّ السرطان واحد من الاحتمالات. ماذا أفعل؟ ارتحت عندما قرّرت أن أقتل نفسي. لست مضطرّة لتحمّل علاجات بلا أيّ فائدة. لن أصدّق تطمينات الأطبّاء. سمعت مليون مرّة عمن يموتون رغم العلاج الطويل. حاولت الاستماع إلى الموسيقى، الألم بدأ يتراجع شيئاً فشيئاً. تأمّلت أن يكون الموضوع بسيطاً وإلا كيف زالت أوجاعي. كان عقلي يعود إلى الأسئلة

التي طرحها عليّ. ما شأن حرقة المعدة التي كنت أعاني منها منذ أكثر من سنة. ذكّرته بأنني أشرب الكحول، لكنه لم يعلّق. سألني عن آخر مرّة أجريت فيها فحوصات. قلت إنّني لم أفعل منذ تعافيت من فقر الدم لكنّ ذلك كان قبل بلوغي السابعة عشرة. فكّرت أن أقصد الطبيب العائلي الذي يعايننا جميعاً. يعرفني منذ صغري ولن أتردّد في طرح كلّ الأسئلة التي تخطر ببالي. لا بدّ عاين مئات الحالات الشبيهة بحالتي. طمأنت نفسي بأنّ كلودا ما كانت تسكت عن الأمر لو أنّها شكّتْ بمرض خطير. كانت أجبرتني على استشارة الطبيب.

في اليوم التالي استيقظت من نوم دام إحدى عشرة ساعة متواصلة. لا أذكر أنني رأيت أيّ حلم. لم أنم بهذا العمق منذ زمن. لكنني أوّل ما فتحت عينيّ قفزت إلى دماغي أحداث البارحة. وضعت يدي فوق بطني. لولا النفخة لفكّرت بأنني شفيت تماماً. سخرت من سوداويتي وسخافة هواجسي. أمسكت بهاتفي لأوّل مرّة منذ ثمانية أيّام. تجاوزت رسائل رفاقي دون قراءتها. رسالة واحدة منه كتب فيها إنّ فكرة مرضي هي أصعب ما واجه. لو قيل له إنّه سيموت بعد لحظات لكان أسهل عليه من أن يعلم أنني مريضة. قرأت أس أم أس من مدير البرامج الذي تمنّى لي شفاء عاجلاً طالباً في أن أراه في أقرب فرصة بعد عودتي. شعرت بشيء من الفرح لم أعلم مصدره. ارتديت ثيابي وفكّرت بالجلوس في مقهى في الحمرا. منذ زمن طويل لم أفعل ذلك. احترت ماذا ألبس. لا أستطيع رغم تفضيلي للبنطلون أن ألبس واحداً أخاف أن يضغط على بطني ويؤلمني. وجدت فستاناً قطنياً أزرق، لا أذكر متى اشتريته. ربما فعلت حين عملت بائعة. طويل وواسع يصل إلى كاحلي. أخذت معي سترة خفيفة لأنّ النسمات الباردة بدأت تهبّ في الصباحات.

اصطدام بين سيارتين تبعه زعيق وتهديدات وشتائم. أسرعت لأبتعد. دركي يوقف السير في الاتجاهين. لا يأبه باحتجاجات السائقين المتوجّهين إلى عملهم. قلت أختار مقهى لم أدخله سابقاً. تجاوزت تلك

الكائنة في شارع الحمرا الرئيسي. كانت الأرصفة لا تزال زلقة. ماء الشطف لم يجفّ بعد. شعرت بدوّار خفيف. أطفأت السيجارة بعد مجتين. الفرح الذي أحسسته صباحاً تلاشى تدريجياً، كدت أعود أدراجي. رغم ذلك أكملت باتجاه السادات. طلّاب مسرعون إلى صفوفهم، أسمع نغمات الموسيقى المتسلّلة من سمّاعاتهم. مررت بالقرب من البناية التي يسكنها رضا. مضى وقت طويل لم ألتقه أو أراسله. هو أيضاً ما عاد يبعث لي بشيء. جهاد فعل منذ أكثر من شهر، دعاني لحضور فيلم لبناني قال إنّ لديه العديد من الدعوات وإنّ بامكاني إحضار شخص معي. شكرته دون أن أقول له إنّني لست من هواة الأفلام اللبنانية. كنت أسير كمن يجرّ قدميه جرّاً. الطلعة قطعت أنفاسي. رغم أنّ الساعة لم تتجاوز التاسعة وجدت المقهى يعجّ بطلاب الجامعة القريبة. كبار أيضاً ربما هم معلّمون في المدرسة قبالة المقهى. كأنّ هذا الشارع خارج بيروت بالنسبة إليّ. منذ سنوات لم آتِ إليه. تبدّل كليّاً. زال البستان والخضار. أبراج عالية قامت مكان الأشجار. جلست في الخارج لكنني أدرت ظهري إلى الطريق وإلى حاجز الأمن على مدخل المدرسة. عندما خفضت رأسي أحسّست أنه طافح بمادة ثقيلة. أحرّكه ببطء كي لا يلتمع بشرارات كهربائية. رأيته قبل أن أنهض لأشتري كوب قهوة. عرفته من ظهره ومن حركاته. أميّزه حتى لو كان بين مئات الناس. كان برفقة ثلاثة، شابان وفتاة. هي التي رأيتها معه في المعرض. لا أدري لماذا شلّت حركتي. ولماذا لم أغادر على الفور. كان صعباً أن أسمع أحاديثهم لأنهم في القاعة الداخلية. التفتْ ذراعه حول كتفيها. كانت يده تسوّي بين الحين والآخر خصلة من شعرها. ينحني جهتها. يهمس شيئاً في أذنها. تضحك تقرص خده. يرفع يدها إلى شفتيه ويقبّلها. يتقارب رأساهما فيما يريها شيئاً على شاشة هاتفه. الشابان قبالتهما بدوا منصرفين إلى حديث فيه بعض الحدّة. هو لا يسمعهما على أيّة حال. يده ثانية ترتفع نحو أذنها لتداعب طرفها . كأنّهما وحدهما لا شيء ولا ناس حولهما.

مسحت دموعاً نزلت رغماً عني. أخفيت عينيّ بالنظارات الشمسية. تذكّرت كيف كنا نعجز عن أن نكون برفقة بعضنا دون أن نتلامس. لا نهتمّ لا للناس ولا للأمكنة التي نكون فيها. أذكر الكثير من المواقف المزعجة بسبب ذلك. مرّة طُلب منا في مطعم أن نغادر لأنّه مكان محترم للعائلات. في أحيان أخرى كنّا نسمع لعنات وشتائم الآخرين بحقّنا. الساعات القليلة التي كنا نضطرّ إلى الافتراق خلالها نعوّض عنها برسائل واتصالات. أحياناً كان يرسل لي مقاطع موسيقية جديدة يقول إنّه أحبها،أو صوراً وأخباراً. مشاهد طريفة رآها على يو تيوب وأضحكته. مهما كانت تافهة تكتسب قيمة لدي لأنه بعث لي بها. حتى الأشياء الصغيرة أحتفظ بها لأن لها علاقة به، ورود يابسة أوراق رسم عليها أو كتب لي فيها، تذاكر الأفلام والمسرحيات التي شاهدناها معاً. كنت أجد صعوبة في أن أنتظر طلوع الضوء صباحاً كي أراه. خاصة حين يضطرّ لزيارة أهله.

لم أرد أن أبقى أكثر من ذلك. تمنّيت لو لم تحملني قدماي إلى هذا المقهى. مشيت بإعياء وقد زالت لديّ كل رغبة في دخول أيّ مقهى. انحدرت في الشوارع ووجدتني قبالة البحر. هناك وقفت. شعرت ببرودة النسمات. لبست سترتي. تأمّلت الموج وتمنّيت لو أكون نقطة أضيع في البحار.

* * *

عادت أمي إلى المدرسة في بداية تشرين. كانت تعيسة بسبب ذلك. ذكّرها أبي باقتراب موعد تقاعدها ليرفع معنوياتها. أجابته كأنّه مسؤول عمّا بها إنه لا يزال أمامها سنتان من هذا الشقاء. رغم تعبها وجدت القوّة لتطاردني بسؤالها المعتاد عن سبب عدم عودتي إلى الاذاعة بعد. حين أراها مساء غافية محنية الرأس قبل الثامنة أشفق عليها. تبدو ضعيفة. الأوراق فوق ركبتيها والقلم الأحمر تدحرج فوق البلاط. نوقظها مرّات لتأوي إلى فراشها. تعبها يصعّب عليها النهوض، يمسك أبي بيدها

ويوصلها إلى الفراش كأنّها ستضيع بين الغرف. عندما ينصحها أن تؤجل سيرها الصباحي إلى ما بعد عودتها كي تنال قسطاً وافياً من النوم، تقول إن القوّة تغادر بدنها بعد المدرسة. حين كنت صغيرة كنت أرجوها لتسمح لي بتلاوة علامات تلاميذها كي تكتبها في دفترها، هذا قبل أن يصبح كلّ شيء الكترونياً. رغم كثرة صفوفها كنت أحفظ كلّ أسماء التلاميذ. أعرف المجتهد فيهم والكسول. أحبّ القصص التي تسردها عنهم وعن أهلهم. أذكر الصعوبة التي واجهتها في استخدام الكمبيوتر. علّمتها الطباعة واستعمال البرنامج البدائي الذي اعتمدته مدرستها للعلامات المدرسية. كان يفرحها أن أسخر من اختيارهم لهكذا برنامج، تقول حينها بسعادة «لست بطيئة الاستيعاب. المشكلة في من برمج هذا الشيء الغبي. إنه يؤخّر عملنا بدل أن يسهّله».

الرسائل التي زادت وتيرتها منه ما عدت أقرأها. في أعماقي كنت أتمنّى أن يكون روني. حتى حين كان يكتب عن أشياء لا تتعلّق فعلياً بحياة روني، أردت أن أعتقد أنه يؤلّفها. أمحوها دون أن أفتحها. أصرّت كريستيل لأرافقها ونزور عليا بعد خروجها من المستشفى. ظلّت تكرّر «ما بك شارفت على الموت». كأنّها حجة كافية لنراها في بيت أهلها. بالنسبة إليّ أجروا لها غسيل معدة ونجت. انتهى الأمر. لو علمت ما ينتظرنا لما ذهبت أبداً.

استقبال والدها لنا كان فاتراً. نظراته القاسية أشعرتنا كأننا مسؤولتان عمّا حصل لعليا. لم أفهم لماذا ليس في عمله. أردت أن أخرج في الحال حين قال إنّها نائمة، لكنّ زوجة أبيها نادتنا من غرفة داخلية لتقول إنّ عليا استيقظت. كانت عليا تجد صعوبة في أن تستوي في فراشها، ساعدتها الخادمة لتجلس واضعةً الكثير من الوسائد خلف ظهرها. كانت تنظر باستمرار نحو باب غرفتها كأنّها تخشى أن يسترق أحدهم السمع. بإشارات وكلمات هامسة، فهمنا أنّ والدها يظنّ أنّ أحداً دسّ لها حبوب هلوسة في شيء كانت تشربه. الآن يضيّق عليها ويشكّك في القصة التي

سردتها. ما هي مصلحة أحد في فعل ذلك في مطعم عادي؟ يسألها. قالت إنها تشكر الله أنّه أغمي عليها في العمل لا في سهرة. يظلّ يقول إنه لو لم يكن الطبيب صديقه لكان أبلغ عن الحادثة، ولانتشرت الفضيحة. لا يصدّق أنّها بريئة كما تدّعي. هي تقول هذه الكلمات كأنّ لا دخل لها حقاً بالحبوب التي تتناولها منذ فترة. نظرت نحوي وقالت «ماذا فعلت لتنحلي هكذا؟» قلت إنّني كنت مريضة. سألتني إن كنت لاحظت مقدار الوزن الذي خسرته؟ أومأتُ برأسي. أخبرتنا إنّها تخشى استخدام هاتفها لأنّ والدها يتسلّل خلال نومها ليراقب ما يردها من اتصالات ورسائل. تتظاهر بالنوم وعدم الانتباه لما يفعله. تكتب رسائل كاذبة لتثبت له براءتها. طلبت من كريستيل أن تعطيها هاتفها. تريد أن تكتب براحتها إلى أصحابها. كانت أصابعها تتحرّك بسرعة فيما عيناها مسمّرتان جهة الباب. هالات زرقاء غامقة تحت عينيها الغائرتين. شفتاها مشقّقتان. فكّرت أنّها لا تشبه الفتاة التي عرفتها أيّام الجامعة. كنت أحبّ وجنتيها العاليتين، بريق عينيها وابتسامتها الطفولية. كم تبدّلت. ربّما كلّنا تبدّلنا. بماذا أشبه الفتاة القديمة التي كنتها؟ دخلت الخادمة بصينية عليها ثلاثة أكواب ليموناضة. طبعاً لم تأخذ عليا كوبها قالت إنّ معدتها لن تحتمله. سألناها متى تعود إلى عملها. أجابت لو كان القرار لها لعادت اليوم. في الشغل يظنّون أنّها أصيبت بتسمّم غذائي. في تلك الزيارة علمت أنّ كريستيل وجدت وظيفة في بنك عودة وستبدأ في أول الشهر القادم. قالت إنّه شعور غريب ألّا تعود تلميذة. أضحكنا قولها وسألناها ألم تشبع من الجامعة طوال هذه السنوات. قالت إنّها ليست مستعجلة لتعمل طوال النهار ثم تعود كالآخرين إلى البيت غير راغبة إلّا في النوم. والدها تدبّر لها الوظيفة. كانت تحبّ أن يستشيرها لا أن يأخذ القرار بدلاً منها. ماذا لو أرادت العمل في دبي كأحمد أو أن تدرس للماجيستير. ثم أخبرتنا أنّ أحمد متردّد حالياً في السفر بعد أن ترقّى ونال علاوة.

* * *

ظلّت النفخة لتذكّرني بأنّ دواء الحماية لم يشفني. دون تخطيط أو اتصال لأخذ موعد قصدت عيادة الدكتور أفتيموس. الموظّفة التي تعرفني، قالت إنّ عليّ الانتظار إلى حين تجد لي وقتاً ما بين المواعيد. جلست في البداية أتصفّح المجلات الموضوعة مبعثرة فوق الطاولات. لكنني ضجرت بسرعة منها. وضعت سمّاعاتي لأستمع إلى الموسيقى قبل أن تتشجّع المريضة قربي لتسألني ما بي. حين فعلت انصرفت للحديث مع عجوز تجلس قبالتنا. الموسيقى لم تمنع وصول حديثهما عن داء المفاصل إليّ. عيناي تسمّرتا بالموظّفة أملاً في أن تدخلني. استمرّ أصحاب المواعيد بالتوافد. لم تدخلني إلّا بعد انقضاء أكثر من ساعة ونصف. هممت مرات كثيرة بالانصراف. سماع باب العيادة يفتح يعيد الأمل إلى قرب معاينتي. استقبلني أخيراً وطرح عليّ أسئلة كثيرة قبل أن يبدأ بالفحص. علّق على أنّ وزني قليل نسبة إلى طول قامتي. قلت إنّ السبب هو وعكتي الأخيرة. لم أخبره بزيارتي لطبيب آخر إلا حين بدأ يكتب الفحوصات المخبرية التي عليّ إجراؤها. سألته فيما قلبي يخفق رعباً عما يرجّحه. قال اسم جرثومة. لم أحفظ اسمها. قال إنّ علاجها مزعج. وقد يتطلّب صبراً لأنّها لا تموت بسهولة وتسبّب الآلام التي وصفتها، لكنّ علينا انتظار نتائج الفحوصات. شكرته مرّات قبل أن أنصرف. كأنني شارفت على الموت وأعادني حيّة. ربّما لم يفهم سرّ الارتياح الذي ارتسم على وجهي. كيف له أن يعلم.

رغم أنّه لم يبق معي المال الكثير، أردت أن أحتفل بنجاتي. دخلت إلى مطعم في آخر الحمرا وطلبت همبرغراً وبطاطا. كنت ألتهم طعامي متأمّلة المارّة من خلال واجهة الزجاج. رأيت نقط المطر صغيرة في البداية، كبرت لتتحوّل إلى زخّات جعلت الكثيرين يهرعون للاختباء تحت ظلّات المحلّات. بعضهم استمرّ في السير واضعاً فوق رأسه حقيبة ومن لا يحمل شيئاً كان يضع يده كما لو أنّها حقّاً ستحميه. بسرعة امتلأ الشارع ببرك الماء. الموظّفون الذين يأكلون في استراحة الغداء، تجمّعوا

أمام المطعم ثم تراكضوا. تذكّرت مرّة في أوائل تشرين الثاني كان الحرّ فظيعاً، الحرارة جاوزت الثلاثين، والمطر لا يأتي. إذ فجأة تمتلئ السماء بالغيوم ويطلع هواء بارد. كنت أرافق روني إلى بوّابة جامعته حين بدأ المطر. لم يشأ روني أن يدخل إلى الجامعة ويفوّت عليه مطرة انتظرناها طويلاً. أذكر كم ضحكنا سائرين تحت عواصف من الأمطار، فيما الناس يتأمّلوننا كأننا هاربان من مصحّة عقلية. تبلّلنا بالكامل، انزلق صندلي من قدمي وجرفته الأمطار، ركض روني خلفه ليلتقطه ويعيده إليّ .انفصل جلده عن نعله. هكذا مشيت شبه حافية إلى محلّ أحذية لأشتري شيئاً أنتعله. لا أدري كم محلاً دخلنا إليه قبل أن أجد حذاء رخيصاً. كأنّ من أتذكّره لا علاقة له بروني الآن. من ألتقيته مرّتين شخص يشبهه.

أعود لتأمّل الشارع الذي جنّ في لحظة. سيّارات تطلق زمورها في آن واحد. مشاة يواصلون ركضهم، خطوط سوداء رسمها الكحل السائل فوق وجوه بعض النساء.

كنت لا أزال أشعر بالجوع طلبت سندويشاً من الدجاج. كلّما خطر في بالي إنّني ما عدت أملك إلّا ثلاثين دولاراً، أطرد الفكرة بعيداً. التفكير بالاستشارات الزوجية يعيد الألم إلى معدتي. ندمت لأنني أهملت تقديم طلبات توظيف في المدارس. صحيح أنّها لم تجدِ نفعاً سابقاً لكن من يعلم. لست معتادة على الاستدانة من أحد. رفاقي يستدينون من بعضهم بسهولة. ليس الخجل ما يمنعني. شيء آخر لا أعرفه. حين أكون في ضائقة أتقشّف في مصروفي إلى أبعد حدّ كأن أدخّن بضع سجائر فقط. أمتنع عن الخروج مع رفاقي متذرّعة بحجج كاذبة. لا أشتري أيّ غرض حى لو كنت بأمسّ الحاجة إليه. لا آكل إلّا في البيت. لا أدخل المقاهي ولا أستقلّ سيّارات أجرة إلّا إن كان المكان بعيداً لا أستطيع الوصول إليه سيراً.

المكان بدأ يفرغ حولي. الندل انشغلوا بتنظيف الطاولات. امتلأ

الجوّ بروائح المساحيق النفّاذة، طغت على روائح اللحوم والبطاطا المقلية. اقترب أحدهم واضعاً فنجان قهوة أمامي. كرّر عبارات ترحيب جوفاء. كأنّه لا يرى أنني لم أنتهِ من السندويش. على أيّة حال ما كنت قادرة على ابتلاع لقمة إضافية. الثوم ربّما هوسبب هذا الحريق القويّ في معدتي. الشمس طلعت من جديد، غمرت الشوارع بلون أصفر قوي. الأمطار فوق الأرصفة بدأت تجفّ. خرجت دون أن أشرب القهوة. أحسّ أنّ كلّ ما ابتلعه أو أشربه يحتلّ في معدتي أضعاف حجمه. لو حفظت اسم الجرثومة لكنت بحثت على الأنترنت لأعلم أكثر عن مسبّباتها وعلاجها.

* * *

بعد أن أجريت فحص المنظار، تفاجأت من عدم إحساسي بشيء. استلقيت لدقائق وانتهى الأمر بعد إعطائهم لي بعض البنج. كانت الساعة حوالي العاشرة. فكّرت بالذهاب إلى الاذاعة. منذ أسبوعين وأنا متغيّبة. أخذت سيّارة أبي عندما تأكّدت أنّ فيها ما يكفي من البنزين. لم أُردْ أن أصرف الدولارات القليلة التي تبقّت لي على النقليّات. كنت متهيّبة من مقابلة مدير البرامج. أيريد أن يشكرني ويستغني عن مشاركتي. في الأخير لم تربح الأذاعة صيفاً إلّا القليل. مواعيد ما كانت تفضي إلى أخرى. يأتون لمرّتين على الأكثر قبل أن يفهموا لا جدوى الاستشارة الزوجية. كان رأسي مشغولاً بخطط فيما أقود. قلت إنني سأعود إلى الدروس الخصوصية. الأمر ليس سهلاً إن لم ينصح بي معلّمون يعرفونني. لن أطلب من أمي وإلا لن أنتهي من لومها لي على عدم محافظتي على الفرص التي أتيحت لي. انشغال رأسي ألهاني عن الضجيج والزحام الشديد.

لم أجد مكاناً في الشوارع المحيطة بالاذاعة. ركنت السيارة في شارع فرعي بعيد. أرهقتني المسافة التي كان عليّ مشيها، بدأت أحسّ مع كل خطوة بدوار وتعب. تذكّرت أنّ الممرّضة نبّهتني من هذه الأعراض بعد وقت من زوال البنج نهائياً. عند المدخل صافحني الحارس لأوّل

مرة سائلاً كيف أصبحت. تكرّر الأمر مع كلّ من ألتقيتهم. لم يكن مدير البرامج في مكتبه. عرّفتني تانيا بالتي حلّت مكاني لتحكي عن سمنة الأطفال. جيّد أن لا مجال لرؤيتها وإلا لشكّك المستمعون بنصائحها. لأوّل مرّة ألتقي متخصّصة في التغذية بدينة. عاد مدير البرامج بعد وقت، توجّه نحوي ما إن لمحني، رحّب بي بحفاوة فاجأتني. كأنني أعزّ صديقة له. وضع يده فوق ظهري. أدخلني قبله إلى مكتبه. بدأ بالكلام قبل أن أجلس عن اتصالات وردت إليهم من الأهل القدامى ومن آخرين جدد. ضحك قائلاً إن شعبيتي كبيرة. سألني عن صحتي وغمزني كأنه يشكّك بأنني كنت مريضة. تأكّدت من الأمر حين قال إن مكانتي كبيرة عندهم في الاذاعة. لا يحبّون أن أزعل سأُعطى خمسين بالمئة، ثم نهض من مكانه داعياً إياي إلى مرافقته. عندما صعدنا الدرج فهمت أننا متوجّهان إلى المكتب الذي أشغله. ابتسم عندما شرّع الباب ووقف ينتظر ردّ فعلي على التغييرات. ستارة جديدة ومكتب جديد له مقعد دوار، لولا تثبيت نظره جهة جهاز التبريد لما انتبهت له. كدت أسأله عن حاجتي له والخريف قد بدأ. الموكيت البالية استبدلت ببساط رسمت فوقه أشكال هندسية متداخلة. سألني إن كنت راضية. قال إنهم أحياناً يأتون باختصاصيين مميّزين لكن الكيمياء لا تسري بينهم وبين المستمعين، على عكسي. أثناء نزولنا سألني إن كنت مستعدّة للبدء غداً. قال إن أقسام الحضانة بدأت والكثير من الأهل يحبّون أن نحكي عن كيفية تعاملهم مع أوّل دخول لأولادهم إلى المدرسة. طلب مني بعد أن ودّعته عند باب مكتبه بأن أمرّ بالسكرتيرة لتنسيق المواعيد معها.

قالت إنّ هناك رجلاً اتّصل عدّة مرّات طالباً موعداً في أقرب فرصة. نسّقت معها ووضعت جدولاً يبقيني حرّة بعد الظهر لثلاثة أيّام. بينما أغادر قالت إنّها نسيت أن تعطيني شيئاً تركه لي أحدهم. فتحت عدّة جوارير قبل أن تجدها. سألتها عمن أحضرها، أجابت إنّها لم تعرف، الحارس هو من أستلمها. قلبتها لا اسم عليها. كان الحارس يأكل منقوشة ويتحدّث

بعيداً عن المدخل مع موظّف أمن لمصرف قريب. خجلت أن أقاطعهما أو أناديه. وقفت بانتظار أن يراني. حين التفتُّ هرع نحوي، مشدّداً دعوته لي لأكل منقوشة. دلّني على كيس نايلون قائلاً إنّه أحضر الكثير. لم أعلم كيف أتخلّص من إلحاحه إلّا بالقول إنّني سبق وأكلت قبل مجيئي. عندما سألته عمن أحضر الهدية؟ قال إنّه سائق تاكسي . حين سأله من أرسلها أجاب إنّها أُعطيت له في مكتب التاكسيات وها هو يوصلها. أمّا من وكيف ليس من شأنه. ربّما هناك كارت داخل غلاف الهدية، ما أدراه هو. انتظرت حتى ركوبي السيارة لأفضّ غلافها. منحوتة خشبية لامرأة جالسة متقوقعة خافية رأسها بيديها وركبتيها المثنيتين. لم أجد لا ورقة ولا أيّ كلمة. الخشب لم يُلمَّع ولم يصقل تماماً. بقي بحالته الطبيعية. كدت أصطدم بدرّاجة لم أرها تتسلّل عند جانب السيارة. ركّزت على الطريق محاولة عدم التفكير بمعنى الهدية وبصاحبها.

ما إن وصلت إلى البيت حتى سارع أبي لسؤالي إن كنت تكلّمت مع كلودا. قلقه دفعه للذهاب كعادته إلى البيت ثم إلى الصيدلية لكنّها لم تكن في أيّ من المكانين. قلت له إنّها قد تكون في سوبرماركت أو عند الحلاق. ليست طفلة تائهة في الأخير. ارتفع صوته وردّ عليّ شبه صارخ «إن كان الأمر كما تقولين لماذا لم تردّ على اتصالاتي». «لماذا تصرخ بي؟ ما شأني أنا. لا تدخلني في جنونك.» في لحظات تحوّل الأمر إلى شجار بيننا خرجت على أثره من البيت صافقة الباب بعنف. كتبت لها وأنا في المصعد، أرجوها أن تردّ على أبي وتريحنا. بعد ثوان وصلني ردّها: هكذا يتعلّم ألّا يكلّم بشارة عني دون علمي. عندما سألتها ثانية أين هي لم تردّ. بعد أن تجوّلت في الشوارع المحيطة عدت إلى البيت مرغمة. التعب الذي لا يفارقني يجعلني لا أرغب سوى بالاستلقاء. الدواء يسبّب هذا الارتخاء الدائم في جسمي. ما إن عدت حتى قلت له أثناء توجّهي إلى غرفتي. «ليس بها شيء ابنتك، إنّها عند الحلاق ولم تنظر إلى هاتفها. ليس من داع في كلّ مرة أن تعلن حالة طوارئ». تنهّد عميقاً وشكرني. لكنّه لم

يدعني وشأني. تبعني إلى غرفتي. أراد أن يخبرني بأنه تصرّف أخيراً كأب وتكلّم مع بشارة باللهجة التي يستحقها. تظاهرت بالمفاجأة. وسألته إن كانت كلودا ترضى بذلك. أجاب أن ليس من داع لتعلم. قال له: «طلاق وقبلناه زواج ثان قلنا إنك حرّ. أما أن تحاول أن تأخذ منها ابنيها هذا أمر لن نسكت عنه. «بم أجابك ؟» سألته. «تصنّع الدهشة كأنني لا أعرف خططه ولا أعلم أنه يسمح لهما بكل ما تمنعهما عنه. حتى جلسات الفيزيوتيرابي لروبير سمح له بألّا يخضع لها. بحجّة أنها تزعجه.»

ثار كأنّ بشارة أمامه الآن. لعن تلك المرأة التي تحاول أن تسترضي روبير وايلي عبر الهدايا الباهظة وتصنّع محبّتهما. قلت له إنّ كلودا لو أرادت إجراء هذا الحديث مع بشارة لقالت له رأيها بصراحة. هكذا هي كلودا لا تعرف المواربة. لماذا يفسد هو علاقتها ببشارة. هناك زواج وعشرة وأولاد. جلس عند طرف سريري متهدّل الكتفين قائلاً إنّه لا يفهمها ولا يفهم لا تسامحها ولا سكوتها. منذ متى لا تدافع عن حقوقها. قلت إنّ الواحد يتغيّر. ينضج مع مرور الزمن. نظر إليّ كأنني تفوهت بكلمة نابية. «أتسمّين إهمالها لعملها ولصحتها نضوجاً. تدخن مثلك، لولاها لما اشترى بشارة هذه العقارات وهذه البيوت. الآن تنفق الأموال على أشياء بلا معنى. هل علمت أنّها تسجلت في أل أي يو لتأخذ دروساً في الرسم؟ هل جنّت؟ أقساط وهدر من أجل الرسم؟ بماذا سيفيدها؟» أجبته وقد ضقت بغضبه وببقائه في غرفتي بأنّها حرّة في مالها وتعبها. لا يحقّ له بأن يقرّر بدلاً منها ما المناسب وما هو غير المناسب لها. ثانية تحوّل حديثنا إلى شجار وقال إنّني نسيت ربما أنّه أبي ، يستحق القليل من الاحترام. خرج من غرفتي، لكنّه أشعرني بالتعاسة. ما الذي اضطرّني للأخذ والردّ معه. الصمت غنيمة. أغلقت باب غرفتي بالمفتاح. خلعت ثيابي. رنّ هاتفي رددت بحركة آلية دون النظر إلى الرقم. كانت عليا أرادت أن تطلب مني خدمة. أن أقول لوالدها إن اتصل بأنّها عندي. سألتها ماذا لو أراد مكالمتها. أقول إنّها في الحمام وسوف تتصل به لاحقاً. لم أوافق

وذكّرتها أننا كبرنا على هذه الحركات. قالت إنّها مخنوقة بسبب ما حصل. لم تفعل سوى الذهاب إلى العمل منذ تعافيها. يراقب كل اتصالاتها. وضع سيارتها في الكاراج للمراجعة دون سؤالها. الآن يوصلها من وإلى الشغل. لا يثق بأيّ شيء تقوله. تشكّ أنّه يفتش أغراضها وحقائب يدها هو وزوجته في غيابها. باتت تترك أشياءها الخاصة في عملها. لم يبدُ أنّ ما تعرّضت له أخافها. اعتذرتُ ثانية مدّعية أنني لشدّة مرضي أنام وأطفئ هاتفي. لماذا لا تطلب من كريستيل. أجابت إنّ صحبة كريستيل لا تعجبهم. يرونها طائشة كأنّ أهلها لم يربوها. أغضبني ما قالته. رددت دون تفكير هل يظنّون أنّ تربيتهم أفضل؟ لم تزعل من جوابي أو أنّها لم تنتبه.

* * *

كان ينتظرني عند المدخل قبل انتهاء البرنامج. رافقني في صعود الدرج متمتماً اعتذاره بأنه أتى قبل الموعد. انتبهت إلى الشورت الذي يصل إلى ركبتيه، صندله يحدث صوتاً فوق الأدراج كالصفير. بقي واقفاً متأمّلاً الغرفة. ثم نظر باتجاه الطاولة البرتقالية المنخفضة والكرسيين الملوّنين بالأخضر. صافحني وعرّف بنفسه «أسامة تلحوق» أخبرني إنّ نسيبه نصحه بي لأنني أتابع ابنه كريم. احمرّ وجهي ما إن ذكر ذلك.

شعره محلوق تماماً، لم أستطع تقدير عمره في البداية. وضع ملفّاً ورقيّاً فوق مكتبي. قال إنّه لا يظنّ أنّ مشكلة ابنه ادغار تتعلّق بعسر قراءة أو تشتّت انتباهه كما زعمت المعلّمة. وافقته الرأي معتبرة أنّ الوقت باكر لإطلاق هكذا أحكام. بقي جالساً شادّاً بقوة على أصابعه المشبوكة. كان يقرّب وجهه من مكتبي كأنّ حديثنا سرّي. أراني الأوراق القليلة التي كتبها ادغار. أخبرني إنّ لديه ابنين. الصغير في السابعة. أمّا ادغار ففي العاشرة. في كندا لم يكن يواجه أيّ مشكلة. الآن كلّ صباح يدّعي ألماً ما ليبقى في البيت. حين يعود يرفض الاجابة عن أسئلته. لا

تنفع محاولات استدراجه. مارسيل الصغير، أقام علاقات مع كثيرين في أقلّ من أسبوع. نظرت إلى أصابعه التي تقلّب الأوراق واحدة تلو الأخرى كأنّه يلحظها للمرّة الأولى. سألته متى عادوا من كندا، قال منذ بداية الصيف. حكيت عن أثر التغيير وصعوبة التأقلم في بيئة كلّ ما فيها جديد. أجاب إنّه يعرف كلّ ذلك. ربما هو قلق أكثر من مدرسيه ازاء عدم تجاوبه التامّ. سكت ليقول بعدها إنّ الطلاق لم يكن هيّناً لا عليه ولا على ابنيه. كان يردّ على أسئلتي متمهّلاً منتقياً كلماته بعناية. كأنّه يغالب تأثّراً أو ألماً يكره إظهاره. علمت أنه أستاذ جامعي، قريباً سيبدأ التدريس في اليسوعية في قسم الأدب الفرنسي. هاجرت عائلته عام 1988 إلى كندا وكان في الثالثة عشرة من عمره. زوجته لبنانية الأصل أيضاً. عادت إلى الجامعة حديثاً. حالياً لا تستطيع رعاية ولديهما. ترددت وفي النهاية لم أسأله كيف سمحت له بالسفر بعيداً، كيف ترى ولديها؟ في معرض كلامنا فهمت أنّها تتحدث معهما عبر سكايب. لكنّ ادغار يلزم الصمت و يردّ على أسئلة أمه بجفاء. سألته ألم يحاول الكلام معه عن موضوع الطلاق. أجاب إنّه في كندا طلب من أخصائي نفساني مساعدتهما لإفهام ولديه الأمر،دون التسبّب بصدمة قويّة لهما. وحده مارسيل من بكى واحتجّ. ظنّ أنّ الأمور تسير على خير ما يرام مع ادغار. حتى العودة إلى لبنان لم تكن قراراً متسرّعاً. في الأصل كانوا يأتون لقضاء كلّ صيف هنا. كانت رجعتهما الى كندا هي ما يحزن ابنيه. أحياناً كانوا يأتون أيضاً في فرصة الميلاد. قال إنّ أهله عادوا من كندا منذ بدأ تقاعدهما. ادغار كان متعلّقاً جداً بجديه، كان على تواصل شبه يومي معهما في كندا. كان مارسيل من يكره الجلوس أمام الكاميرا، أما ادغار فلا. الآن يعامل جديه كالغريبين. سواء اصطحبهما إلى بيتهما أو جاءا هما للزيارة. تغضّن جبينه، خفض بصره إلى البساط. لا أدري كم طال سكوته لكنني شعرت بمقدار إحساسه بالعجز. معظم الأهل ينسون كلّ ما يعرفون حين يواجه أبناءهم أيّ مشكلة. بقي مطرقاً. قال إنّه لا ينتظر أن تحصل

معجزة فوريّة لكنّه يتمنّى أن يستعيد ادغار حماسه وفرحه. هو خائف من أن يكون أفسد عليه طفولته. كان يدوّن على هاتفه المواعيد التي اتفقت معه عليها حين خطر لي أن أسأله أليس هناك أخصائية في مدرسة ابنه؟ قال بلى لكنه بعد أن قابلها لم يرتح لها. لا يحبّ الناس الذين يظنّون أنهم يعرفون كلّ شيء. خجلت وكرهت وجهي الذي يكشفني دائماً. أضاف إن ادغار قد يحرج من مقابلة أخصائية في المدرسة . من يدري ماذا يدور في عقل الأولاد. شكرني طويلاً قبل رحيله لأنني اعطيته كل هذا الوقت وصبرت عليه. حين صافحني مودّعاً انتبهت إلى أنّه أقصر منّي.

بعد رحيله، اتصلت بي سابين. أرادت أن تراني. زعمت إن لديّ مواعيد. قالت إنها أحبّت لو تحكي معي. كانت لهجتها حزينة. سألتني «أتظنينه كذب عليّ؟» قلت لها بماذا سيفيدها أن تفكّر هكذا؟ ستؤذي نفسها لا أكثر. كنت أفكّر كم مرّة بعد عليّ أن أسمع الحديث نفسه والأسئلة نفسها. قالت إنها ما عادت تتحمّل شيئاً. عملها تؤدّيه كأنّها آلة. فكّرت أن تتكلّم مع الطبيبة التي تعمل معها. قد تعطيها دواء ما. لكنّها تخاف أن تفعل. ماذا لو حزرت من يكون. لا تريد أن تدان بلا طائل أو ينظر إليها على أنها خرّابة بيوت. قد تستغني عن العمل معها لو عرفت. ما أدراها كيف هو عقلها. الوضع أبشع حين تعود إلى البيت. تتشاجر مع شريكتها الجديدة في السكن. منذ متى؟ سألتها. قالت إن رشا وجدت عملاً في مستشفى حمود وعادت للعيش عند أهلها. الساكنة الجديدة كانت زميلة لرشا. لو علمت أنّها هكذا لما وافقت عليها. كلّ شيء يزعجها، تكتب اسمها على ما تشتريه وتضعه في البراد. الموسيقى، الزوار كل شيء لديها اعتراض عليه. إضافة إلى هوسها بالترتيب والنظافة. منذ مجيئها والشقة تعبق بروائح المطهّرات. إن أرادت أن تقضي أوقات فراغها في الفرك والمسح والجلي هي حرّة، لكن أن تفرض عليها هذه المهام شيء آخر. ارتحت أنّ الحديث اتّجه إلى الساكنة الجديدة. سألتها عن اسمها

وعملها. كلّما تحوّل إلى الطبيب أعدته إلى زميلة السكن. حتى عرفت رغماً عنّي كلّ شيء عنها اسمها وعمرها وعاداتها. حديثنا استمرّ أكثر من ساعة حتى قلت لها إن لديّ موعداً.

* * *

لم أغلق النافذة. الليل حلو، يحمل نسمات باردة. أحبّ الشعور بتلك القشعريرة. أكره كل ما له علاقة بالصيف ولزوجة الرطوبة. كان روني يقول إنني أفسدت ذوقه. قبل أن يتعرّف إليّ كان يفضّل الصيف والبحر والسماء الزرقاء. لكنني لكثرة نقّي صار يستعجل الخريف والشتاء والمطر. أوّل سفره إلى لندن كتب لي كم يتمنّى لو أنني معه، لأنّ الطقس هنا مثالي بالنسبة إليّ، والعمارة القديمة ستسحرني.

الهواء قلّب صفحات الكتاب أمامي. منذ ساعات أقرأ دون أن أتقدّم حقاً. أسهو. أعيد قراءة المقاطع مرّات لأستوعبها. بعض الكتب لا أحبّ أسلوبها النظري الجافّ. جمل طويلة مليئة بالاستطرادات والكلمات المعقّدة. حتى بعد نبش معناها تبقى مبهمة. أحسّ برهبة من متابعة أدغار. ماذا لو رفضني أنا أيضاً. كلامي مع والده أسامة أوحى لي بالموضوع الذي سأحكي عنه غداً. الصعوبات التي يواجهها تلاميذ قادمون من خارج لبنان. هذه الأحماض في معدتي تصعّب عليّ التركيز. كما إنّ المرض يجعلني في مزاج حزين،كأنني خارج العالم . عندما عدت، دخل أبي يحمل لي كوب ليموناضة. هي طريقته ليحاول أن يفتح حديثاً معي. لكنّه أراد أن يعتذر على غضبه في الكلام معي. قال إنّ قلقه على كلودا أفقده أعصابه. قليلة هي المرّات التي يعتذر فيها والداي عن شيء أخطآ به في حقّي. لذا كنت أستغرب في طفولتي حين أسمع أم ديما تعتذر لها عن شيء قالته أو نبرة صارمة استخدمتها لتطلب منها شيئاً. لا أذكر أنّ أمي اعتذرت لي يوماً. تظنّ أنها دائماً على حقّ. أو أنني أظلمها حين لا أفهم مقاصدها. عندما رنّ هاتفي ، سمعت صوتاً لا أعرفه. لزمني وقت لأستوعب أنه والد

عليا يريد أن يكلّمها. قال إنّه اتصل بها مراراً لكنّ هاتفها مطفأ. ارتبكت ولم أستطع أن أقول بعد تلعثم لا أدري كم دام، إنّها في الحمام. رفع صوته غير مصدّق ليسألني كأنني عليا لا فتاة غريبة عن سبب إطفائها لهاتفها؟ قلت إنني لا أدري. ثم استدركت لأقول إننا كنا في السينما. لعنت في سرّي عليا التي وضعتني في موقف محرج. لم أدر كيف أتصرّف رغم أنني نبّهتها ألّا تستخدمني ذريعة. أرسلت لها رسالة تلو الأخرى لأخبرها إنّ والدها أراد أن يأتي إلى بيتي لمرافقتها. أقنعته بعد أخذ وردّ طويلين أنني سأعيدها بنفسي إلى البيت. قلت إننا نعدّ عشاء متأخّراً ولم نأكل بعد. وافق على مضض.

الانتظار أتلف أعصابي، إلى أن فكرت بأنّها مشكلتها وحدها. لم تردّ على رسائلي إلا بعد أكثر من ساعة. حين اتصلت بي لم اسمع شيئاً مما تقوله. الموسيقى عالية حولها . طلبت منها أن تخرج إلى مكان أستطيع فيه أن أسمعها. كانت نبرتي غاضبة وجافة. قلت إنّني لست مضطرّة لتحمّل لؤم والدها. فاجأتني الشتيمة الفجة التي استخدمتها بحقّه. طلبت مني أن آتي إلى مار مخايل لأصطحبها. رفضت وذكّرتها أنني مريضة أولاً ومشغولة ثانياً. ليوصلها أحد رفاقها. قالت إنّ والدها يكون واقفاً عل الشرفة بانتظارها. سيعلم أنها كذبت عليه. أنت كبيرة قلت لها وتعملين، لماذا تقبلين أن يفعل ذلك معك. ذكّرتها أنني رفضت أن تدّعي أنّها برفقتي حين سألتني سابقاً. لسانها الثقيل كان يشوّه الكلمات، رجتني أن أساعدها، واعدة أن تكون المرّة الأخيرة. كانت تكرر «فقط هذه المرة» عندما وافقت أخيراً طلبت أن يوصلها أحد أصدقائها إلى بيتي. أجابت أنها لن تسألهم لا تريد إفساد سهرتهم في أوّلها. الساعة الآن جاوزت الواحدة، قلت لها؟ قالت بأسى «ليس لديهم أهل منغلقو الفكر هم». نسيت أنّها قبل حادثة التسمّم كانت تعيش مثلهم. من يسمع نبرتها المغلوبة على أمرها يظنّ أنّها في حالة قمع وحجز لحريتها. حتى أنا لا أنعم بحريتها. رغم عملها لا يكفيها راتبها. تُعطى أيّ مبلغ تطلبه. لا أعلم إن كان السبب هو إحساس

والدها بالذنب لزواجه ثانية بعد وفاة والدة عليا، أم هي عادة الاثرياء. ارتحت حين رأيت أن أبي أنهى برنامجه ونام. لم أجد مفاتيح السيارة في مكانها. بحثت عنها طويلاً قبل أن أتذكّر أنّها في حقيبتي. كنت آخر من قادها. لم أستخدم المصعد كي لا يوقظ صوته أهلي في نومهما الخفيف. تعثّرت على الدرج ولعنت عليا ألف مرّة. فكّرت أن أعود أدراجي ولتعد بتاكسي. هل هو أعمى ليغفل عن سكرها مثلاً؟ انتبهت إلى أنني خرجت وأنا في ثياب النوم. لأوّل مرّة يحصل لي ذلك.

لم أجدها في انتظاري حيث اتفقنا. السيارات مركونة عند جانبي الطريق بصفوف مزدوجة. اضطررت إلى الوقوف وسط الشارع. ضجيج الموسيقى ارتفع حتى الحي البعيد حيث أنتظر. كتبت أسألها أين هي وهدّدتها بالانصراف إن لم تأت بغضون خمس دقائق على الأكثر. جاءت أخيراً مترنّحة فيما يسندها شاب لم يسبق أن التقيته. هو من فتح لها الباب وأجلسها، قبّلها على فمها قبل أن يلتفت إليّ ويسألني بطريقة وقحة إن كنت فررت من مدرسة داخلية. لا بدّ أن ما أرتديه هو سبب دعابته السمجة. أحياناً أكره أشخاصاً معينين من النظرة الأولى. أبقت الباب مفتوحاً غير مبالية باستعجالي لها. أدخل جسمه وحشر نفسه قربها. كأنّه انتبه للسيارة فجأة، رسم اشارة إعجاب على وجهه مداعباً جلد المقاعد الأحمر. ثم انصرفا إلى عناق وقبل وتأوّهات كأنني لست في السيارة. ضيقي بدا واضحاً حين ذكّرتها أننا تأخرنا. كان هو من ردّ بسؤالي إن كانت بوابات الداخلي ستقفل. أجبته إنّ بامكانه هو أيضاً العودة إلى المصحّة التي هرب منها. لا أدري ماذا أصابني لكنني تمنّيت أن أدفعهما بقوّة خارج السيّارة ولتتدبّر أمرها. خرج من السيارة فشدّته بالسلسة الكبيرة المتدلّية من عنقه ليتبادلا قبلة أخيرة. شبّان مرّوا قربنا صاخبين يتشارطون من يصل أولاً إلى السيارة، أو من يرمي تنكة البيرة الفارغة أبعد من رفاقه. صراخهم الحماسي وقرقعة التنكات شتّت انتباهي عن عليا ورفيقها. كانوا يشدّون بعضهم للعرقلة كأنّها مباراة فعليّة. من ربح فيهم صعد فوق غطاء السيارة

ورقص مغنّياً أغنية لمرون فايف. سمعت صوت انبعاج حديد السيّارة وفكّرت بالحظّ السيّئ لصاحبها.

رغم الساعة المتأخّرة أنتبهت في القيادة داخل هذه الأحياء. لا يعلم الواحد متى يصادف من يحتفل ويشرب وسط الشارع أو من يعبر غير دارٍ لما حوله. هكذا كنّا نفعل نحن. حين فكّرت بذلك، تساءلت إن كنا نبدو مثلهم حقاً؟ خلعت عليا حذاءها ومدّت قدميها فوق تابلو السيارة. لم أفهم ما تخبرني إيّاه عن رفيقها ولم يهمّني أن أعلم. كنت في عجلة لإيصالها والانتهاء من هذه الورطة. شغّلتْ الراديو لم تجد إلّا موسيقى كلاسيكية وبرامج حوارية ونشرات أخبار. انتبهت إلى علامة جرح بليغ فوق ساقها. كدت أسألها عنه لكنني لم أفعل. سألتني إن كنت زعلانة منها. لا قلت وسكت. لا أعلم كيف انقلبت سعادتها فجأة وبدأت تبكي قائلة إنّها صارت عبئاً على الجميع، لا والدها يحبّها ولا زوجة أبيها ولا أصدقاء لها. فقط أمها كانت تحبّها. هدّأتُ من نوبة بكائها وذكّرتها بصداقتنا القديمة وبكثرة معارفها ورفاقها. قالت إنّها هي من تتصل بنا وتسأل عنا وتلحّ للقائنا. حين لا تفعل لا ترانا ولو مرّت الشهور. مددت علبة المحارم نحوها لتمسح الماكياج الذي صار بقعاً من الأسود والألوان الأخرى السائلة من جفنيها. كان همّي أن نصل بأسرع وقت. عند السوديكو توقّفنا بسبب تجمّع حول سيارتين متصادمتين، بركة من الدم جهة السائق. زجاج منثور في كلّ مكان. غالباً ما أحسّ بتوتّر حين أصادف أيّ حادث. فضّلت أن أبدّل وجهتي ولو تطلّب ذلك القيادة لوقت أطول. عليا لم تعِ ما يحصل. سألتني كأنها لم تر «ماذا هناك» قلت لا شيء بينما أتوجّه ناحيةَ ساسين. كان دوري في أن ينقلب مزاجي. استعدت وجه سامر، كما بدا في الصور المطبوعة والمعلّقة على سيّارات رفاقه. احتفظ أحمد بصورته ملصقة على زجاج سيارته الخلفي لوقت طويل، عبارة لن ننساك كتبت تحتها. لا أدري لماذا يفعلون ذلك؟ هل سيقرأها الميت؟ أم يخافون من أنفسهم حين ينسون وتتمزّق الصور وتضيع. عندما وصلنا أمام البناية كان

الناطور جالساً على الرصيف يدخّن نرجيلة برفقة رجلين آخرين. رحّب بها مكرّراً اسمها وأسرع ليفتح لها بوابة الحديد. نظرت باتجاه بيتهم. الترّاس والبيت، أو على الأقلّ ما يبدو منه للشارع معتم. خرجتْ من السيّارة دون حقيبتها. ناديتها لم تسمع، لحقتُ بها غير مبالية لهم. ربّما لن يدروا أنني في البيجامة. قد يظنّون أنّها موضة. ناولتها حقيبتها. عانقتني في المدخل بقوّة. عادت للبكاء قائلة إنّها تكره هذه الحياة. أبعدتها كي لا نكون مكشوفتين لهؤلاء الرجال. قلت إنّها غداً ستستيقظ بمزاج أفضل بعد ليلة من الراحة والنوم. سألتني «هل تتصلين بي غداً؟» أكّدت أنّني سأفعل. أجابت بينما ينغلق باب المصعد: أعرف أنّك لن تفعلي.

* * *

لم أنس أنّه عيد مولدي حين فتحت عينيّ، لكنني تمنّيت أن يقلّ عدد الذين يتذكّرونه. الاحتفال به يحزنني منذ بلغت العشرين. تفقّدت هاتفي لم أجد أيّ رسالة. كان صداعي قوياً وألم معدتي استيقظ لحظة فتحت عينيّ. لا أحد من أهلي. أعددت كوب نسكافيه. جلستِ في غرفة الجلوس. مددت ساقيّ فوق الطاولة. الشبابيك المغلقة لا تعزل أصوات الشارع كلياً. رغم ذلك استمتعت بهذا الهدوء النسبي. بعد أقلّ من دقائق عاد أبي من سيره الصباحي، حاملاً علبة علمت أنّها قالب حلوى. حاول ألا أراه وهو يدلف بسرعة جهة المطبخ. أشحت بعينيّ متظاهرة بالنقر على هاتفي. كتبت لعليا أسألها عن حالها وإن سارت الأمور جيداً معها. ردّت على الفور لتسألني عن مخطّطاتي للسهرة . بقي جوابي ضبابياً وادعيت أنني سأكتب لها لاحقاً. كأنّني لا أعرف سيناريو الحفلة المفاجئة الذي سيتكرّر ككلّ سنة.

لم يتبقّ معي إلّا عشرة آلاف ليرة. لكنّ مشكلتي ستحلّ اليوم. سأقابل ادغار ونور فتاة صغيرة لا تتجاوز السابعة، تعاني من التأتأة. أذكر كيف ترتبك وتجفل من أدنى صوت. عندما حاولت أن أعلم مصادر

قلقها وخوفها، لم أحظ من أمها سوى بأجوبة لا تفيد. لكنني أفهمها. معظم الأهل يجدون صعوبة في أن يكونوا هم سبب مشكلة أولادهم. هذا يتعارض مع حبّهم الكبير لهم. قرأت كثيراً لأعلم كيفية التصرّف مع ادغار.

فتحت البرّاد ، أضحكني أن يجهد أبي لاخفاء قالب الحلوى عنّي. أيظنني في الخامسة من عمري؟ أخرجت علبة اللبنة لأحضر سندويشاً لآخذه معي، دخل أبي إلى المطبخ سألني عن موعد عودتي. قلت إنّ رفاقي دعوني إلى سهرة. قال «أليس بامكانك المرور بالبيت قبل ذلك؟» قلت بلى كأنني لم أحزر نيتهم. الشيء نفسه يحصل حرفيّاً كلّ سنة. وكلّ سنة تزعل أمي من قلّة حماسي. ما المميّز في أن أتذكّر بأنني كبرت سنة أخرى. أردف كأنّه يكمل حديثاً سابقاً بيننا: «لو ترينه لن تعرفيه؟» سألت من؟ «قال إنّ بشارة لم يتغيّر بل فقد عقله». ثم وصف قَصّة شعره وثيابه، وحركاته، حتى الكلمات التي يستخدمها. نصحته أن ينسى أمره. كي لا يقهر نفسه دون داعٍ. وافقني وقال إنّ كلودا هي كلّ ما يهمّه. لكنّها لا تتركه يساعدها. حتى إنّها عاتبته وطلبت منه ألّا يفسد حياتها. أردف مستنجداً بي «هل أنا من يفسد حياتها أم ذلك الأزعر الخالي من الحشمة والذوق؟» احمرّ وجهه بفعل الغضب. أكّدت له أن كلودا لا تعني ما قالته. أسرعت في الخروج كي لا نعود إلى السيرة نفسها.

وصلت إلى الاذاعة قبل البرنامج بدقائق قليلة. لم أجد سيارة سرفيس بسهولة. مشيت حتى سبيرز قبل أن أجد واحدة تقلّني.

وصلتني رسالة منه أثناء البرنامج. لمحتها وأنا أتكلّم عن الخوف من الامتحانات ومتى يصبح مقلقاً ومرضياً. منذ فترة وأنا أمحو رسائله. أستغرب مثابرته على كتابتها دون أن يعلم إن كنت أقرأها حتى. بعد البرنامج كان لدي وقت طويل لأقضيه وحدي قبل حلول بعد الظهر. لا أستطيع التفكير بالجلوس في أيّ مقهى. سيكلّفني ذلك كلّ ما تبقّى معي

من ليرات. تمشّيت على مهل بداية في أحياء قريبة، إلى أن فكّرت بالسير إلى اليسوعية. مشيت بعيداً عن الطرق الرئيسية. تأمّلت بنايات لم يسبق أن أنتبهت إلى وجودها. لم أعلم إن كانت موجودة حقّاً، لكنّها تبدو قديمة. نظرت إلى مدخل الجامعة. الحرّاس نفسهم. كأنّهم عالقون في مشهد واحد منذ الأبد. فرشوا على طاولة بلاستيكية طعامهم. قنينة بيبسي كبيرة وسط أوعية البلاستيك. سمعت اللهجة الزغرتاوية المميّزة لأصغرهم، حين نظر أحدهم باتجاهي خفضت بصري وأسرعت. لم أرد أن يتعرّف عليّ أي منهم. أيّام الجامعة كانوا يعرفوننا واحداً واحداً. كان حديثهم عن الفوتبول يخفت شيئاً فشيئاً. الطلاب بدوا لي أصغر من الطبيعي. هل كنا صغاراً بقدرهم؟ وجع معدتي ذكّرني أن عليّ أن آكل لأتمكّن من أخذ الدواء. السير أشعرني بالحر الشديد. خلعت سترتي. تعبت كأنّ الحقيبة زاد ثقلها. اضطرّ إلى أن أحشر فيها الكثير من الأغراض. مررت بأحياء ظليلة فيها أشجار باسقة. تساقطت زهورها البنفسجية وعلقت بثيابي وشعري.

حين دخلت المكتب أقفلته خلفي بالمفتاح وخلعت حذائي. كنت أحسّ بالنعاس. أكلت السندويش وأنا أعاود قراءة الخطوات التي سأتبعها مع ادغار. ثم عدت إلى رواية فرنسية تجري أحداثها خلال الحرب العالمية الثانية. أحبّ قراءة أسماء الشوارع وأرقام هواتف ما عادت موجودة وتلك العناوين القديمة. لو كنت هناك لتفقّدتها ولمررت في تلك الشوارع ولجلست في تلك المقاهي. ليتني تلك الفتاة التي تتنقل خلسة بين بيوت هجرها سكانها. تمشي في عتمة الغرف الباردة. لا تضيء أيّ نور يفضح وجودها. نهاراً تلبس معاطف قديمة تجدها في خزائن البيوت وتمشي في الأحياء كأنّ لها وجهة تقصدها.

كان أسامة في الثياب التي أتى فيها ليقابلني في المرّة السابقة وتساءلت إن كان يذهب إلى الجامعة بالشورت والصندل. أكيد أنّ شكله سيتعارض مع البدلات وربطات العنق حوله. من جيب شورته رأيت كتاباً محشوراً،

دون انتباه كنت أحاول قراءة عنوانه. هذه المرة كان يعتمر كاسكيت أخفت رأسه وجبينه. عرّفني بادغار على أنه ابنه الكبير. ثم أردف أنّ ألأشياء الأخرى سيتولّى إخباري إيّاها ادغار بنفسه. وددت لو كان بامكاني الكلام معه على حدّة. يهمّني أن أعرف كيف فسّر له أمر قدومه. كانت لا تزال حقيبة المدرسة معلّقة فوق ظهره. لم أفهم لماذا لم يتركها في السيارة. أشار لي أسامة بايماءات من يده، إنّه سيجلس في الممر وأخرج من جيبه الكتاب. على غلاف كتابه رأيت صورة بناية عالية كأنّها ناطحة سحاب. أغلق الباب متسحّباً على مهل كأنّه يتسلّل خفية عنّا. اقترحت على ادغار أن يريح نفسه من الحقيبة. جلست على واحدة من تلك الكراسي الصغيرة ودعوته لينضمّ إليّ. الأمر الايجابي هو أنه كان ينظر نحوي بفضول. لم يبدُ لي خجولاً. حين ذكرت اسمي نظر إلى ساقيّ شبه المطويين فوق الكرسي الصغير وابتسم. وجدتها اشارة مشجّعة. كان الحديث بيننا يجري بسلاسة. دفعته ليحكي عن كندا عن بيتهم ورفاقه هناك ومدرسته وألعابه. سألته إن كان على تواصل مع رفاقه القدامى. قال إنّه حكى أوّل مجيئهم إلى لبنان مع ريشار لمرّتين، ثم ما عادا يتواصلان. حين أتيت على ذكر أمه، تبدّل لونه ولم يجب. بدّلت الحديث لأسأل عن اسم مدرسته الجديدة عمّا يفعله في ساعات اللغة العربية. قال إنه يدرس العربية لكن في صف المبتدئين. عن موادّه التي يفضّلها، عن أسماء أساتذته وإن كان يفضّل أحدهم، عن الفوارق بين مدرسته القديمة والجديدة. الرياضة هي ما يفضّله لكنه لا يحبّها في لبنان. أمّا السبب فلأنّ الساعات كلّها مخصّصة في الفصل الأول للجمباز. الشيء الوحيد الذي يحبّه في مدرسته هنا هو طعام الكافيتيريا. قال إنّهم يبيعون المناقيش في الفرصتين. كلما حاول الكلام بالفرنسية، كنت أستدرجه لاستخدام العربية. لكنّه لا يستسهل إيجاد الكلمات المناسبة. يعود تلقائياً للتعبير عن نفسه بالفرنسية. كنت أتأمّل ملامحه وأفكّر بأنه ربما أخذ عن أمه لون عينيه الأخضر وشعره الأشقر. طلبت منه أن يريني كتبه ودفاتره ويخبرني ما تعلّمه. أفرغ حقيبته

فوق الطاولة ورأيت مريوله المجعوك كيفما اتفق. قال إن ارتداء مريول هو من الأشياء التي لا يحبّها هنا. سألني كأنني أملك جواباً عن أهميّة المريول ولماذا يُفرض عليهم وحدهم ، أمّا الكبار فيرتدون ما يشاؤون. أراني كتاباً من القصص المصوّرة التي يحبّها سألته إن كان يستعيرها من المدرسة. قال إنّ معلمتهم اصطحبتهم إلى مكتبة المدرسة مرّة. لكنّه لم يذهب إليها وحده. قال إنّ والده يصطحبه إلى المكتبة ليشتري ما يريد. عندما قلت له إن الاستعارة شيء جيّد لأن ليس بامكان الواحد شراء كل ما يريده، أخبرني حينها عن الكتب الكثيرة التي يملكها والده. لكن ليس لديه هنا بمقدار ما كان عنده في كندا. عند انقضاء الوقت سألني أسامه إن كان ممكناً أن أعطيه عنواني البريدي أو رقم هاتفي ليبقى على تواصل معي. حيّاني ادغار برفع يده مودّعاً. فكّرت بمدى لطف هذا الولد وبعمق ارتباكه. لكنني كنت مرتاحة إلى تفاعله معي. كأنّ هماً انزاح عن كاهلي.

كنت في مزاج جيد عندما تلقيت اتصالاً من كريستيل. سألتني أن أمرّ بهم عند سابين. في البيت وجدت أمي تشاهد مسلسلاً تركياً بينما تكوي. خفضت الصوت لحظة دخلت. كلّمتني عن البرنامج الاذاعي. سمعته بالكامل لأنّ لديها ساعات فراغ. قالت إن بعضاً من تلاميذها الذين تعلّمهم للسنة التالية يعانون رعباً من الامتحانات كالذي تكلّمت عنه. هناك من ينسى كل المعلومات التاريخيّة ما إن توزّع عليهم الأسئلة. من بينهم تلاميذ متفوّقون. أعجبها أن أركّز لا على مسؤولية المدرسة وحدها بل على الأهل. قاطعتها لأسألها إن كان هناك مياه ساخنة. استحممت وارتديت ثيابي. كلّمتني بينما أجفف شعري. لم تنتبه إلى أنني لم أسمع شيئاً مما تقوله. اعترضت عندما رأتني أهمّ بالخروج. طلبت مني أن أنتظر قليلاً. لديّ الليلة بكاملها لأرى رفاقي، قالت. لكنّها بدت فاقدة للصبر. دخلت إلى غرفتها وعادت بالهدية. فتحتها لأجد لوحاً رقمياً للقراءة. إنّها المرّة الأولى التي تشتري لي شيئاً يعجبني ليس بلوزة ولا حذاء أو حقيبة بألوان لا أطيقها. شكرتها وقلت لها كم أعجبتني وإنّ لا داعٍ لأن تدفع هذا

المبلغ الكبير. حكت إنّها فكرة كلودا. وهي اشتركت معهما في اختيارها ودفع ثمنها.

لم يأت أبي وكلودا إلا بعد وقت. كان الجوّ مكهرباً بينهما. لم أرد أن أعلم السبب. أنتظرت القالب واطفاء الشمعات لا بل أكلت من القالب، كاسرة بذلك كلّ قواعدي السابقة. لا بدّ أن لطفي فاجأ أمي حتى تعانقني قبل ذهابي دامعة العينين. ثم قالت شيئاً عن رغبتها بالاطمئنان على حياتي لأنّهما لا يصغران ولن يدوما لي. فكّرت بأنها كالعادة لن تفوّت فرصة قلب كلّ شيء إلى دراما. رافقتني كلودا. أرادت أن تعود إلى بيتها. في المصعد أخبرتني إنّ روبير وايلي عند بشارة وإنّها وحدها، دعتني للنوم عندها بعد سهرة رفاقي. قالت إن أبي يريد منها أن تنفّذ قرارات المحكمة وتدع بشارة يدفع ما عليه. رافقتني في جزء من الطريق، اشتكت أنّها تكره أن تبرّر أفعالها. كيف لا يفهم أبي رغبتها في أن ترعى ابنيها وتصرف عليهما. هي ليست عاجزة ولا أقلّ من بشارة. مدخول صيدليتها يكفيها ويفيض عنها. لا تريد أن تكره بشارة أو أن تلومه. لا تريده لا في قلبها ولا في حياتها. الآن وقد هدأت تحسّ أنّه أسدى لها خدمة وما فعله فتح عينيها على أنّها عاشت حتى الآن، كمن يمشي أثناء نومه. ربّما شعرت أن جوّ حديثنا لا يتناسب واحتفالهم للتوّ بعيد ميلادي. غيّرت مجرى الكلام لتخبرني عن جارها الذي لا يستخدم المصعد. العازف تقصدين؟ سألتها. لست متأكّدة من هو بين الأخوين. ربّما كلاهما. المهم أنها كانت تنتظر المصعد وتأخّر. نزلت على الادراج. يبدو أنّه لم يسمع دعساتها في حذائها الرياضي. فوجئ بها كأنّه رأى شبحاً. تقصّدت أن تقترب وتحييه، مدّت يدها لتصافحه وتخبره إنّها جارتهم التي في الأعلى. تأمّل يدها الممدودة كأنّها ملوّثة، غمغم ما لم تفهمه ثم عاد أدراجه إلى بيته. قالت إنّها تضحك كلّما تذكرت لقاءها به. لم تعرف أحداً هكذا أبداً. وصفت لي شكله بعد أن سألتها. قالت إنها أرادت أن تخبره عن العزف الجميل الذي يصلها من حين لآخر. لكنّ فزعه منها منعها. قالت إنّ الناطور والجيران

لا يسمّونه باسمه بل يطلقون عليه جملة ألقاب من بينها الدبّ. لا لميله إلى السمنة بل لسلوكه العدائي وعزلته. لم تتركني إلا حين وصلت إلى شارع سابين. معست عقب سيجارتها بطرف حذائها، عانقتني وقالت لي أن أتذكر بأنها تنتظرني حتى لو تأخّر الوقت. سمعت أصواتهم وأنا في مدخل البناية. تراكضوا نحوي ما إن فتحت لي سابين الباب. كالعادة هناك وجوه لا أعرفها. لحظة وقع نظري على ميشال، فرحت بحقّ. كان الأقرب إليّ من بين الجميع طوال أيّام الجامعة. بعد عمله في الكويت لم نلتق إلا مرّتين. قالت كريستيل سعيدة «مفاجأة هل كنت تتوقّعينها؟». اكتسب بعض الوزن وبدأ الشيب يظهر في فوديه. في الجامعة التي درس فيها الاقتصاد كان شديد الاختلاف عن كلّ الطلّاب. يستحيل ألّا يُرى. كان يرتدي بدلات قديمة إمّا واسعة وإمّا موضتها قديمة. كأنّه ورثها من أبيه أو جده. لكنّ أكثر ما كان يضحكني هو لهجته العكارية. سكن في غرفة في فرن الشباك مع شاب من عكّار يعمل في الماكدونالدز. أخته المتزوّجة التي تعيش في استراليا تكفّلت بتعليمه. هو الصبي الوحيد بين أخواته الأربع. كلّ قرش كان محسوباً. لا يسهر معنا ولا يطلب شيئاً إن دخل بعد إصرارنا إلى أحد المقاهي. توفيراً كان لا يذهب عند أهله إلا كلّ أسبوعين. لولا الأطعمة التي يحملها معه لطال غيابه. أذكر سندويشات اللبنة والزعتر والخبيزة المقلية والهندباء البرية وأطعمة ما كنت أعرفها لولاه كالعاقوب. لم يكن يداري اختلافه عن الآخرين ولم يتبدّل أبداً. لم يتخل عن تلك التقاليد التي تربّى عليها. أشياء كثيرة كان يعتبرها معيبة ولا يبالي بنا حين نصف أفكاره بالرجعية. رفاقي تقبّلوه بصعوبة من أجلي. يجدونه فلاحاً غريب السلوك. مع الوقت اعتادوا عليه وكانت لا لهجته فقط بل تعليقاته الفجّة تضحكهم.

أرادوا أن أختار المكان الذي سنكمل سهرتنا فيه. عندما اقترحت أن نبقى عند سابين. ذكّرتني برفيقة سكنها وبقدسية ساعة نومها. ما كنت راغبة في أن أطيل السهر ولا في أيّ شيء صاخب. قلت لهم إن هناك باراً

لطيفاً في الحمرا. لم يعجبهم اقتراحي يفضّلون الجميزة. لكنهم رضخوا في الأخير لأنه عيدي أنا. تردّد ميشال قليلاً ثم قال أن ليس بامكانه أن يتأخّر لكن من أجلي سيسهر قليلاً. وجدنا المكان مزدحماً حقاً. انشغلت في الكلام مع ميشال وتجنّبت شرب كأس الجين تونيك التي طلبتها. لا أريد أن تستيقظ آلام معدتي. تبدّلت لهجته وصارت شبيهة بأهل الخليج. قال إنّه جاء من أجل أن يتزوّج. في مشوار سابق خطب فتاة تعمل في مختبر طبي. في مشواره هذا سيتزوّج. مع أن عرسه بسيط يتمنّى أن ألبّي دعوته لحضوره. همس في أذني إنّه لا يستطيع أن يدعو الجميع مشيراً بعينيه جهة رفاقنا. انتبهت فجأة إلى غياب عليا. أردت أن أسأل كريستيل عن سبب غيابها. لم أتذكّر ثانية إلا وأنا عند كلودا. تلقيت هدية مشتركة منهم حقيبة للكمبيوتر وعلبة ماكياج ماركتها كلينيك، وقنينة عطر علمت لاحقاً إنها من ميشال وحده، إذ ظلّ يفهمني إنّها أصلية ومن السوق الحرة في الكويت. صار يشبه كل الذين يعملون في الخليج. افتقدت وأنا أحكي معه ذاك الذي كان عفوياً. لا يهتمّ بأن يكون بالنسبة لمن حوله من عصر آخر.

* * *

أخذت نتائج الفحوصات إلى طبيب العائلة. قال إنّ علاج الجرثومة طويل. قد لا تقتل بسهولة، لكن بما أنني شابة بامكانه أن يعطيني مضادات قويّة. هذه المرّة لم أشتر الأدوية. سأطلبها من كلودا. تذكّرت الزاوية التي خصّصتُها للتمرّن على مزج الألوان. بدت لي خربشات كالتي يقوم بها الأطفال أوّل مرّة يمسكون فيها أقلام التلوين. عندما رأتني أحدّق بها. ضحكت وقالت إنّها مجرد تمارين. حكت عن صفها. عن خشيتها في البداية من أن تكون كبيرة للعودة إلى صف. لكنها اكتشفت معها من هم في الخمسين والستين. بعدها أرتني ما وجدته في بحثها عن الهجرة. استراليا هي الأفضل قالت لي. ثم فتحت على الكمبيوتر ملفّاً. كرّت على الشاشة صور مدن ومعالم وجسور وغابات خضراء وأنهار وبحيرات .

نظرت حالمة كأنّها انتقلت حقّاً إلى تلك القارة البعيدة. سألتني كما لو أنّها ستسافر غداً لماذا لا أفكّر باكمال تعليمي هناك؟ أليس هذا ما أردته؟ كما أنني أجيد الانكليزية. القليل من الدروس فيها ويمشي الحال. ابتسمت ولم أجب. لم أقل إنّ المسألة ليست بهذه البساطة. الا تنتبه إلى أنني أجاهد لتأمين مصروفي. كيف أدفع أقساطي وتكاليف معيشتي. كأنّها قرأت ما يجول في رأسي. أردفت أنّها ستساعدني. لديها مدّخرات كما وجدت أن لديها امكانية العمل كباحثة في أحد المختبرات. ليس من الضرورة أن تفتح صيدلية. لم أوقف حماسها، خاصة وأنها خلال الشهور الماضية بدت منطفئة مات فيها كل شيء. سألتني ألا أخبر أحداً بهذه الأسرار. حين يعرفون سيفسدون عليها خططها. أنا أيضاً لم أذكّرها بالمعوّقات. هي حرّة في أن تحلم بما تشاء حتى لو أرادت أن تذهب إلى هناك وتتحوّل إلى صيّادة في الأدغال. حزنت وفكّرت بأنني ما عدت أحلم بشيء. أعيش بفعل العادة. هكذا في عيد مولدي، لا يخطر ببالي إلا أفكار قاتمة. حتى عندما كنت أسعد حالاً. كنت أفكّر أنّ كلّ شيء يموت. كلّ سنة تمرّ تزداد خسارتي. حين لحظت كلودا مزاجي، حاولت أن تسرد عليّ قصصاً مضحكة تتعلّق بزبائنها. كيف يخطئون في لفظ أسماء الأدوية. تسألهم عن سبب استخدامها علّها تحزر مثلاً أنّ البوندولين هو الفانتولين والبريستول هو الكريستول.

رسالته التي قرأتها قبل أن أنام عدلّت من سوء مزاجي. كأنّه حدس ما أمرّ به، أو أنها مجرّد صدفة. كتب لي أنّه رأى على التلفزيون مركب مهاجرين قضوا شهوراً في عرض البحر. جاعوا ومات منهم عشرة وحين ألقيت لهم رزم الطعام من المروحيات رموا بأنفسهم في الماء لالتقاطها ولالتهامها دون فض أغلفتها. معظمهم لا يعرف السباحة حتى. أجساد نحيلة، وجوه بائسة. كانوا يكرّرون أمام الكاميرا «نحن جائعون جائعون. رمينا من مات منّا في البحر» رؤيتهم أخجلته وفكّر أن بؤسه الشخصي مزحة مقارنة بهؤلاء. لا يستطيع أن ينسى صورتهم. كأنّ ذلك أخجلني

بدوري، تذكّرت ما كانت تقوله أمي حين أتشاجر معها في صغري بأن هناك أولاداً لا أهل لهم. حين ألتقي بالشحاذين الصغار كنت أعطيهم المال، علّ الله لا يعاقبني على قولي إن أهلي أسوأ أهل. كانت أمي تؤجّج خوفي بوصف نومهم في الطرقات وبأكلهم ما في النفايات. لماذا كانت تفعل ذلك بي؟

أكيد أن مراسلي كبير في السن. هناك كلمات لا يستخدمها من هم في عمري. ماذا قصد ببؤسه الشخصي؟ فكّرت أنني لن أحذف رسائله بعد الآن. بطريقة ما هو أقرب إليّ من رفاقي. كتب لي أسامة أيضاً رسالة قصيرة، يخبرني فيها إنّ أدغار حكى مع أمه. لم يقتصر الأمر ككلّ مرّة على أجوبة جافّة ومختصرة. ربما تحسّن بفعل مقابلتي له أو أنه وجد طريفاً أن تدرس أمّه مثله. أرته الكتب الجامعية التي اشترتها كما حدّثته عن الاختصاص الذي اختارته. إنّها أطول محادثة يجريها معها منذ عودتهم إلى لبنان. أراد فقط أن يطلعني على هذا التطوّر الجديد. تمنّى لي يوماً جميلاً.

كنت قد نسيت مجدّداً أمر عليا حين وصلني منها أس أم أس تقول فيه إنّ حياتها لا يمكن أن تسوء أكثر مما هي عليه الآن. قالت إنّها واقعة في مأزق، ليس بإمكانها شرحه هكذا. ستحكي معي خلال استراحتها. نسيت تماماً أمر سهرة البارحة وعدم مشاركتها فيها. كنت متأكّدة من أنّها بعثت بالرسالة نفسها إلى غيري، هذه عادتها. في أوّل علاقتي بها كنت أظنّ أنّها تخصّني بأسرارها إلى أن اكتشفت أنّها تخبر كل معارفها، حتى غير المقرّبين. النصائح التي تطلبها رغم ابدائها الاهتمام بسماعها، لا تفيد في شيء. لا تفعل إلّا ما في رأسها. لن يصيبني أيّ تأنيب ضمير إن أطفأت هاتفي ولم أجب على اتصالها.

* * *

على مرّ الوقت تحوّل ادغار إلى صبي آخر. لم أكن أنا تلك الساحرة

التي بدّلته، كما يحلو لوالده أن يعتقد. ازداد عدد أصدقائه وامتلأت أحاديثه بأشياء عن علاماته وعلاقاته برفاقه. كلّ ما كان يلزمه هو بعض الوقت. سجّله والده في نشاطات بعد الظهر. ادغار اختار الكاراتيه، ووالده أقنعه بالمسرح. عندما قلت لأسامة إنّ ابنه ما عاد يحتاجني. أصرّ أن أراه ولو مرّة في الأسبوع، يخشى أيّ انتكاسة. كان أسامة يفضّل البقاء في الممر، لم أفهم لماذا لا ينصرف ليعود لاحقاً. أحسّ الممر مكاناً كئيباً لا لضيقه فقط بل لشبهه بالعيادات الطبية داخل المستشفيات. كان يأتي حاملاً في يد كوباً كبيراً من القهوة من ستارباكس وفي الأخرى هاتفه. إمّا يقرأ وإمّا ينقر مفاتيح هاتفه. أحياناً كانت أحاديثه الهاتفية تتسلّل إلى مسمعي دون أن أفهم ما يقول. كنت أنزعج من إحساسي الدائم أنّ هناك من يراقبني ولو أنّ الباب مغلق. لا أستطيع أن أنسى وجوده خلف الباب. إضافة إلى الحديث مع ادغار كنت أساعده في إنجاز فروضه عندما تكون كثيرة، وصرت دون أن أنتبه أشبه بمعلّمة خصوصيّة له. عندما أخبرني إنّه قد يسافر في عطلة الميلاد لزيارة أمه، سألته إن اشتاق لكندا. لم يجب. ردّ أنه ليس متأكّداً من سفره. بعد كلّ جلسة كنت أحكي لدقائق مع أسامة عن ادغار. يسأله إن أخبرني كذا أو كذا. لاحقاً صار يمرّر في حديثه أشياء تتعلّق به، كإخباري عن طلّابه. تفاجأ من جهلهم. لا يفهم سبب اختيارهم الأدب كدراسة إن لم يقرأوا أيّ شيء. فيما بعد كان يسألني عن أسباب اختياري لدراستي، أو عن رأيي بمواضيع تتعلّق بالسياسة أو عادات الناس هنا. فهم سريعاً أنني جاهلة في السياسة كجهل طلابه للأدب. عرفت أشياء كثيرة عنهم. كسكنهم في شارع بيضون قريباً من أخت أسامة. يبقي ولديه عندها حين يضطرّ للغياب عن البيت. يتجنّب قدر الامكان السهر خارج المنزل. فهمت أيضاً أنّه قرّر أن يأتي إلى لبنان بسبب الطلاق. أراد مكاناً مختلفاً لحياتهم الجديدة.

مع أنّه تخلّى عن الشورت والصندل منذ برد الطقس لكنّه ظلّ يرتدي أشياء غريبة، أنوراك أحمر لا يتخلّى عنه حتى حين يضع ربطة عنق. علمت

أنّ استقراره في لبنان قد لا يكون نهائياً. لم يتخيّل أن يكون العيش هنا مكلفاً هكذا، إيجار الشقق والأقساط المدرسيّة التي تفوق كلفتها بعض الجامعات الخاصة. بقيت كلمته الأخيرة معلّقة لكنّني فهمت أنّه خجل من ذكر نفقة زوجته السابقة. ما يقلقه هو أنّ الانتقال الدائم من بلد إلى آخر لن تكون نتائجه جيّدة على ابنيه. أخذ سنة إجازة من عمله في كندا ليتّخذ قراره. كان يحكي معي أيضاً عن الكتب التي يراها فوق مكتبي. يسألني عن كتّابي المفضلين. ما كنت معتادة على الكلام عمّا أقرأه مع أحد. لذا كنت أرتبك في أجوبتي كمن يخضع للامتحان. كان ينصحني أحياناً برواية أو بفيلم. تكرّرت دعواته لي مرّة إلى نادٍ للسينما يعرض أفلاماً اوروبية قديمة. في أخرى كان يسألني أن أشرب قهوة بعد انتهاء عملي. حتى أنّه دعاني إلى قضاء يوم في الجبل للغداء مع أصحابه وعوائلهم. كي يقنعني قال إنني أعرف كريم ووالديه جبران ومي. الغداء سيكون في بيتهم الجبلي. لم أكن أتحجّج بشيء لأرفض. أكتفي بشكره على الدعوة. لكنّه ما كان يتوقّف. إلى أن سألني ذات مرّة إن كانت دعواته تزعجني. عندما نفيت أجابني إنه سيتوقّف عن فعل ذلك. سينتظر منّي أنا أن أخبره متى أكون متفرّغة. لكنّه لم يفعل. تحوّل الأمر مع الوقت إلى مزحة نضحك عليها كلانا. كأن يقول «غير الاجتماع الوزاري الطارئ ماذا لديك؟» أو يوجّه إليّ دعوات خيالية ليضحكني. «سهرة على ضفاف السين» «التزلّج في سويسرا» وأشياء لم أسمع بها كمباريات الهوكي في كندا. المرّة الأولى التي أحسست فيها أنني أفتقد أحاديثنا المسروقة هي حين لم يأت ادغار على موعده. وجدتني أنظر إلى الساعة بعصبية، إلى أن وصلني أس أم أس قصير من أسامة يخبرني فيه باصابة ادغار بالتهاب في القصبة الهوائية معتذراً عن تأخره غير المقصود في إعلامي. الرسالة عكست قلقه. لأنه لم ينهها بعبارات المجاملة المعتادة. ترددت في اليوم التالي لكنّني حزمت أمري وكتبت لأسأله عن حالة ادغار. ردّ سريعاً بالقول إنّ حرارته بدأت تنخفض تدريجياً.

لم يطل الأمر حتى أعرف مقصد عليا بالمأزق. تلقيت ثلاث مخابرات من سوسن ومن كريستيل ومن سابين. كل واحدة نبّهتني أن أحتفظ بالخبرية سرّاً. تظاهرت بالمفاجأة في كلّ مرّة. الشاب الذي تخرج عليا برفقته، اشترى منها السيارة بموجب وكالة واعداً إيّاها بأن يعطيها الشيك بعد أيّام. حتى الآن لم يفعل. لا تدري أيّ حجة تقولها لأبيها عندما تذهب برفقته لشراء سيارة. صحيح أن والدها سيدفع ثمن سيارتها الجديدة لكن عليها أن تردّ له ما قبضته من بيع القديمة. لا تستطيع أن تخبره بالحقيقة، ولا تريد أن يعلم شيئاً عن علاقتها بالشاب. كان ردي عليهن بأن الأمر لا يستحق. لن يطول بها الأمر حتى تجد حلاًّ. لذا لم أرد لا على رسائلها ولا على اتصالاتها. حتى حين اشتكت لكريستيل لم أبرّر تصرفاتي. سألتني كريستيل مباشرة إن كنت زعلانة من عليا. أجبتها بسؤال آخر «لماذا سأزعل منها؟» ثم قلت لها «لتتخيّل نفسها في مركب تتقاذفه أمواج المحيط من شهور دون طعام» استغربت كريستيل قولي وحاولت أن تفهم مقصدي. أجبتها إنّني أمزح. تلك الرسائل بدّلتني. كنت أغضب بسهولة من أتفه العراقيل. الآن أفكّر بأمور كثيرة كانت كبيرة ومؤلمة ثم صغرت ونسيتها. في الرسالة التي عاد ليحكي لي فيها عن فقدانه لصديقه، كتب لي أنّه ينهض من نومه، يعمل، يأكل ويزعل إن لم يكن الطعام شهياً، يضحك لنكتة سمعها، ويغضب من مخالفة ظالمة أو من موعد تأجل. يسترخي تحت دش من الماء الساخن ويستعذب النوم، وعندما يتذكّر فجأة أنّ صديقه ما عاد هنا يحسّ بانقباض في صدره وبوجع لا يحتمل. لكن حتى هذا التذكّر سيبتعد ويتلاشى. النسيان سيمحونا جميعاً. كنت أحسّ أنني غريبة ليبعث بي كلام كهذا طمأنينة.

كانت المواعيد التي أتابع فيها كريم مختلفة عن السابق. لم يعد ذلك الولد الصبور. صار يتأفّف من التمارين ويسألني كل بضع دقائق، إن كنا انتهينا. كبر، وزاد اعتراضه على المجيء . أمه أسرّت إليّ بالأمر. عندما تفهمه أن كل ذلك لصالحه في المدرسة، يردّ إنه لا يفعل سوى الدرس

والدرس. أمّا أخته فتفعل ما يحلو لها. لا أحد يسألها لا عن فروضها ولا عن علاماتها. عندما يأتي مع والده جبران، يكون أكثر هدوءاً. لكن ما إن يمرّ بعض الوقت حتى يحاول أن يتملّص أو أن يدّعي أنّه مريض، رأسه يؤلمه أو أن فروضه كثيرة. صارحت والده جبران بالصعوبات وببطء تحسّن كريم منذ مدة. لام نفسه مباشرة قائلاً إنّه يغيب طويلاً عن البيت. العمل كثير ولا يرى عائلته إلّا يوم الأحد. كان يخفض بصره ما إن أنظر باتجاهه كأنّه يتحاشاني. ثم غيّر الموضوع ليخبرني عن نسيبه أسامة وعن تبدّل ادغار واستفادته من جلساته معي. ابتسمت وعدت لأسأله عن هوايات كريم وإن كان يمارسها أم أنه محروم منها. نصحته بأن يسجله مع رفاقه في كرة القدم التي يعشق كل ما يتعلّق بها. تذكّرت كيف اضطررت للقراءة عن هذه الرياضة كي أستدرج اهتمامه. هكذا دخلت عالم ميسي وبرشلونة ورونالدو وريال مدريد. حتى أنني اشتريت له شعار برشلونة، خاطه فوق حقيبة كتبه. منه علمت مواعيد مباريات الدوري والكلاسيكو. أبديت حماساً مزيّفاً علّه ينسى تمرّده إلى حين.

في الاذاعة زاد عدد الضيوف وتنوّع بين البصّارات وقارئات الفناجين وأطبّاء وخبيرة لياقة اجتماعية. كأنّ أحداً يحتاج إلى دليل ليعرف إن كان عليه أن يصافح أحداً في المصعد أو يكتفي بالتحيّة. الحديث عن أصول تبادل الرسائل البريدية أشعرني بأنني لا أعيش معهم في العالم نفسه. من يهتمّ بمعرفة إن كان لائقاً أن يضع رجلاً فوق أخرى. هل هناك فعلاً من يسمع هكذا نصائح. كنت أظنّ أنّها كلها لجذب مستمعين، لكنّ رؤية كلّ العاملين المتهافتين على البصّارة قبل وبعد فقرتها، جعلني أفكّر أنّ الجميع يصدّقون كلامها كأنه مقدّس. مرّة جرتني تانيا بالقوة لأرى حظّي، ظنّاً منها أنّ امتناعي سببه الخجل. عندما سألتني البصّارة الجاحظة العينين عن اسمي، لم أجب. كان وجهي محتقناً وفكّرت أنّني إن تكلّمت سيظهر انفعالي وغضبي. أجابت تانيا بدلاً مني. قالت أن أضمر على شيء. ثم أفتتْ إنني بعد إشارتين ربما بعد يومين أو أسبوعين أو شهرين، سأسمع

بخبر كنت أنتظره. صفّقت تانيا وتحمّست كما هنأتني طالبة «حلوينة» متى يحصل ذلك. أدرت ظهري وخرجت بسرعة لأتنفّس بعمق كأنني كنت محبوسة في قنينة. لم أفهم لماذا غضبي. لماذا لا آخذ الأمور باستخفاف. أكره طبيعتي والقضبان التي أسوّر بها نفسي كلّما كبرت. لم أكن هكذا أبداً. عبرت الشارع ودخلت إلى المقهى قبالة الاذاعة. تفاجأت برؤية جبران والد كريم. لم يلحظني بداية كان مستغرقاً في الكلام مع رجل. كانا ينظران إلى خرائط أمامهما. بدوا غير متفقين على أشياء فيها. طلبت كوب بيرة رغم برودة الطقس. أمّا تحذيرات الطبيب من الكحول أثناء العلاج فقد نسيتها لحظة خرجت من العيادة. كنت حزينة، فيما سبق كنت بارعة في الهروب. الآن ما عدت أجيده. لا المشاوير ولا أيّ سهرة تمنعني أن أسقط في تلك البئر. داريت دموعاً كادت تنهمر على خدي. في مكان عام سأنكشف هكذا. أكيد هناك شيء مختلّ في داخلي. وضعت نظّارات الشمس. وتأمّلت الشارع. الواجهة الزجاجية لم تنظَّف بعد أمطار البارحة. العالم من خلالها يبدو غائماً. لم أنتبه حين وقف قبالتي ربّما بسبب الموسيقى التي عزلتني. أبعدت السمّاعات عن أذنيّ ورددت على تحيته. وقف مرتبكاً كأنّه ملزم بتوضيح سبب وجوده في المقهى. علمت أنّ لديهم ورشة بناء في الشارع المحاذي. بعد أسئلة المجاملة عن صحتي وعملي قال إنّ لديه بعض الوقت هل أمانع لو شرب برفقتي فنجان قهوة. لو كنت صريحة لأخبرته إن لديّ مانعاً في أن أرى الآن أياً كان. حين لم أبادر إلى الحديث. أخبرني هو عن كريم بما أنه القاسم المشترك بيننا. كيف يصطحبه مؤخّراً إلى الورشة معه يوم السبت، لا يريد أن يكبر ابنه وهو في غفلة عن لحظات لن تعاد. عاد ليسألني إن كنت سعيدة بعملي. هززت رأسي في إشارة لا يفهم منها إن كانت ايجابية أم سلبية. ما لبث أن سخر من سؤاله قائلاً: «العمل مجرّد عمل، ما علاقته بالسعادة.» حدّثني على خلاف عادته عن الأيّام التي كان يدرس فيها في فرنسا. عن أصحاب كانوا كالأخوة بالنسبة إليه. كانوا يفكّرون أنهم سيغيّرون العالم.

واحد منهم كانوا يطلقون عليه اسم غيفارا لكثرة ما كان مهووساً بالعدالة الاجتماعية. يعيش الآن في نيجريا وعدالته الاجتماعية هي في زيادة ثروته مهما تطلّب الأمر. هو كان يظنّ أنه سيكون كورفوازيه آخر. لم أسأله من يكون كورفوازيه هذا. الآن عمله مقاولات لتنفيذ أبنية بلا روح، تتّسع لأكبر عدد من الشقق. أردف معدّداً بسرعة هناك من مات، او من بقي في فرنسا ومن غابت أخباره نهائياً. لا أحد منهم فعل أيّاً من الأشياء التي كان يظنّها حينها حلمه. انتبه إلى أنّه تكلّم كثيراً. احمرّ وجهه وأبعد كرسيه كأنّه سيقوم حين سألته بهدوء: كيف مات صديقك؟ أنا أيضاً كنت مضطربة، لم أحسب أنني سأتجرّأ على هكذا سؤال. ردّ إنّه يتكلّم مجازيّاً، ما يقصده أنّ على الواحد أن يقنع بأنّ الحياة لا تشبه الصورة الخيالية التي نرسمها في مخيلتنا. وقف كأنّ عقرباً لسعته. تمنّى لي يوماً جميلاً معتذراً عن ازعاجه لي بكلام عجائز. نظرت إليه قلت إنني ما عدت صغيرة على أيّة حال وكلام العجائز يناسبني. تعجّبت من جرأتي. هو أيضاً فاجأه أن أتكلّم بعد أن اعتاد على صمتي. تهيّأ لقول شيء ما لكنّه امتنع. حتى حين سألته إن كانت استراحته انتهت لم يردّ. شكرني على كلّ ما أفعله لكريم، كأنّه يعيد الأشياء إلى نصابها. بقيت في المقهى بعد رحيله. حاولت أن أحزر في أيّ ورشة يعمل. صعب أن أحزر وفي كلّ ركن من الشوارع ورش هدم وترميم وبناء. جبّالات تتجوّل على مدار الساعات. تذكّرت لقائي برضا بالقرب من بربر في الحمرا. كان برفقة فتاة ابتعدت حين سلّم عليّ وقبّلني. لكنّه ناداها باسمها «روان» لتقترب. عرّفني عليها على أنّها خطيبته. ابتسمتْ وبدت لي خجولة، ابتعدتْ مجدّداً كأنّ حديثاً سرّياً يجري بيني وبين رضا، وحين نظرت باتجاهها رأيتها تنشغل أو تتظاهر بتأمّل الواقفين بانتظار طلبيتهم. لكنّه سحبها من يدها وقرّبها مجدّداً. وقفت منقّلة ارتكازها من رجل إلى أخرى، سألني إن كان قبالتي شقة ما للايجار. ذكّرته بأنّ لديه شقة. ضربني على رأسي وقال «يا بلهاء، شقة لنا أيّ للزواج» سألته إن كان يحسبني سمسارة عقارات. كرّرت تهنئتي لهما

وأنا أودّعهما. الخطوبة غيّرته. لا أدري كيف لكنّه مختلف. كان بإمكاني أن أسأل جبران عن شقق للايجار. ذريعة جيدة للحديث ولتأخير مغادرته. موضوع محايد لا يربك أيّاً منا؟ لكن ماذا أريد منه؟ هل هو من يكتب إليّ؟ ألأنّه ذكر صديقاً مات؟ كأن العالم ليس مليئاً بالموتى. أعدت في رأسي مصافحته القويّة لي. لا أزال أحسّ أنّ حريقاً لسع أصابعي. رائحة عرق خفيف كانت تفوح منه كلما تحرّك بقيت في الجوّ بعد رحيله. قبل أن يجلس معي تمنّيت ألّا يفعل وحين أراد أن يرحل تمنّيت أن يبقى. ماذا يحدث في عقلي الأخوت؟

أمطار استمرّت ساعات. فكّرت بأن أترك المكتب. لا أستطيع انتظار توقّف المطر أكثر مما فعلت. حين رآني الحارس أخرج دون مظلة مكتفية بقبعة صوف فوق رأسي ركض نحوي وناولني شمسية ملونة بالزهور. لم أرد أخذها لكنّه بدأ يقسم كأنها مسألة حياة أو موت قائلاً «لن أقبل والله، غداً تعيدينها لي» لم يكن أمامي سوى أن أقبل. نسيت مظلتي في البيت، ولا سبيل آخر لانتظار سرفيس. حتى حين كنت أقول إنّني سأدفع أربعة أو خمسة آلاف ما كان أحد يقبل بأن يقلّني. أنهار جارية في الشارع جارفة معها أكياس نايلون وردم البناء القريب وكلّ زبالة الشوارع. الماء نفد إلى الجزمة التي أنتعلها. تبلّل بنطلوني حتى الركبتين. وجهي وشعري غسلته الأمطار التي كانت تصفعني من كلّ الجهات. الشمسية لم تقو على الرياح، كانت تجرّني معها كأنّها ستطيّرنا كلينا. أضاءت الاشارة أخضر مرّات دون أن تتمكّن السيارات من التقدّم ولو خطوة. كنت أحسّ بالدموع تملأ عينيّ. فكّرت بأن أتصل بجريس تاكسي ولو كان ذلك سيكلّفني خمسة عشر ألف ليرة. ردّ عليّ رجل أجشّ الصوت وتأسّف لأنّ كلّ سيّاراتهم خرجت من المكتب وعلقت في الزحام. جاء الدرّاجون وحاولوا فتح الطريق. حين بدأ الأمر يتحسّن توقّفت سيارة قربي ووافق سائقها على أن يقلّني. قال لي ما إن ركبت سيارته إنّ حظّي جيد لأنّه عائد إلى بيته وصادف أنّني في طريقه. أمتار قليلة وتوقّف السير. نصف ساعة دون أن

نتحرّك، ودون أن تجدي نفعاً الزمامير التي انطلقت في آن واحد. العتمة حلّت والأمطار لا تعرف هدنة أو استراحة. كان السائق يحاول أن يجرّني إلى الكلام، مرّة بشتم الدولة واستهتارها بالمواطن، وأخرى بسؤالي عن عملي وفي الأخير يئس وشغّل المسجّلة. انطلقت الأناشيد الدينية بصوت عالٍ. بركة من الماء تجمّعت تحت قدميّ. ليست من المظلّة التي كسرت قضبانها فقط بل من جسمي وملابسي. قشعريرة برد قوية أمسكت بي. كنت أحسّ بلسع الريح المتسلّل من الشبابيك غير المحكمة. مرّة أخرى تمتلئ عيناي بالدموع. لا أفهم ما الذي يحصل لي اليوم. الوقت يمرّ ولم نتقدّم أكثر من خمسين متراً. فكّرت لو أن المطر تخفّ حدّته فأمشي قليلاً. السير أرحم من البقاء في السيارة دون أن نتزحزح من مكاننا. لم أصل قريباً من بيت كلودا إلّا بعد ثلاث ساعات. حاولت خلالها سماع الموسيقى أو تفقّد بريدي لكنّ الارسال لم يسعفني، إذ انقطع نهائياً. حين سألني إن كنت أنزعج من الدخان. وجدتها فرصة لآخذ راحتي في تدخين سيجارة تلو الأخرى. البلل وصل إلى ثيابي الداخلية. رجفتي كانت تقوى لا بسبب البرد فقط بل بسبب الانفعال. حين أردت أن أنزل قرب كلودا، رفض السائق أن يتقاضى منّي أجرة. قال أن أدعو له ليفتحها الله في وجهه. لا يريد أجرة يكفي كم تعذّبنا لنصل. شكرته ورميت الأجرة إلى المقعد الفارغ القريب منه. سمعته ينادي «يا ست» أكملت طريقي تحت مطر صار أقلّ قوّة. مدخل البناية كان أيضاً مليئاً بالماء والوحول، اشتكى الناطور لحظة رآني من لعنة اليوم، عشرات المرّات مسح المدخل ليعود إلى حاله بعد دقائق. تمتمت معتذرة على بقع الماء التي أتركها خلفي. الموكيت في أرض المصعد كانت مبقّعة ربما من سوائل أكياس الزبالة لأنّ الرائحة كانت نفّاذة. قرعت مرّات وهممت بالمغادرة قبل أن تفتح كلودا. تفاجأت حين رأت شكلي. أنا أيضاً فزعت عندما رأيت وجهي في المرآة. عيناي بركتا دم. شعري ذهب في كل اتجاه. لطخات وحل ممزوج بالمطر بقّعت حتى وجهي. صحيح أنّ الناس كلّهم تحمّلوا بمقداري،

لكنّني ظللت أحسّ أنّني هشّة وضعيفة، ولم أعلم كيف أبتلع هذه الدموع اللعينة. أما لماذا لم أذهب إلى البيت وجئت إلى هنا لم أعرف ولم أخطّط. ربّما لأنه الأقرب. حرارتي ارتفعت خلال السهرة. معدتي أيضاً بدأت تنتفخ دون أن آكل حتى. لم أتمكّن من الاستحمام. ذلك يتطلّب جهداً جسدياً لا أملكه. أعطتني كلودا واحدة من بيجاماتها الشتوية. غطّتني بأغطية الصوف. أعدّت لي فنجان زهورات. لم أشربه. بقيت أتأمّل أبخرته وأشتمّ رائحة البابونج العطرة حتى تبدّدت نهائيّاً. انتبهت إلى كدرها. لكنّني ما وجدت القوّة لأحكي وأسألها عمّا بها. رفضتُ النوم في غرفة النوم. قلت أريد أن أبقى في مكاني على الكنبة، حين أتحرّك يستولي عليّ البرد. كان التلفزيون مقطوع الصوت، حين بدأنا نسمع العزف من الشقة تحتنا. الأبواب المغلقة وصوت الرعود كان يخفيها، لتنبعث من جديد عندما تعلو النوتات. كلتانا أنصتنا بخشوع وحزن دارينا إظهاره لبعضنا. لم أسألها لا عن روبير ولا عن أيلي. صمت البيت يعني أنهما يبيتان عند بشاره. رغم رفضي، قامت إلى المطبخ وحضّرت سباغيتي بصلصة بيضاء لأنّ البندورة ثقيلة عى معدتي. كنت أنبش برأس الشوكة ما في الصحن ولا آكل. لم أرد أن أخبرها عن السكاكين التي تقطع معدتي. هل السبب البرد الذي تعرّضت له، أم تلك الجرثومة. قالت إنّ ايلي كان يحبّ هذه الباستا، الآن لا يحبّ أيّ شيء تفعله أو تحضّره. قال لها منذ أيّام إنّها لا تريده أن يكبر وتخنقه بخوفها غير المبرّر. تمنعه من التنفّس. صار كلامه هذا لازمة يكرّرها كلما اختلف معها. قال إنّ والده يفهمه على الأقلّ ولا يعامله كأنّه عاجز عن فهم الحياة. يدعه يسهر حتى منتصف الليل مع أصحابه. ولا يقيّده بأن يتصل به كلّ لحظة ولا يحرجه أمام رفاقه. عندما تريد تقبيله يبعدها بيده كأنّه يكشح ذبابة طنّانة، مدّعياً أنّه لم يعد طفلاً. حين تقول لكنّك ابني وستظلّ مهما كبرت، يردّ عليها إنّ مشكلتها هي أنّها بدلاً من أن تنشغل بحياتها، تفسد حياته وحياة أخيه. كانت حزينة جداً وهي تكرّر فيما يشبه السؤال «كيف أفسد حياته وأنا أحبّه أكثر من حياتي وكلّ ما فيها؟»

لا تدري أتعلّم هذا النوع من الجدال من رفاقه أم إنّها حقّاً أخفقت في كونها أمّاً. لكنّ أكثر ما يجرحها عندما ينتقد جوّ البيت. يقول إنّها حوّلته إلى مقبرة. عندما صارحت بشارة بما يجري من خلافات بينها وبين ايلي بالأخصّ، طالبة كما السابق أن يتّحدا على كلام واحد، أجابها بدوره إنّ العالم يتغيّر من حولهم ولا يفهم لماذا تبقى عالقة في زمن ماض. نصحها بالتكيّف مع ما يجري. سألتني منذ متى كان حضرته منفتحاً. لا تزال تذكر حديثه عن أهمية التقاليد والعائلة. عندما كانت تشتكي من تدخّل حماتها في تربية الأولاد وإغراقها لهما بالممنوعات والعيب والحرام والأصول، كان يدافع عنها مدّعياً إنّ خبرتها في الحياة تخوّلها فهم هذه المسائل أكثر منهما. عددت الأشياء التي كانا متّفقين عليها وهو خرقها. موعد سهرهما، مراقبة ما يفعلان على الشبكة، عدم السماح لهما بأخذ الخليوي إلى المدرسة، عدم السهر أو الخروج مع الرفاق أيام المدرسة، معرفة الرفاق الذين يخرجون بصحبتهم. كما إنّه يطعمهما كلّ ما اعتبراه طوال سنين مضرّاً ومسبّباً للأمراض والسمنة. روبير يتأفّف أمام أخيه من استفساراتها وأسئلتها وتعليماتها. لكن حين يكون وحده معها، يتبدّل. لا تعلم أهو شعوره بالذنب تجاهها أم أنه الواقع الذي عليها التكيّف معه. أضافت لا ينقص إلا أن يدعهما والدهما يدخّنان. كأنّها انتبهت نظرت إلى أصابعها التي تحمل سيجارة وقالت «على أيّة حال لست المثال الرائع في ذلك؟».

كان العزف يترافق والأمطار التي لم تخفّ حدتها. كنت أنطوي على معدتي وأشدّ عليها بقوّة بالوسادة. حزرت كلودا ما بي، ربّما من ملامح وجهي أو من الدموع الطافرة في عينيّ. ناولتني حبّة دواء قالت إنّها سترخي أعصاب معدتي المتشنّجة. حين رنّ هاتف البيت الثابت جفلنا لأنّ الساعة متأخّرة. ردّت كلودا ثم أخفت صوت السماعة لتخبرني إنّها أمي. كانت تحاول الكلام. بدا أنّ أمي تقاطعها. اعتذرت كلودا وقالت إنّها تركت هاتفها صامتاً لذا لم تنتبه. أخبرتني إنّ أمي وأبي قلقا بسبب حالة الطرقات

وبما أنني لم أرد لا أنا ولا كلودا، لم يستطيعا النوم. تذكّرت هاتفي الذي بقي في الحقيبة. الهواء في الخارج تحوّل إلى رياح صافرة. ضجيج أشياء متطايرة قالت كلودا إنّها ستقصف جذوع نباتاتها. فكّرت أن أغيب غداً رغم موعدي بعد الظهر. لا أريد أن أعيش القهر نفسه. سألتني كلودا بحذر شديد هل المرض هو سبب ما أنا عليه، أم هناك شيء آخر؟ قلت إنّني تعبة هذا كل ما في الأمر. جوابي لم يقنعها. بدأ مفعول الدواء يسري تدريجيّاً وضعت الوسادة تحت رأسي وبقيت مستلقية مفتوحة العينين. سألتني إن كنت أفضّل أن تطفئ الضوء لأنام. لاحقاً سكبتْ كأس فودكا ثم تربّعت ساندة رأسها إلى الكنبة التي أستلقي عليها. غفت بينما سيجارتها تكمل احتراقها في المنفضة. احترت هل أدعها، أم أوقظها. ربما اعتادت أن تنام هكذا كلّ ليلة. أغمضت عينيّ بدوري لكنّ النوم لم يأت. تسحّبت على مهل لأدخل الحمام. فتحت حقيبتي لأكتشف أنّ قعرها مبلّل بالماء. صفحات الكتاب جعّدتها الأمطار وانتفخت. عجبت لأنّ هاتفي عاد إلى الحياة. أثنا عشر اتصالاً من أهلي. وجدت رسالة منه. قال إنّه وصل عند الحادية عشرة إلى بيته. تمنّى لو لم يكن في سيّارته. ألف مرة فكّر بتركها هكذا في عرض الشارع. لم ينس لحظة أنني قد أكون مثله عالقة. ربّما أكون في سيّارة ما قريبة منه دون أن يدري. شغل نفسه بالتحديق داخل السيّارات التي أحاطت به. رأى أولاداً يكتبون فروضهم جالسين على المقاعد الخلفيّة، أو غارقين في النوم وآخرين يحكون على هواتفهم ويومئون بأيديهم. نساء يُزلن ماكياج النهار. أمهات يرضعن أطفالاً. رأى سائقاً غافياً بما أن كلّ وقفة تستغرق أكثر من نصف ساعة. لكنّه لم يستطع إلا أن يسأل ماذا يفعل الذين يعيشون في الخيم أو في الطرقات؟ إن احتموا من الأمطار كيف يغلبون هذا الصقيع.

فتحت كلودا عينيها كأنّها نسيت أين هي أو لماذا أنا هنا. حرّكت قدميها الخدرتين كأنّها تنفضهما. توجّهت إلى المطبخ وعادت بكوبي

حليب ساخنين. جلست قربي وتغطّينا ببطانية الصوف. لم ننتبه متى غفونا متكئتين على بعضنا.

* * *

كيف رضخت وقبلت الدعوة. لا أدري. وجدت نفسي جالسة وسط خليط من الأولاد والعجائز والأهل. الهدية لا تزال في يدي. لم أعلم أين أضعها. ولا أين أجلس لأكون بعيدة. لمحت أدغار مشغولاً برفاقه يريهم أغراضه وألعابه ربّما. باب الشقة كان مفتوحاً. لذا دخلت دون أن أضطرّ لقرع الباب. قلت في نفسي إنّني حالما أرى أسامة أتحجّج بشيء استجدّ لأعتذر عن البقاء. لحظة ضعف جعلتني أصدّق أنّ حضوري لعيد مولد ادغار سيعني له الكثير. يا لسجذاجتي. لم يلحظني حتى. كان عليّ أيضاً أن أشتري هدية. القصص المصوّرة أغلى بكثير من الروايات التي أشتريها. بعد أن اخترت له مجلدين اضطررت أن أبدّل رأيي حين ذكرت عاملة الصندوق ثمنهما. الأولاد كانوا يثقبون بالونات الزينة المعلّقة ويضحكون بسعادة كلما دوّى انفجار أحدها. الصوت كان يجفلني، فأقفز في مكاني. كان هناك خادمتان في حركة دائمة ما بين المطبخ والصالة التي مدّت فيها طاولة. تبولة ومعجنات وأطباق حلوى مختلفة. على طاولة أخرى أشياء متشابهة موضّبة في أغلفة لامعة، ظننتها الهدايا، وأردت التخلص من هديتي وحشرها بينها. إلى أن أنتبهت أنّها تذكارات توزع على الأولاد المدعوين. تلفتُّ حولي ناوية حسم الأمر. أعطيه هديته وأخرج فكّرت. حين وقفت، خرج أسامة من غرفة داخلية وما إن رآني حتى أسرع نحوي مبتسماً. قبلني كأنّ مجيئي أزال العلاقة الرسمية بيننا. كان حين يأتي إلى المكتب يصافحني أو يجلس مكتفياً بالتحية. جرّني من يدي وعرّفني على أقارب وأصدقاء لم أحفظ إسم أيّ منهم. نادى ادغار عدّة مرّات قبل أن يترك رفاقه مرغماً. أدار خديه بسرعة كما لو أنه في مهمّة ثقيلة. قبّلته خطفاً أنا أيضاً. ناولته الهدية وعندما سأله والده ألا يريد فتحها. أجاب إنّه سيفتح لاحقاً كلّ هداياه. حاولت أن أنصرف لكنّه قاطعني ليقول «لا أعذار مقبولة

اليوم». جرّني ثانية من يدي أدخلني إلى المطبخ وعرّفني بأخته الكبيرة. شعر مصبوغ بلون أسود حالك، يزيد بياض بشرتها من سواده. تأمّلتني دون حرج وقالت إنّ أخاها وتقصد اسامة يظلّ بسيرتي وبانجازي المهمّ مع ادغار. احمرّ وجهي وكرّرت كلمات شكر غير مسموعة. انشغلت عنّا لتوزّع الأوامر على الخادمتين اللتين في حركة لا تتوقّف . سألتني عمّا أريد شربه معدّدة أصناف المشروبات الكحولية وغير الكحولية. تدخّل أسامة لينصحني بكأس كونياك فهمت من نبرته أنّه كونياك فرنسي معروف. لكنّني طوال حياتي لم أشرب أيّ كونياك. حملت الكأس الكريستال الصغيرة. الكونياك التمع بلون جميل . بقيت واقفة قرب رفوف المكتبة بعيداً. تظاهرت بالنظر إلى الأغلفة. هذا يعفيني من الابتسام والكلام مع أغراب. لم أحتمل طعم الكونياك، ولم أدر كيف أتخلّص منه. زاد سوء موقفي انتباهي إلى بقعة سوداء تمتدّ تحت قدميّ. كان جلد الجزمة التي أنتعلها يفتّ نثاراً. أرتبكت، وفكرت أنّ البقع لا بدّ ارتسمت أيضاً فوق الموكيت الرمادية حيث كنت جالسة. اقترب أسامة ثانية ليسألني إن أعجبني كتاب ما. قال إنّ بامكاني أن أستعير ما أشاء. وضع يده خلف ظهري ليجلسني معهم. أملت ألا يلحظ أحد جزمتي التي لم يبق منها إلا بطانتها الداخلية. ما خفّف من قلقي، أنّ الأولاد وسّخوا الموكيت بأوراق وأطعمة وحبات بوشار تسلّوا بالتراشق بها أو برميها في سلة النفايات البعيدة. كانوا يهلّلون للرابح الذي يوقع أكبر عدد منها . تركوا كل الألعاب وتحمّسوا لهذه اللعبة . رفعوا أصواتهم أعلى من الموسيقى. دعوة الكبار لهم للرقص لم تحمّسهم. تراكضوا بين الغرف كأنّهم في ملعب لا في شقة. أردت الهرب بأسرع وقت. لكنّ الخروج يعني مصافحة عدد من الحاضرين والابتسام وترداد كلمات مجاملة لا أجيدها. لكنّ أسامة أجلسني قربه وعرّفني على زميل له، راح يسألني عمّا إذا كانت المتابعة تلغي حقاً قصور الانتباه. أجبته باختصار لأنني أعلم أنّ سؤاله من باب اللياقة لا اكثر. هو في عمر يصعب أن يكون لديه أولاد صغار. كان أسامة يداوم على وضع

يده فوق كتفي أو ظهري عارضاً عليّ الشراب وتساءل لماذا لا آكل. ثم نهض وملأ لي صحناً من التبولة والمعجّنات. لم أسمع كلمات عربية إلّا في ما ندر. انتبهت إلى أن أخت أسامة تتصرّف كما لو أنّها سيّدة البيت. أتكون هي من ترعى أولاده في غيابه. حاولت أن أحزر عمرها. لكنّني لم أحزر. كانت تنظر إليّ بطرف عينها وعندما تنتبه إلى أنني رأيتها تبتسم لي ابتسامة كبيرة. همست لأسامة إنّني مضطرّة للخروج للمرّة الثانية. تشبّث بذراعي معترضاً على أنّ ادغار لم يطفئ بعد شمعاته. حين تحلّق الجميع حول الكاتو. لمحت صورة الأم ترتسم على شاشة الكمبيوتر. شاركت في الغناء له. لم أستطع من حيث أقف رؤية صورتها أو سماعها. كان أسامة يحدّق بالشاشة كمن نسي ما حوله. أضحكتهم نكتة ادغار عندما مدّ صحن كاتو باتجاه أمه الافتراضية. لم أكن أوّل الراحلين، كما نويت عند وصولي. مكثت حتى رحل كلّ الأولاد، ومعظم الأهل. جلسنا في غرفة جلوس ضيّقة. الحديث عن هموم التعليم والمشاكل مع الزملاء اختلط بصوت المكنسة الكهربائية وقرقعة الصحون. حاول أسامة إشراكي في نقاشاته مع صديقيه، لكنني اكتفيت بالجلوس وبرشف ما في كأسي نقطة بعد نقطة وهزّ رأسي من حين إلى آخر. كان ينظر إليّ بطريقة غريبة، لم أعتدها منه. أصرّ أن يوصلني بسيّارته. لكنني هذه المرة كذبت مدّعية أنّ معي سيارة. رغم أنّ الطقس كان ماطراً شعرت بسعادة وأنا أتخطّى المدخل. فتحت شمسيتي. عندما أحسست بجوربيّ المبتلين وببرودة في قدميّ تذكّرت جزمتي. لا أستطيع انتظار سيّارة قريباً من المبنى. لذا مشيت إلى السوديكو لأنتظر هناك. في السرفيس قرأت أس أم أس من أسامة يشكرني فيه على حضوري قائلاً إنّ مجيئي أسعده هو شخصيّاً.

حين وصلت إلى البيت، وجدت كلودا منحنية تصحّح فرضاً لروبير الجالس إلى طاولة السفرة. من ردّها على تحيتي أحسست أن الجوّ ليس عادياً. لم يخاطبني أحد بكلمة. انتظروا أن أسأل. لكنني توجّهت إلى غرفتي. كنت أخلع ثيابي حين دخلت كلودا دون قرع الباب. قالت إن

أمي نقلت إلى الطوارئ بعد عارض أصابها في المدرسة. ارتفع ضغطها وأبقيت النهار بطوله في المستشفى لإجراء الفحوصات. أراد الطبيب أن تمكث ليلتها ليراقب الضغط، لكنّها أصرت على أنها ترتاح في بيتها أكثر. كانت موصولة إلى جهاز ضغط لمراقبته على مدار أربع وعشرين ساعة. فتحت عينيها بصعوبة، كان جفناها المرتخيان متورّمين، لم تستطع إبقاءهما مفتوحين. قال أبي إنّ ذلك من جراء الأدوية المهدّئة. حين سألتها كيف أصبحت، غمغمت كلمات ونامت في منتصف جملتها. كأنّها كبرت عشرين سنة. تجاعيد في رقبتها، في ذقنها، حول عينيها. شخير خفيف يتصاعد من فمها المطبق بقوّة. صدرها يعلو ويهبط بسرعة. تفتح عينيها للحظات كأنّها لا ترانا ثمّ تعود إلى نومها. أبي جلس عند طرف السرير. أمسك بيدها خافضاً رأسه. حزنه منعه من أن يردّ على أسئلتي. كلودا تبرّعت بالاجابة. قالت إنّ ارتفاع الضغط ملازم للتقدّم في السن. أمي في الثالثة والستين، إضافة إلى أنّها لم تُجرِ أيّ فحوصات منذ سنوات. كان أبي يكرّر إنّ لدينا لا آلة ضغط واحدة بل اثنتين، ورغم ذلك كانت ترفض أن تقيسه مدّعية أنّ ضغطها منخفض. حاولت كلودا أن تطمئنه من أنّ لا شيء يدعو لهذا القلق. معظم الناس في عمر معيّن يتناولون أدوية ويمشي الحال. ذكّرته بأنّه هو أيضاً يأخذ دواء للضغط منذ عشرين سنة. كنت أرجّح أنّ ما يجعله في هذه الحالة هو أنّه لم يسبق أن رأى أمي هكذا. كان هو من يمرض. باستثناء الرشح لا أذكر أنني رأيتها مريضة أو طريحة الفراش. تهتمّ منذ صارت تتابع برامج التغذية على التلفزيونات بالأكل الصحي. زميلات كثيرات لها تحكي عن شرائهن للأطعمة العضوية فقط. جرّبت أن تفعل مثلهن إلى أن أخبرتها كلودا إنّها تضيّع مالها هباء، من يضمن أنّ ما تشتريه عضويّ حقّاً. لا من يراقب ولا من يحاسب. لم يتركها أبي وحدها إلا بعد أن أرغمته كلودا. قالت إنّ على أمي أن تنام. البقاء قربها واللمبة مضاءة ليس بالأمر الجيد. ظلّ أبي يكرّر كأنّه لا يعاتب نفسه كما يدّعي بل كلودا بما أنها الخبيرة الطبية في العائلة. تكلّم عن شكوى

أمي منذ شهور من وجع رأس لم تنفعه المسكّنات، كيف لم ينتبه إلى أنّه ضغطها. قال مانعاً نفسه من البكاء، تقيّأت في المدرسة، كان يمكن أن تصاب بذبحة صدرية. لولا فطنة الممرّضة في نقلها سريعاً إلى الطوارئ الله وحده يعلم ما كان حصل. لم يرد أن يأكل عندما سخّنت كلودا طبخة اللوبياء بلحمة. كان يكرّر «لم تأكل منها حتى». سألته بنبرة لم أقصد أن تكون غير متعاطفة: «ما بك تتصرّف وكأنّها ماتت؟» مجرّد ذكري للموت أغضبه، قال إنني فعلاً بلا دمّ. ثمّ تركنا ليجلس في العتمة ويراقب نوم أمي. نظرت كلودا نحوي، قالت ألّا أزعل. هو خائف وردود فعله طبيعية. أخبرتني كيف غضب منها لأنّها برأيه تأخّرت على ملاقاته إلى المستشفى، مع أنّها جاءت حال اتصل بها. لم تحاول حتى أن تذكره بزحمة السير. في مثل هذه المواقف لا يكون الواحد بكامل عقله ووعيه. لم أخبرها إنّ فكرة موت أمي التي لم تخطر ببالي منذ صغري، أخافتني أنا أيضاً. لا يستطيع أبي أن يتحمّل فقدانها. حين تخرج وحدها في مشوار أو زيارة يظلّ عاجزاً عن التلهي عن غيابها. تعود لتجده زعلان كأنّها ارتبكت خطيئة لا تغتفر بتركه وحده كلّ هذا الوقت. عندما تعود من المدرسة يحزر من طريقتها في فتح المصعد أو من دعساتها أنّها وصلت. يفتح لها باب البيت متناولاً ما تحمله سواء حقيبتها أو أغراض اشترتها في طريقها.

توقّفت عن الأكل وقد فقدت كلّ شهيّة. كان روبير يأكل متمايلاً مع الموسيقى التي كانت تصلنا عبر سمّاعاته. موسيقى تشبه الضجيج، كأنّ كلودا حزرت ما يجول في رأسي، غمزتني. رغم ذلك طلبت منه أن يخفّف الصوت. لم يسمعني. نزعت السمّاعة عن إحدى أذنيه وقلت له أن يخفض الصوت. سألته دون أن أخفي انزعاجي كيف يحتمل هذه البشاعة. عضّت كلودا على شفتها بفزع كأنني ارتكبت أمراً محظوراً. بدوره ردّ عليّ بعدائية «أتريدين أن أستمع إلى فيروز؟» لهجته الساخرة استفزتني. أهذا هو الصبي المهضوم نفسه الذي كان يضحكني بلثغته وبمخيّلته؟ دعوة كلودا لأن ارافقها إلى شقتها لتأتي بأغراض للمبيت هنا أنقذت الموقف.

لبست معطفاً فوق بيجامتي. ما إن ركبنا السيارة حتى رجوتها أن تقوم بجولة طويلة جهة البحر. كنت كأنني سجنت في البيت أيّاماً لا أقلّ من ساعتين. أردت أن أنسى مخاوفي وأفكاري وشجاري الداخلي مع روبير. حاولت أن أتذكّر كيف كنت أتظاهر أنني حصان، فيركب على ظهري ضاحكاً فيما رجلاه الصغيرتان ترفسان جنباتي لأسرع. هل كبرت إلى حدّ يعيّرني فيه روبير بذوقي القديم؟ غريب الواحد كيف تغضبه أشياء تافهة. هذا ما كنت أكرّره لنفسي كي أمتنع عن غضبي.

كنت أسمع موج البحر، وأحدس بأمواجه الصاخبة. مصابيح الشارع انعكست على مياه المطر فوق الرصيف، قلائل عبروا ملتفين بمعاطف وشالات تغطي رؤوسهم. في الجهة المقابلة عامل هندي ينتعل مشاية بلاستيك يشطف الرصيف أمام المقهى. رغوة الصابون بلّلت قدميه وطرف بنطلونه. كانت كلودا تقود ببطء كأنّنا على دراجة. كلب شارد عبر الشارع أمامنا، لم يفزعه صوت الفرامل ولم يحثّه على الاسراع.

* * *

خلال الأيّام التي لازمت فيها أمي الفراش، لم أكن أسهر خارج البيت. أعود مباشرة من العمل. لا مراعاة لأحد بل لأنّني كنت متعبة. كلودا التي واظبت على المجيء حاولت أن تسهر برفقتي، لكنني كنت أغفو ونحن جالستان نشاهد التلفزيون. هكذا كنت أنام لحظة أضع رأسي فوق الوسادة حتى الصباح. لا أحلام ولا كوابيس. كأنّه موت لا مجرد نوم. صارت أمي تغادر سريرها رغم تنبيهات أبي بأن تستريح. تقول إنّ قلبها سينفجر من الاستلقاء طوال النهار. هذا يوتّر أعصابها بدل أن يريحها. فقدت أيّ رغبة في الطعام، حين يقال لها إنّ عليها أن تأكل، تسأل أيّ طعم للأكل دون ملح؟ الفحوصات أظهرت أن معدّل الكوليسترول عال، ما عنى محظورات وممنوعات كثيرة. رغم تأفّفها من التعليم كانت في عجلة لأن تعاود التدريس. لأوّل مرّة أرى أبي يحضّر الطعام، يسأل أمي عن كلّ

خطوة. إن كانت غافية يتّصل بكلودا. تعجب من أسئلته الغريبة، لا تعرف كيف تشرح له كم تبقى القلية على النار أو ما معنى فرم ناعم للكزبرة، ماذا لو ورّق سويقاتها؟ يسألها. حين تأتي مساء تخبره كم هو محرج لها أن يسمعها الزبائن تحكي عن قليّة البصل واللون الدالّ على نضوج البامية. لا يقبل حين تتطوّع لتحضير طبخة الغد ليلاً. يقول إنّ الانهماك بتحضير الطعام يسلّيه أثناء نوم أمي. صار أيضاً يعدّ لي سندويشات لآخذها معي. صباحاً يأتيني بكوب عصير. رغم أنّني لا أشربه، يداوم على وضعه أمامي.

في الاذاعة التي أصلها باكراً قبل بدء البرنامج، كان هناك الكثير من الناس. خليط من العاملين والمعلنين الذين ينشطون قبل الأعياد. الأمر يكون ضاغطاً في مثل هذه الأوقات أفهمتني تانيا. تتأفّف من شدّة تعبها. بعد الظهر تقوم ببثّ مباشر من محلّ لبيع الألعاب، يشارك الأولاد في مسابقة وتُوزّع عليهم هدايا مجانيّة إن ربحوا. نوع من الدعاية للمعلنين. تشتكي من سماجة الأولاد وأهلهم وكيف تعود إلى بيتها وتعلق في عجقة الطرقات. بعد الميلاد قالت لن ترتاح. عليها أن تقدّم برنامجاً للكبار. هدايا عطورات وساعات. أردفت إنّ الكبار أثقل ظلاً من الصغار. أرتني الساعة التي أهداها إياها المُعلن، سألتني إن كنت أريد مثلها. ثم حسدتني لأنّني لا أكون في بثّ مباشر إلّا لوقت قصير. هذه الدردشة في الصباح معها ومع بعض من اعتدت على وجوههم كانت تزعجني. لذا امتنعت عن المرور بهم وصرت أجلس في المكتب بانتظار موعد البرنامج. لم أدر أكان وصولي المبكّر بمحض الصدف أم لأنّني كنت في الكثير من الأيام أستقبل أسامة. مرة أرسل لي أس أم أس يخبرني أنّه أوصل ابنيه إلى المدرسة، هل لديّ وقت ليمرّ بي سألني. جاء يحمل معه بعض الكرواسون وكوبي قهوة من ستارباكس. أخبرني إنّ الحارس نظر إليه باستغراب حتى بعد أن أخبره عن موعده معي. لم أدر أكان ادغار هو السبب حقّاً؟ إذ لم نحك عنه إلا لحين قبل أن نتحدّث عن أشياء أخرى. أراني رواية مصفرّة الأوراق سألني إن كنت قرأتها. أجبته بلا. قال إنه يحبّ كثيراً هذا الكاتب

الفرنسي. لذا أسمى ابنه الصغير على اسمه. يعتقد أنني سأحبّ عالمه. سألني عدة مرّات إن كان يزعجني أو يؤخّرني عن شيء. ثم حكى عن جوّ الجامعة المليء بالأحقاد والمنافسة، كأنّ العالم لا يتّسع إلّا لهم. في كندا أيضاً عانى من سخافة الأكاديميين. البعض يستغبيه مجرّحاً به مشكّكاً بنواياه. هذا فقط لأنّه قريب من طلابه ويلتقي بهم خارج المحاضرات. سألني لماذا لا اتكلّم عن نفسي؟ عادة تحبّ الفتيات الكلام عن أنفسهنّ. أخبرني عن زوجته السابقة، كيف كانت تحكي بالتفصيل الممل عن يومها. ما اشترت من أغراض، ما شاهدت من برامج من اتصل بها وأيّ حديث تبادلت معه. سألته أكان ذلك يزعجه، أجاب ربّما في لحظتها لأنّ رأسه يكون مليئاً بضجيج النهار لكن عندما يتذكّر الآن يجد الأمر طريفاً. لهجته في الكلام عنها دون عتب كانت تحيّرني. ضحك وقال إنّني أفعل دائماً الشيء نفسه، أي أجعله يتكلّم عن نفسه كي لا أحكي أشياء تخصّني. تكرّرت زياراته الصباحية. أخبره أحياناً عن انطباعي عن الكتب التي يعيرني إياها. بعضها لا أحبّه. لا يهمّني إن دلّ على ذكاء أو على تميّز في الأسلوب كما يخبرني. هكذا درج على المرور بي كلّ يوم. أنا أيضاً كنت أتقصّد الوصول باكراً. أعرته بدوري روايات عجبت أنّه لم يسبق أن قرأها. أفهمني أنّه يحبّ الكلاسيكيات أكثر مما يحبّ الأدب المعاصر. عندما لم يأت ذات صباح بقيت واقفة إلى النافذة أنظر إلى جهة الطريق علّني أراه يركن سيارته. لم يأت ولم يراسلني. حين عاد لزيارتي بعد أيام وجدته شارد الذهن. كأنّه متردّد في أن يخبرني. لكن ما إن بدأنا بشرب قهوتنا صامتين حتى تململ على الكرسي وقال إن زوجته تمرّ بمحنة، حاول أن يخفّف عنها. فارق الوقت بين البلدين جعله يسهر ليتكلّم معها. قال إنّ والدها اشتكى من عارض بسيط، الفحوصات أظهرت أنّه مصاب بسرطان الكبد في مراحله الأخيرة. هي الآن لا تذهب إلى الجامعة ولا تأكل وتداوم على البكاء. لا تستطيع أن تتماسك حتى أثناء زيارتها لأبيها. كانت دائماً ابنته المدلّلة التي فضّلها على أبنائه الصبيان. تقول إنّها لا تدري ماذا سيحصل

لها إن مات والدها. رغم محاولته أن يفهمني أنّ هذه معاناة زوجته بدا واضحاً لي أنّه هو أيضاً متألّم. لا أعلم أمن أجلها أم من أجل والدها. ربّما كان قريباً منه هو الآخر. ألم يكن على علاقة به لسنين؟ فهمت منه أيضاً أن هناك قربى بعيدة بين عائلته وعائلة زوجته السابقة. ولو أنّه حين يذكر والدي زوجته يفعل بشيء من الانتقاد لأفكارهما وتقاليدهما البالية التي لم يتخلّيا عنها رغم السنين الثلاثين التي مرّت على وجودهما في كندا.

حين دعاني لحضور فيلم فرنسي في أحد أندية السينما، وافقت على الفور. أقنعت نفسي أنّ السبب هو ضيقي من هذا المكوث في البيت كلّ ليلة. لم أكن أتوقع هذا الانتباه الشديد لحضوري معه. زملاء وطلاب كانوا يأتون لمصافحته. نظرات مستخفّة أو بأحسن الأحوال فضولية كانت تتفرّسني دون إحراج. رأيت كيف حاولت إحدى طالباته ملامسة ذراعه بينما تتكلّم دون توقف عن إعجابها الشديد بالفيلم الايطالي الذي نصحهم بحضوره. تضحك بأعلى صوت على أيّ كلام عادي يقوله. حتى طلّابه الصبيان تأمّلوني كأنّني لوحة ولست كائناً بشرياً. غمزه أحدهم، أربكه ذلك وتعمّد جرّي من يدي لتعريفي على كل هؤلاء. لكنني كنت لا ألبث أن أقف بعيداً بعض الشيء. عادة لا أدري أكان سببها كرهي للكلام مع ناس لا أعرفهم أم لأن رفاقي بما فيهم الصبيان كانوا يتعمّدون البقاء بعيداً عني بمتر على الأقلّ. طول قامتي كان يبعدهم. لا أحد كان يحبّ أن يسلّط الضوء على قصره. طبعاً ليس الجميع. صبيان كثر كانوا أطول منّي. كنت أسمع باستمرار هذا السؤال السخيف، لماذا لا أعمل عارضة أزياء. كأنّها المهنة الحلم. كنت أنتظر أن ندخل إلى عتمة القاعة. الفتيات كالعادة تأمّلن ما ألبس. لم يجدن أيّ شيء لافت في الجينز والترانشكوت الأسود الذي أرتديه مع كنزتي البيضاء. انشغلت بالمنشور الذي فيه برنامج العروض للأشهر الثلاثة القادمة. لائحة بأفلام لم يسبق أن شاهدت أحدها ولم أسمع بأيّ من مخرجيها. ليس السبب أنّها قديمة، لكن السينما كانت دائماً نشاطاً أفعله بصحبة رفاقي، أدع لهم أن يختاروا. ضجري في

الكثير منها كان يدفعني أحياناً لأخرج وأنتظرهم في الكافيتيريا. أمسك يدي بشكل تلقائي لندخل أخيراً. أحسست بيدي المتعرّقة داخل راحته، الدمّ تصاعد إلى وجهي. خفضتُ عينيّ كي لا أواجه الناس حولي. ليس أنّ رأيهم يهمّني، بل لأنّني لا أحبّ أن أكون غير واعية لما يحصل. لماذا أمسك بيدي ظللت أسأل بينما حُشرنا في مقعدين ضيقين. الصالة لم تكن واسعة، كانت أصوات المحيطين بنا، بما في ذلك الهمس، مسموعة. التعليقات التنهّدات. قربنا جلس شاب تبرّع في شرح كلّ حركة وكلّ لقطة لرفيقته كأنّها بلهاء لن تفهم وحدها. كلمات حفظها من مكان ما راح يستعرضها على مدار العرض. كانت ذراعي فوق المسند تلامس ذراعه. لم أستطع أن أركّز على الفيلم. كأنّ لا شيء يحدث فيه. حوارات لا تنتهي. وحدها الموسيقى جميلة. أحنى رأسه باتجاهي ليسألني همساً إن كان لديّ شيء أفعله بعد الفيلم. ابتلعت ريقي وأومأت سلباً برأسي. أنفاسه الحارة لسعتني . بقيت أحسّ بها وأشمّ رائحة مزيل الرائحة مختلطاً بماء كولونيا يشبه الياسمين. كأنّه عطر نسائي. فكّرت بأن الرائحة التي تفوح مني هي السجائر. تقوى على كلّ العطور. رائحتها لا تزول من أطراف أصابعي. لا ينفع معها لا صابون ولا أيّ شيء. كنت ألمحه بطرف عيني يشاهد بتركيز حسدته عليه. خلفي شاب لا يتوقّف عن ضرب مقعدي بحذائه. أكبت نفسي كي لا أستدير وأنهره. لا أريد أن يظن أسامة أنني من أولئك الذين يسمحون لأنفسهم بتعليم الناس أصول التصرّف. كنت دائماً أكره الذين يأمروننا بخفض صوتنا أو الإشارة إلى لافتة ممنوع التدخين، أو النظر إلينا بغضب فقط لأنّنا أصغر منهم وتضحك ملء أفواهنا. لكنّ أسامة كان من استدار إلى خلف. لم يضطرّ إلى الكلام فهما واعتذرا. كنت أتساءل إلى متى سيدوم هذا الفيلم. لقطة سير البطل ليلاً إلى الفندق لا تنتهي. ظننت أنّ شيئاً سيحدث له أثناء ذلك. لكن لم يحدث سوى أن جلس وشرب في بار الأوتيل كأس كونياك. تذكّرت طعمه اللاذع. لولا التوتّر الذي أحسّه لكنت غفوت. تثاءبت مرّات وفكّرت بأن أخرج لأدخّن سيجارة

علّني أطرد هذا النعاس. لكن ما إن هممت بالوقوف حتى فعل مثلي وقال إنّه هو أيضاً يريد الدخول إلى الحمام. انتبهت إلى الرؤوس الكثيرة التي التفتت نحونا.

كان الرصيف رطباً لم أسمع تساقط الأمطار. البرد ليلاً أزال أثر التدفئة الخانقة في الصالة. وضع يديه فوق كتفيّ من خلف وسألني إن كنت ضجرت مثله. ضحكت وقلت إنّني لشدة تركيزه ظننته مستمتعاً. قال إنّ الرواية أفضل بمليون مرّة من الفيلم. لا يعلم كيف يكتبون مقالات نقدية تبجّل هكذا أفلام. وحين يصرّح الواحد بعدم اعجابه، يردّون عليه كأنّه جاهل لا يقدّر كلاسيكيات السينما. سمعت الفتاة تنادي خلفنا جارية «دكتور دكتور» لم يترك يدي حين التفت ليرى ما تريد. أرادت أن تلخّص له البحث الذي تحضره عن واحد من كتب بارت وتسأله رأيه. حتى حين قاطعها ليقول لها «غداً نناقش الموضوع» لم تسكت. سألت بأسف هل سيترك الفيلم. ألن يحضر المناقشة؟ أجابها كاذباً إنّه سبق ورآه عدة مرات وحفظ ما فيه. بقيت واقفة فيما نسير جهة سيارته. عندما ابتعدنا التفتّ إلى خلف ورأيتها لا تزال مسمّرة فوق الرصيف، كأنّها تنتظر أن نعود أدراجنا. قلت بضحكة إنّ طالباته مغرمات به. لم يجب بداية. ثم قال ما الفائدة إذا كان من يعجب بهن غير داريات بوجوده. أسكتني الارتباك ولم أدر من يقصد. ولماذا التفت نحوي وهو يقول ذلك. لكنّني أقنعت نفسي أن الأسى في لهجته يعني أنّه يقصد زوجته التي انفصلت عنه. فكّرت أنني لا أعرف حقاً من سبب الطلاق. صحيح أنّه يخبرني أشياء كثيرة، لكنّه في الواقع يخفي الجوهري. يوحي لي أنّه صريح ومنفتح لكن ماذا أعلم عنه؟ أشياء قد يعرفها طلابه وجيرانه.

لم أعلم إلى أين نحن ذاهبان. فقط رأيت أنّنا نتّجه صوب الأشرفية. اختار التوقّف قرب مطعم قال إنّه جديد. اسمه وديكوره شرقيان. لم يكن في القاعة الكثير من الناس. ربّما لأنّه يوم ماطر في وسط الأسبوع. قلقت من أن يكون غالياً. ماذا لو أن ما أحمله غير كاف. هذا كلّ ما كنت

أفكّر به قبل أن يأتينا النادل بلائحة الطعام. نظرت إلى الأسعار وطلبت انطلاقاً منها صحن فتوش وصحن حمص بطحينة، أسامة أيضاً طلب بعض المازات. سألني إن كنت أشرب العرق. لم أقل له إنّني لا أحبّ إلّا رائحته. مرّة واحدة وأنا في الحادية عشرة من عمري شربت من كأس أبي خلسة. من يومها لم أعد أشربه. في ذهني هو مشروب أهلي وعجائز العائلة والأقارب الذين كنت أجبر على حضور اجتماعاتهم ومناسباتهم حتى سن الثالثة عشرة تقريباً. على طاولة غير بعيدة كان هناك رجلان في الخمسينات تقريباً. أحدهما كان يدخّن السيجار غير مهتمّ باللافتة العريضة التي تمنع التدخين. استمرا ينظران نحونا ويتكلّمان كأنّ حديثهما عنّا. ظننت أنّهما يعرفان أسامة. حين لاحظ ارتباكي، قال ضاحكاً ربّما يتساءلان ماذا تفعل فتاة جميلة برفقة عجوز. أجبت على الفور: أولاً لست عجوزاً ثانياً لست جميلة. «أنت محقة. بالنسبة لأبني الصغير ورفاقه أنت أكبر منّي، لأنّ العمر يقاس بطول القامة». أخبرني كيف لا يفهم أنّ جديه بنفس طوله أو حتى أقصر. لذا يداوم على سؤالهما إن كان السبب أنّهما لم يأكلا ما يكفي من الخضار. عندما يأتي على ذكر أيّ من ابنيه تتغيّر ملامحه، وجهه يشرق وترتسم في عينيه شرارات كأنّ ناراً اشتعلت في حدقتيه. سألته لماذا لا يشرح له هذه المسائل. ردّ انه لا يجد فائدة من فعل ذلك. حين يراه مصدّقاً القصص الخيالية التي يقرأها، يدعه يستمتع. لم الاستعجال على أن يكبر؟ أمّا بالنسبة للجمال، ابتسم ولم يكمل كلامه بل حدّق بي حتى خفضت بصري. حزر ارتباكي ولم يكمل جملته. كنّا نأكل ببطء ونشرب بسرعة دون انتباه. قال إنّني ربما لم أفهم لماذا أخافته في البداية عزلة ابنه وعدم تكيّفه. هو عاش سنة صعبة لا ينساها حين انتقلوا للعيش في كندا. لغته الفرنسية الضعيفة أعاقته ومنعته من تكوين أيّ صداقات، لكن في تلك السنة تعلّم أن يقرأ وأن يعوّض بالكتب عن غياب الرفاق. وفي سنة واحدة صارت علاماته بالفرنسية هي الأعلى. لكنه رغم ذلك عاش مرحلة الصفوف المتوسّطة شبه وحيد. باستثناء بعض أولاد

أقاربهم هناك لا يذكر أنّه لعب كما يفعل الأولاد. ضحك حين أضاف أنّ قصره وعدم اهتمامه بأيّ رياضة لم يساعداه كثيراً. كنت أحبّ تلك اللكنة التي تغلّف كلماته العربية.

رحل آخر زبون من المطعم، وصار النادل متفرغاً لنا. وقف على بعد متر منا يقترب كلّ بضع دقائق ليتأكّد أنّ كلّ شيء تمام. يبدّل المنافض الفارغة أصلاً. يبدّل أكواب الماء التي لم نلمسها. فقد حديثنا اندفاعه وعفويته. لم يقبل أسامة أبداً أن أتقاسم دفع الفاتورة معه، حين أصررت قال أن أدعوه في المرّة الثانية. في السيّارة استأذنته لأدخّن. رقم قياسي ألا أفعل طوال السهرة. كنت مأخوذة بالحديث ونسيت أمر السيجارة. دعاني لإكمال السهرة في بيته. صحيح أن ابنة أخته نائمة عنده لتبقى مع ابنيه، لكنه لا يطمئن إن بقي متغيّباً لوقت طويل. شعرت أنّني لا أريد للسهرة أن تنتهي وتبعته كأنّني أفعل أمراً مألوفاً واعتيادياً. كان النور مشعشعاً في كل الغرف. ظننتهم لا يزالون ساهرين حين تناهى صوت التلفزيون. كانت ابنة أخته غافية فيما يدها تمسك بهاتفها. البطانية سقطت عنها فتكوّمت على نفسها. أيقظها ممسكاً بيدها ليقودها إلى السرير. كانت في بيجامتها الحمراء وشعرها المبعثر كأنّها فتاة صغيرة مع أن أسامة ذكر أنّها في الجامعة. حين عاد خلع حذاءه والأنوراك. أعد ابريق شاي. تردّدت قبل أن أخلع حذائي وأجلس متربّعة فوق السجادة أرضاً مثله. أحاط كتفيّ بذراعه، ولا أعلم لماذا تغلغل الحزن إلى قلبي. لم أكن أرغب في العودة إلى البيت، كان عليّ ذلك. لم أرد أن يطلع الصباح ويراني ادغار. كيف سيفسّر له وجودي.

* * *

كنت كلما عدت إلى البيت وجدت كلودا عندنا. ظننت أنّ السبب هو وعكة أمي. لم أفهم لماذا قلقها، وأمي قد استعادت حياتها. أسمعها كالسابق تكرّر شكواها من قلة النوم ومن الحلول بدل معلمة غائبة ومن

المهنة التي أرهقت صحتها وأعصابها. عندما ينبّهها أبي إلى ضرر الملح الذي ترشّه فوق طعامها، تردّ عليه بحزم كأنّه تلميذها إنّها ليست مريضة، وأنْ ليس عليه أن يراقبها كأنّها ولد صغير. كنت أصل متأخّرة. تكون كلودا وحدها أمام التلفزيون أو مستغرقة تحرّك ريشتها بحذر. على طاولة السفرة تركت لوحات البقع الملونة لتجفّ. لا شكل للأشياء. ألوان متضاربة كأنّها زوبعة. لم تكن تسألني أن نخرج أو أن أبيت عندها. اعتقدت أنّها زعلانة منّي. لكنّها في مرات كانت تدخل إلى غرفتي بينما أخلع ثيابي، تنظر إليّ دون أن تتكلّم وحين أسألها عن أحوالها، تردّ «جيدة». أو تكتفي بهزّ كتفها. ثم تغلق الباب وتعود إلى جلوسها حيث كانت. أرتاح لأنّ روبير لا يكون معها. لا بدّ أنني بلا عقل لأكنّ له ضغينة بسبب مشاحناتي معه. أقول لنفسي إنّه صغير ولا يدري إنّ كلامه جارح لكنّ ذلك لا ينفع. فكرت بأنّ كلودا مستاءة لأنّني لا أسألها أبداً عن ولديها. أما أبي فعلى غير عادته هجر البرامج الحوارية المتأخّرة وصار ينام باكراً. لم أعلم إلّا لاحقاً أنّ السبب هو لتجنّب الشجار مع كلودا. زادت حدّته مؤخراً. خاف إن استمرّ أن تعود كلودا إلى شقتها الفارغة. بماذا سينفع ذلك إلا بتأجيج قلقه عليها. حاول ذات صباح ان يضعني في جوّ ما يحدث لكنّ كلودا اقتربت لتشرب معنا القهوة. كان أبي لا يفهم لماذا أذهب باكراً هكذا إلى الاذاعة. عرض عليّ سيارته لظنّه أنّ السبب هو المواصلات. لم يحزر أنني أكذب عندما تحجّجت بالتحضير لبرنامج جديد، لكنّ كلودا عرفت. رأيت ذلك في نظرتها. كنت دائماً أحلم ببيت لي ولا يهمّ إن كان غرفة ضيّقة بلا نوافذ. مؤخّراً زادت هذه الرغبة عندي، وصرت أبحث في الاعلانات. وجدت أنّني عاجزة عن دفع إيجار غرفة حتى لو كانت في أسوأ الحالات. الحلم لن يضرّني على أيّة حال.

تجنّب أسامة أن يأتي إلى الاذاعة، صرت ألتقي به في مقهى قريب من بيته أو أسير برفقته إن كان الطقس جيداً. حين تمطر لا نقصد بيته لأنّ هناك عاملة تأتي لتنظيف البيت وتمكث حتى الظهر. كنت أنتظره أمام

بوّابة الجامعة. يبتسم لي من بعيد ملوّحاً لي بكلتا يديه كأنّني لا أراه. يترك طلابه الذين يحيطون به معتذراً. أعلم ذلك من حركة رأسه. ظلّ طلّابه بما في ذلك الصبيان ينظرون إليّ بغير ودّ. أو هكذا خيّل إليّ. أنا أيضاً عندما يكون برفقة أحدهم أتصرّف كأنّهم غير مرئيين. تتعلّق عيناي بأسامة وحده. كلّ شيء حوله يختفي. في البداية لم أعلم ما الذي يجري معي. ليس شيئاً عشته أو خبرته. الآن تتراءى لي تجاربي السابقة طفولية. داومت على مقارنة أيّ شاب أتعرّف عليه بروني. الآن لم يعد روني إلّا صورة باهتة لشاب كانت تجذبني غرابته. لم أعرف كيف أفسّر هذا الشعور. أكتب عنه علّني أفهم ما يجري في قلبي. لماذا أحسّ أنّه شعور أقوى من قدرتي؟ لماذا أنا حزينة حتى حين أكون معه. عندما نفترق يملؤني الخوف. أغالب دموعي، دون أن يغادرني الخوف من ألّا أراه ثانية. كأنّني ألتقيه خلسة. هناك العمل واضطراره للبقاء مع ابنيه. لا أزوره أبداً إلّا إن كانا نائمين، لكن حتى ذلك امتنعنا عنه. لم أرد أن نبقى متنبّهين ومتوتّري الأعصاب لأدنى حركة. نخاف من أن يراني ادغار خاصّة. في العطل قد نلتقي إن كان ادغار ومارسيل عند أقارب أو رفاق لهما. يقود السيّارة في أيّ اتجاه خارج بيروت. يظلّ طوال الوقت متعلّق العينين بشاشة هاتفه. يقول إنّه يخشى أن يتّصلا به لأمر طارئ. في مرّات نذهب معاً إلى شاليه قال إنه ملك أحد أقاربه. لكنّ الذهاب إلى البترون والعودة منها يبقيه بعيداً أكثر من وقت زيارات ابنيه. لا يحبّ أن يوكل دائماً أخته أو ابنتها برعايتهما. قال يكفي أنّ أمهما بعيدة. أستغرب أنّه لا يذكر أسم زوجته أبداً كأنّه يخاف أن يتلفّظ به. يسمّيها أمهم أو زوجته. مرّات كثيرة أرغب في سؤاله عن هذا الأمر، لكنّني لا أفعل. أدع الأفكار تدور في رأسي وتعذّبني. فكرة أنّني أصغر منه بكثير كانت تؤرقه. حين صار يستدرجني للكلام عن علاقتي بأبي. سألته إن كان سيطبّق عليّ نظريات فرويد السخيفة. قلت له حينها بأنّني أحببت شاباً أصغر منّي هل لأبي علاقة بذلك أيضاً. ضحك وأجابني أن عليّ أن أسأل ذلك الشاب عن علاقته بأمه. هذا الفارق بيننا جعله دون أن يعترف

بذلك يتسجّل في ناد، ينتبه لوزنه، للتجاعيد، لتهدّل رقبته وذراعيه. حين كنت أقبّل مروحة التجاعيد حول عينيه وأخبره كم أحبّها. يرتبك ويدّعي إنّني أقول ذلك كي لا أعترف بأنني أجده عجوزاً.

كان حديثنا لا يتوقّف. أضحك من أخطاء طلّابه الذين يخلطون أسماء الكتّاب بأسماء لاعبي كرة قدم أو أسماء أخرى لمطربيهم. يخبرني كيف حين يسألهم عن رواية يجيبون إنّهم شاهدوها(قاصدين الفيلم المقتبس عنها). يقول إنّه سعيد أنني لا أشبههم. أردّ أنني أكبر منهم لماذا يقارنني بهم. أنا أيضاً تمنّيت أن أمحو فارق السن بيننا، كي لا يكون هو الحاجز الذي يضعه بيننا. كنت أكتب له الرسائل في كل أوقات الليل والنهار. عندما يتأخّر في الردّ عليّ أحزن متناسية أنّه ربّما نائم أو في الصف أو برفقة أحد. لكنني لا أعاتبه. لا أريد أن يظنّ أنّني متطلّبة أو غيّورة أو أيّ شيء من الصفات التي قد تبعده عني. أهملت كلّ اتصالات رفاقي. كريستيل مرّت ببيت أهلي بعد انصرافها من عملها. زيارتها كانت سبباً في أن تقول أمّي لماذا لا أجد مثلها وظيفة ثابتة ومحترمة. حتى عندما أفهمتها أنّ المصارف لا تحتاج لمن يحمل اختصاصي. أجابت إنّ كريستيل كانت في صفي. جدل بيزنطي لا ينفع معه أن أخبرها أنها تخصّصت أيضاً في إدارة الأعمال. الردّ على أمي بات محفوفاً بالخطر بالنسبة لي، كلّما أجبتها في شيء تتّهمني برفع ضغطها والتسبّب لها بفالج. كبتّ ردودي كان الحلّ الأنسب لي. خاصّة وأنّ ذلك يجعل أبي في حالة تأهّب وغضب. بدلاً من مواجهة أمي سيكون عليّ أن أستمع إلى محاضرة من أبي حول مراعاة شعور أمي وتجنيبها أيّ ضغوطات، يكفيها متاعب عملها يقول. منذ علمت أمي بوظيفة كريستيل في المصرف، ما عادت تتفاخر بما يقوله زملاؤها عن مداخلاتي في الاذاعة. أو ربّما لأنني ما عدت أحضّر. أقرّر المواضيع التي سأحكي عنها قبل بدء البرنامج بقليل. بدأت الموضوعات تعيد نفسها. أبدل العنوان لكنّ مضمونها مكرّر. الرسائل التي كان يرسلها معجبي السري، صارت تصلني بمواعيد شبه ثابتة. لا أعلم لماذا لم أخبر

أسامة عنها. أحياناً لا يكون فيها أيّ اطراء لي، تكون عن ناس يعرفهم أو عمّال ورشة أو أطفال قالوا شيئاً أدهشه. مرّة وصف لي عجوزاً مريضاً. خمّنت أنّه والده ربّما. الوصف ظلّ حاضراً في رأسي طوال اليوم. أحزن كلّما استعدته. مع الوقت حدست بأشياء تتعلّق به. لا بدّ أنّ لعمله علاقة بورش البناء وإلّا لماذا في رسائله أخبار عن العمال الذين يقعون عن السقالة أو ينامون في العراء، أو الأطفال الذين يرجونه لتشغيلهم في حمل الباطون. دوامه طويل. متزوّج لأنّه يحكي عن الأطفال. لو كان في سنّي لما فعل ذلك ولما أهتمّ للأطفال. أصدقاؤه قليلون. حكى عن واحد مات وآخر يمضي وقت طويل قبل أن يلتقيه. كنت أبني صورة عن حياته كأنني في لعبة بازيل معقّدة. أعلم أنّ أشياء جديدة قد يكتبها تعيد لخبطة كلّ الصورة التي رسمتها له.

* * *

ثلاثة أيام لم أره فيها إلّا خطفاً. كانت أصعب عليّ من أيّ شيء عشته. لا رسائله ولا تبريراته نفعت في شيء. كأنني خارج الوجود. كنت أنتظره أمام بوّابة الجامعة، يراني فلا يلوّح لي من بعيد كما كان يفعل. يرفع رأسه باتجاهي، يبتسم بصعوبة في إشارة إلى أنّه رآني. ثم يسير باتجاهي خافض الرأس، غير مبال لحديث طلّابه المتحلّقين حوله. نسير معاً حتى يصل بيته وأعود بعدها وحديَ إلى الاذاعة. أمشي ببطء وألهث، أكبس السيجارة بين أصابعي بقوّة. مجّات طويلة تجعلني أسعل. تنغرز أظافري في قبضة يدي اليسرى، لا أنتبه للخدوش فيها إلّا بعد أن أحسّ بالحريق.

أتكلّم معه في نفسي. أقول له إنّني لا أتفهّم أن يخصّص فراغه للكلام مع زوجته. حتى لو مات والدها، ما علاقته هو في اكتئابها؟ ماذا عن ألمي أنا وشعوري بأنني وحدي. فجأة صار كلّ كلامنا عنها، عن تركها للجامعة عن الأدوية التي تتناولها،عن رفضها البقاء مع أخوتها وأمها، عن خوفه من أن تقدم على ايذاء نفسها. عن بكائها وعدم رغبتها في شيء، وكيف يجعل

ابنيه يتكلّمان معها يومياً. يتّصل بأمها وأخوتها، يواسيهم يحكي معهم عن قلقه على زوجته. تلك الزوجة التي سمعت إسمها أخيراً «مونيك» يا الله كم كرهت هذا الاسم . تخيّلت أن صاحبته لا بدّ باردة بلا عواطف، شقراء باهتة لا تُرى رموشها.

مرّة واحدة رددت عليه وهو يحكي عن تأثير الموت المباغت على العائلة. ذكّرته أنّه ليس مباغتاً بما أنّ الطبيب أخبرهم بمرضه. نظر إليّ كأنني ارتكبت شيئاً معيباً وقال إنّ الرجل لم يصمد شهراً، ما هو تعريف المباغت برأيي. لم أرتح إلى عدائية ردّه. علّمني ذلك أن لا أقول أيّ شيء يخطر ببالي. طريقته في الردّ عليّ هي ما داومت على تذكّره. كأنّها نار تغذّي نفسها وتزداد قوّة مع مرور الساعات.

حين يمسك يدي يفعل ذلك شارداً. يسألني إن كان سيراني في اليوم التالي دون حماس. أمشي طويلاً أدخل شوارع لا أعرفها. أحياناً أضيع والتفت حولي لأجد أنّني في زاروب لم يسبق أن مررت به. العمل لا يوقف حواري معه وعتابي له.

«هل أنت مريضة؟» سؤال كنت أسمعه من كلّ من يراني. في رأسي كنت أقول الشيء وعكسه. أخفّف عني قائلة إنّني ربّما أبالغ. ثم أستعيد كلّ كلمة قالها، حتى النظرة في عينيه اختلفت. كأنّه لا يراني. أذكر ضحكنا، القبلات السريعة والخاطفة على مرأى المارة. وقوفنا لوقت طويل ونحن نتودّع. كأننا ننسى أننا سنلتقي مجدّداً بعد ساعات.

حين أقرّر أن أسأله صراحة. أكتب أس أم أس أو ايميلاً طويلاً. لكنّني أتراجع عن ارسال أيّ شيء يفضح أفكاري. أخاف أن يظنّ أنّني غير متعاطفة ومتحجّرة القلب. أو أنّ تفكيري ضيّق وأناني. أليست هي كلماته التي يستخدمها كلّما وصف شخصية لا تعجبه؟ أحياناً أحاول أن أتذكّر كيف بدأ الأمر بيننا؟ وكيف صرت أدور في فلك حياته. كأنّ سحراً ربطني به. حياتي لم تعد ملكي. أستيقظ من عزّ نومي أضيء اللمبة

وأجلس أمام هاتفي أكتب وأمحو. حتى الأسئلة التي أظنّها مبطّنة لا أجرؤ على طرحها. أقنع نفسي أنّني واهمة. أطفئ اللمبة أرفع اللحاف فوق رأسي، أتقلّب، أشغّل الموسيقى، أسمع أمي بداية، ثم ماء الحنفيه يطرطق في المغسلة، جرجرة المشاية، صوتهما الهامس، أزيز درفة تفتح، نبضات قلبي تهدر في أذنيّ. أنهض بعد أن أيأس من النوم. أبعد الستارة وأقف إلى الشباك. أشعل سيجارة أدخّنها في العتمة. أنظر إلى الشرفات الصامتة إلى الريح تتقاذف البرادي. أعلام لم يبق منها إلّا مزق ترفرف. أنوار تضاء في الممرات والمطابخ تباعاً. سيّارات تُدار. جمرة السيجارة تسقط فوق قدمي وتلسعني.

نسيت كلّ شيء عندما كتب لي يسألني قضاء يوم السبت معاً. قال إنّ إبنيه سينامان عند جديهما. سخرت من وسوستي. انتقلت من حالة الحزن إلى السعادة القصوى. حتى أمي استغربت تبرّعي بمساعدتها عندما اشتكت من كثرة الامتحانات التي عليها طباعتها. سائقو السرفيسات الذين يفشلون في جرّي للكلام، ضحكت من تعليقاتهم رغم سخافتها. رددتُ على رسالة كريستيل، ونصحتها أن تصبر على مسؤولة القسم وأن تتجاهل جفاءها وتعاليها. حتى هي ما كانت متوقّعة أن أردّ لذا بعثت لي على الفور تسألني إن كنت أحبّ مرافقتهم إلى فاريا في عطلة الأسبوع.

ردودي على المستمعين أيضاً خالطها المزاح، لا كلام عصبي ولا قطع للاتصال. بعضهم كان يتحوّل حينها من منتقد إلى مادح للموضوع.

في لحظة نسيت شكّي وألمي وعدم قدرتي على الأكل أو النوم أو العمل. انشغلت للتحضير ليوم السبت، حتى أنني اشتريت كنزة زرقاء بلون السماء. أعلم أنّه لونه المفضّل لأنه يذكّره بالدفء والصيف والبحر. ليس محبّاً للمطر مثلي. قال إنه نال كفايته في كندا من العتمة والضباب والبرد والأمطار. أخبرني إنّ ضيقه من طقس كندا دفعه مرّة إلى اصطحاب عائلته إلى أبيدجان. لدى زوجته عم يعيش هناك، لكنّه لم يكن سبب

السفرة بل الاختناق من الثلوج والثياب السميكة واللون الرمادي الذي يغلّف كلّ شيء، ويدفع الواحد إلى الجنون.

تخيّلت أننا تجاوزنا الزوجة ومزاجها وأمورها. لمت نفسي على قلّة صبري. لا أستطيع أن أمحو التجارب التي عاشها. ولا أن أنسيه عشرات السنين، قبل أن يعرفني. كان أحياناً يطالبني بدوره بصور لي من طفولتي أو مراهقتي. أعده دون أن آتي بها. لا أحبّ شكلي فيها.

ليلة الجمعة ما استطعت النوم. تمنّيت لو أنّ لقاءنا أبكر من العاشرة صباحاً. لم أسأله إلى أين نحن ذاهبان. بمَ يهمّني المكان إن كنت برفقته؟ حاولت أن أقرأ وأنا في السرير لكنّ تركيزي معدوم. قمت وأضأت اللمبة. أعدت نبش حقيبتي ورتّبت الأغراض التي سآخذها معي مجدّداً، تذكّرت أدويتي، وموعدي الذي نسيته مع الطبيب. ربّما نسيته عن قصد، لا أحتمل فكرة الفحوصات مرّة أخرى. البحث على الأنترنت عن المدينة التي عاش فيها مع عائلته، أظهر صوراً لشوارع تظلّلها الأشجار، راكبو درّاجات فوق الأرصفة، الخضار القوي فيها يلغي فكرة المطر والثلوج. لو كنت أعلم عنوان بيته القديم لربّما وجدت صورة للبناية التي سكنها. أحبّ أن أتخيّل حيث عاش وماذا كان يرى كلّ يوم عند خروجه وعودته. لم أحفظ إسم الجامعة التي علّم فيها. لكنّ لدي نسخاً من المقالات التي نشرها أو بعضها. لم يفهم إصراري في الحصول على نسخ منها. رغم إعادتي قراءتها لمرّات، لم أفهمها. لا أقول له إنّني أرى فكرة النقد غبيّة. إمّا تحبّ الكتب أو لا تحبّها. معظمها عن ادغار ألن بو ومارسيل بروست. لو لم يخبرني سرّ تسمية ابنيه لكنت اكتشفت من المقالات هوسه بهذين الكاتبين. أعارني بعض كتبهما. فضّلت بروست. يسألني عن الأشياء التي أحبّها في هذه الكتب، ثم يذكّرني ببعض الأحداث أو الشخصيات مفسّراً مدلولاتها الخفيّة. يضحكه أن أسأله إن كان عليّ الخضوع لامتحان في كلّ مرّة يعيرني فيها كتاباً. الأفلام الأوروبيّة التي نذهب معاً كلّ خميس لمشاهدتها في النادي تضجرني بحقّ. لا أعترف له بالأمر. حين نخرج

يتكلّم عن أمور فيها مؤثّرة لم أنتبه لها بتاتاً. أسأله إن كان متأكّداً من أنّنا شاهدنا الفيلم نفسه. يردّ إنني كطّلابه من جيل أفلام اللكم والإثارة الأميريكية الرخيصة. لا أزعل من قوله لأنني أعلم أنّه لا يراني مثلهم. أمنع نفسي من التفكير في المستقبل. لكنّني أحلم بوقت لا أودّعه فيه. أبقى لصيقة به ليل نهار. كتبت له أسأله إن كان صاحياً. بقيت عيناي مسمّرتين بالشاشة. انتظرت طويلاً قبل أن أسلّم بأنه على خلافي غارق في النوم. أحسست أنّ جدران غرفتي تطبق على صدري. لففت نفسي بالبطانية وخرجت إلى غرفة الجلوس. وجدت أبي صاحياً. أمامه كأس ويسكي. على الشاشة فيلم ويسترن وأحصنة، لا أظنّ أنّه يتابعه. تظاهرت بالذهاب إلى المطبخ كي لا أعلق معه. حين عدت من المطبخ قال لي بصوت هامس «يارا لماذا لا تجلسين هنا إن كنت صاحية؟» أعرف ما ينتظرني من هذه الدعوة غير البريئة. رغم ذلك جلست على الكنبة قريباً منه. سألني إن كنت تعشّيت. استغربت أن يسأل والساعة قاربت الثانية بعد منتصف الليل. ثمّ بعد مداورة وأسئلة تتعلّق بعملي ومواعيدي. كذبت في شأنها كلّها دون أن أدري السبب. كان قلقه بادياً عليه. ينتظر ربّما منّي أن أبادر بسؤاله عن سبب سهره إلى هذه الساعة. قال إنّني صرت أقرب من كلودا، لذا عليّ أن أراها. تمرّ حاليّاً في أصعب مراحل حياتها. ترفض أن تحكي معه أو مع أمها في الموضوع. أجبته نافذة الصبر «ألن ننتهي من قصة بشارة والطلاق؟» زعل وأجابني إنّ غيابي الدائم فوّت عليّ معرفة كلّ الأشياء التي حصلت. بشارة يريد أن يعيش إبناه معه بعد زواجه ثانية، المشكلة أنّهما موافقان. نصح كلودا بالمحاربة من أجل حضانتهما ولو لجأت إلى المحكمة ثانية. لكنها لم ترض. قالت لن أفرض عليهما حبّي إن كانا لا يريدانني. الدموع في عينيه أحزنتني. قال إنّه زار دون علم كلودا أهل بشاره وسأل أمه أن تضع نفسها مكان كلودا، هي أم وتعرف. لكنّ الحديث معها شبيه بالحديث مع جدار إسمنتي قال. أجابته إنّ الصبيان يجب أن يربّوا دائماً في كنف الأب. ثم أضافت بوقاحة «عدم المؤخذة كلودا ليست

على طبيعتها، لتكون أماً صالحة.» لا يعلم كيف فقد أعصابه وسبّها بأقذع الألفاظ. أضاف إنّه لو بقي دقيقة واحدة بعد لكان أشبع ضرباً قليلة الحياء تلك هي وعائلتها كلّها. لم ينته الأمر عند هذا الحدّ اتّصل به بشارة قائلاً إنّ الأمر إنْ تكرّر سيرفع دعوى تهجّم وتهديد في المخفر. «يهدّدني أنا بالمخفر ابن الكلب، نسي أنّنا عاملناه كإبن لنا. ليس رجلاً هذا الناقص». كان وجهه يحمرّ وتبرز حدقتاه كأنّهما ستخرجان من محجريهما. ارتعشت شفتاه بقوّة وتملّكني الرعب من أن يصيبه شيء. وعدته أن أحكي مع أختي، علّه يهدأ مع أنّني أعلم أنّ لا شيء أقوله قد يبدّل الأمور. لم أجرؤ على تخيّل ما تمرّ به. سألته إن كانت تذهب إلى الصيدلية. أجابني إنّها على عكس السابق تفتحها قبل وصول الموظّفة وتبقى فيها إلى ساعة متأخّرة. قلت إنّ العمل سوف ينقذها. إن رأيتها لن يكون هذا رأيي، قال. كلما مرّ بها يراها زائغة العينين. نحولها جاوز الحدّ. الأشياء التي يشتريها، تدّعي أنها ستأكلها بعد قليل. لكنّها تبقى على الطاولة دون أن تمسّها. ليس بإمكانه أن يقف متفرّجاً. شاور المحامي الذي اعترف أنّ حظوظ حصولها على الحضانة قليلة خاصّة إن كانت رغبة الولدين بالبقاء في كنف الوالد. لكنه لن يستسلم دلّوه على محام شاطر ويربح معظم القضايا. أمي لا تعلم بالتفاصيل. يخاف إن اعترف لها بما يحصل من أن يصيبها شيء. أجبته إنّ عليه هو أيضاً أن يهتمّ بصحّته. «ما قيمة حياتي وأنا عاجز عن حمايتها. أي أب أنا لأتفرّج على ابنتي تتعذّب ولا أريحها بشيء؟» قال بين دموعه إنّ لديه رغبة في قتل هذا المجرم. لم يغشّ كلودا بل غشّ الجميع بلطفه الكاذب. نصحته أن ينام قليلاً. أجابني إنّه كلّما وضع رأسه على المخدّة انتفض كأنّ ناراً تأكل قلبه.

الفيلم انتهى. على الشاشة امرأة تعرض منتوجات للبيع. نظرنا كلانا دون أن نتابع. ابتلع أبي آخر جرعة من الويسكي المخلوط بالماء، ثم نهض ليفتح درفة الدرسوار ويصبّ كأساً أخرى. من المرّات القليلة التي أراه فيها يشرب أكثر من كأس. تركته في جلوسه، وعدت إلى غرفتي.

في العتمة كنت أراقب جمرة سيجارتي وأفكر بالغدّ دون أن أدري سرّ خوفي. ما أحلم به هو أن أمحو كل شيء يتعلّق بزوجته. لا أريد أن أستمع ولا أن أبدو متفهّمة. لا أريد أن ألتقيه ليحكي عن حساسيتها أو أيّ شيء يتعلّق بها.

* * *

انتظرته نصف ساعة قبل أن ألمح سيارته. استمرّ البوّاب يحدّق بي متظاهراً بنفض مساحات الأرجل وكنس مدخل البناية. ما كان عليّ أن أصل قبل موعدنا. لكنّ عجزي عن النوم شوّش إحساسي بالوقت. ما إن طلع الضوء حتى تسلّلت إلى المطبخ لأعدّ فنجان نسكافيه. كان والداي نائمين. خرجت قبل أن يستيقظ أحدهما وتبدأ أسئلتهما عن سرّ خروجي في هذا الوقت. لم يكن المطر غزيراً. مشيت طويلاً ولم أوقف سيّارة سرفيس إلا حين قويت الرعود. نزلت عند السوديكو وأكملت سيراً. تأمّلت السيّارات المارّة علّني ألمحه وهو يصطحب ولديه عند بيت جدهما. الفكرة جعلت قلبي يقفز كلّما لاحت سيارة فضّية.

خرج البوّاب من المدخل ليتأمّل ركوبي في سيارة أسامة، تعمّد مناداته بصوت عال ليلقي عليه التحيّة، سأله إن كان يأمره في شيء. تظاهر أسامه بعدم سماعه وقال بينما نبتعد إنّه لا يفهم الناس هنا. عندما علم متى وصلت، اعتذر كأنّه المخطئ.

الطريق التي كنا نمرّ بها غريبة عنّي تماماً. البرد تسلّل إلينا. الثلج غطّى قمم الجبال التي انكشفت لنا. توقّف عند فرن واشترى الكثير من المناقيش، قال إنه يعرف الفرن قبل أن يسافروا إلى كندا. مات صاحبه والآن ابنه يعمل فيه دون أن يبدّل شيئاً من ديكوره. كانوا حين يهربون من بيروت بسبب القصف والمعارك، يتوقّفون وهم في طريقهم إلى الضيعة ليشتروا من عنده. لكنّه ليس متأكّداً إن كان سيجد الطعم الذي عرفه.

توقّفنا عند مطل ينكشف على واد من الأشجار الحرجيّة. أخرج من حقيبة وضعها على المقعد الخلفي ترمس قهوة. دلّني على الكروم التي كان يأتي إليها مع رفاقه للعبث بعرزال الناطور في غيابه. ثمّ أضاف أنت فتاة مدينية لا تعرفين في هذه الأمور. رددت وأنا أقرص يده «لم أكن أعلم أن بيروت ومونريال قريتان نائيتان». اشتدّ المطر وتحوّل إلى برد بحجم طابات صغيرة، كانت تطرق زجاج السيارة بقوّة فأختبئ بين ذراعي أسامه. كنت أرتجف كأنني واقفة تحت زخّات البرد. ظنّ أنّ السبب هو إطفاؤه لمحرّك السيارة وللتدفئة. أعاد تشغيلهما وساق على مهل في طرقات بدأت تضيق وتتعرّج. عندما تأتي سيّارة أو شاحنة في الاتجاه المعاكس، كان أسامه يبعد السيارة جانباً باتجاه الجلول الترابية. مرّة غرزت الدواليب في الوحول. لزمنا وقت لنعود إلى الطريق العامّ. اتّصلت أمه ولم يبدُ سعيداً بالردّ عليها. قال بعد ذلك إنّها تتحجّج بمواعيد أدوية مارسيل مع أنّه سجّلها بدقّة. منذ أخذ مفاتيح البيت وبالها مشغول بمعرفة من رافقه. لم تصدّقه عندما سمّى زميلين له من الجامعة. في كندا كان راشداً حرّاً وأهله لم يضيّقوا عليه في تربيته منذ صغره. لكن في لبنان يتحوّلون إلى كائنات أخرى. حتى أخته التي يحبّها، والتي عاشت حياتها بالطول وبالعرض تفرض قيوداً غير مفهومة على ابنتها. حجّتها الكاذبة سوء الأوضاع الأمنية. كنت سعيدة بحديثنا الذي لم يذهب ولو مرّة باتجاه زوجته. لدرجة أننا لحظة وصلنا إلى البيت كنت سعيدة كأنني أدخل قصراً لا بيتاً قديماً بارداً. اعتذر عن حالة البيت الذي لم ينظّف من الصيف الماضي. قال إنّ عمره أكثر من تسعين عاماً. جده بناه وحده بمساعدة زوجته. كأنّ مخيّلة طفل صنعت هذا البيت. تمتدّ غرفه طولياً. أولاً غرفة الجلوس، يتبعها غرفتا نوم مفصولتان. من باب جانبي لغرفة الجلوس هناك المطبخ ومن باب يقابله حمام. أمام غرفة الجلوس شجرة بلوط كبيرة شقّت جزورها باطون المصطبة.. حاول أن يشغل الوجاق لحظة وصلنا لكنّه فشل. أتى بأغطية صوف. التففنا بها، تعانقنا تحتها. وجلسنا ساكتين نستمع إلى المطر يطرطق. لم

أنتبه إلّا لاحقاً إلى السقف المصنوع من جذوع أشجار ثخينة. أحسست برقّاصات الكنبة تنكزني. كنّا غارقين فيها، بدت كأنّها ستتهاوى إن تحرّكنا فوقها. تحت البيت جلول تمتدّ انحداراً. لم تكن البيوت القريبة مسكونة. لا صوت ولا دخان يرتفع من سطوحها. أحسست بهدوء غريب. نسيت أشياء كثيرة. على عكسه أطفأت تلفوني. ليس لديّ أولاد أقلق بشأنهم. حين قام من قربي ليردّ على الاتصال في الغرفة الثانية، علمت أنّها هي. وجهه تبدّل. كأنّني ما عدت موجودة. رغم السكوت الذي يلفّ كلّ ما حولنا لم أفهم من كلامه معها سوى اسمها الذي لا يستخدم إلّا تصغيره «موني». هذه التسمية كانت تغضبني أكثر من أيّ شيء. كيف يناديها باسم التدليل إن صارت غريبة عنه؟ حتى حين خرجت وصفقت الباب خلفي لم ينتبه. كانت الريح تطيّر قضباناً وسدّادات قناني مرطبات باقية من أيّام الصيف. مشيت في طريق باطون خرجت أعشاب من شقوقها. كنت غير آبهة في أن أضيع. الهواء حرّك الأغصان، نفض عنها حبّات المطر، بلّلت وجهي وثيابي. فقدت إحساسي بأطراف أصابعي. أكملت السير في الطريق الباطون المتعرّجة، بيوت ظهرت فجأة كأنّها مختبئة عن الأعين. في حديقة أحدها امرأة تقتلع جزراً تضعه في دلو أحمر قربها. رفعت عينيها نحوي كأنّها تعرفني. تأمّلتني حتى أخفاني المنعطف. أردت أن أمشي وأمشي حتى يتوقّف هذا الألم. ذكّرني ذلك بشيء قديم كنت قد نسيته تماماً. كنت صغيرة في الصف الثاني الأبتدائي ربّما. أصبت بالتهاب رئوي، هذيان وحرارة. لم أكن واعية لشيء. لكنني أذكر أنني فتحت عينيّ، لأجد أنني في مكان غريب. ملّاءة السرير البيضاء أفزعتني بقدر الأنابيب الموصولة إلى جسمي. ربّما دام غياب أمي دقائق لتحدّث طبيبي في الممشى، لكنّها كانت كافية لتملأ نومي بالكوابيس لسنوات. شعور لا أستطيع أن اجد الكلمات لأصفه حقّاً. حين كبرت وصرت أسأل امي عن تلك الذكرى كانت تردّ دائماً إنّها لا تتذكّر أبداً أنني أُدخلت إلى المستشفى. حتى بعد أن أكّدت لها كلودا أنّ ذلك حصل، كانت تجيب إنّنا

نخلط ما بيننا وبين ابنة جيراننا التي كنت ألعب برفقتها. هي من أصيبت بالتهاب رئوي وكادت تموت وليس أنا.

لم يكن شعوري بالبرد يخفّ خلال المشي. شبكت ذراعيّ، وحين وصلت إلى الساحة المكشوفة أحسست أنّ الريح تدفعني في كل اتجاه. الدروب ما عادت خالية. وجوه فضولية كانت تتفحّصني، بعضهم كان يلقي عليّ التحيّة فأردّها مطأطئة الرأس. امرأة عجوز استوقفتني لتسألني ابنة من أكون، عندما لم أجبها قالت إنني ابنة جورج كيروز؟ هززت برأسي. فرحت لأنّها حزرت وقالت إنّني أشبه أمي تماماً وحمّلتني سلامات لأمي ولأبي وجدتي نرجس بعد أن سألت إن كانت بصحتها. الثياب السوداء الداخلة إلى أحد البيوت والنواح المرتفع من داخلها أعادني أدراجي. كنت أدلف من زاروب إلى آخر. الوحول صارت طبقة سميكة فوق نعل جزمتي. حين وضع يده فوق كتفي أحسست أنّ دموعي طفرت من عينيّ رغماً عنّي. بدا غاضباً، قال إنّني أفزعته. أكثر من ساعة وهو يبحث عني. لم أجب عن أسئلته، مشيت قربه دون كلمة. أخشى أن تسبق دموعي كلماتي. لم ينتبه إلى أنني بردانة إلّا قبل البيت بقليل. عندما خلع الأنوراك ليلبسني إيّاه أبعدته بيدي بعصبية. قال حين جلست ملتفّة بالبطانيات وأنا لا أستطيع وقف تلك الرجفة، إنّني تصرفت بطريقة لا يفهمها. ما الذي أخرجني وسط البرد. لا يعرف شيئاً البتة. صدّق مزاعمي بأنني أردت السير والتفرّج على الضيعة. فتح قنينة نبيذ أحمر ووضع المناقيش في صحن كبير. قشّر بعض الخيار وقطّع بندورة ووضع صحناً من البزورات. لمس جبيني وقال إنّ حرارتي مرتفعة ربّما، هذا يفسّر الحالة غير الطبيعية التي أنا عليها. أغمضت عينيّ وتمنّيت لو أعود إلى بيروت. كلّ شيء فسد في لحظات. كلّ سعادتي تبخّرت. بعد قليل أخبرني عن الاتصال. كانت هناك مساحات صمت بين جمله، كأنّه يحزر ضمناً إنّ ما يقوله جارح. طلبت منه زوجته أن يأتي مع ابنيها في إجازة. طبيبها قال إنّ ذلك سيحسّن حالتها وسيساعدها للخروج من حالة الحداد التي لا تجد لها مخرجاً. لم

أعلّق. كأنّني غير معنية. قلت بلهجة مبالغة في الحيادية إنّها فكرة حسنة. أجاب إنّها ليست فكرة جيدة أبداً أن يعطّلوا هو عن عمله والأولاد عن مدارسهم. أسهل بكثير أن تأتي هي. ترحل ما إن تتحسّن وتصبح قادرة على العودة إلى الجامعة. أسئلة كثيرة بقيت معلّقة في رأسي، رفضت أن أطرحها. أين ستنام. أفي بيته كأنهما لا يزالان زوجين؟ هل سيمتنع عن رؤيتي خوفاً على إحساسها وبحجّة أنّ ذلك سيؤذيها نفسياً. أنسي بهذه البساطة إصرارها على الطلاق، بحجّة أنّها علّقت حياتها من أجل العائلة. إشارة منها وينسى؟

قرّب وجهه من وجهي، لقبلاته طعم النبيذ والزعتر. كنت أختنق ولا أرغب في النوم هنا. فجأة صار كلّ ما حولي غريباً. أردت أن أكون وحدي. لا أستطيع أن أبقى قلت وأنا أهبّ واقفة. نظر إليّ طويلاً وقال إنّه لم يعتد منّي هذه المزاجية. تحدّث عن الأشياء التي اضطرّ لفعلها ليكون معي. أجبت بلهجة ساخرة فاجأته إنّني حقّاً لا أحفظ الجميل ولا أقدّر التضحيات الكبيرة. «يارا ما بك ؟ كأنّك لست نفسك. هل السبب هو المرض؟» أحنيت رأسي وكذبت مدّعية إنّني مريضة بجدّ. إنْ بُحتُ بما أفكّر، أعلم جوابه واستهجانه غيرتي غير المبرّرة. بدأت أجمع أغراضي وأنتعل حذائي. هو بدوره فعل مثلي دون أن يتكلّم. لكنّه كان يحدث قرقعة بالصحون التي أفرغها ووضعها في المجلى. ظنّ أنّ غضبه سيخفى عنّي. لكنّني لم أرد أن أسأله أو أقول كلمة تشي بأفكاري وتساؤلاتي. الكلام لا يوضح أيّ التباس. بإمكانه أن يزعم ما يشاء. لكنّني أعرف كيف يصير في عالمها هي ما إن تحكي معه أو يتكلّم عنها. أستطيع أن أكذب على نفسي وأن أجد التبريرات، لكن هل تتبدّل الحقيقة؟

في طريقنا إلى بيروت سطعت الشمس، الغيوم في السماء صارت كالطيور الملوّنة. تسبح بخفّة، وضعت سمّاعات الأذن دون أن أستمع حقّاً إلى الموسيقى. داوم على الالتفات نحوي. وضع يده فوق يدي. لم ألتفت، كأنني في مكان آخر. لن يعلم أنّ كل نفس يطلع منه أحسّ به.

توقّف جانباً عدما رنّ هاتفه. لم أرد أن أعلم لا مع من يحكي ولا ماذا يحكي. فتحت باب السيارة ووقفت أنظر إلى البزّاقات السارحة تحت أشعة الشمس. سكاكين معدتي لم تهدأ. أخذت أدويتي دون طعام. سمعت أصواتاً من الوادي تحتنا. ثم اطلاق نار من بارودة صيد.

لم ينزل، أطلق زموراً خفيفاً لأركب ثانية. ما إن أغلقت الباب حتى سارع بالكلام خوفاً من أن أعزل نفسي مجدّداً بالسمّاعات. أخبرني إنّ أمه أرهقته وهي تسأله عن سرّ عودته مؤكّدة أنّ ادغار ومارسيل سعيدان. اصطحبهما جدهما إلى محلّ للحيوانات. ثم بدأ أسامة يتأفّف من كسر أهله لتعليماته. من سيهتمّ بالكلب في غيابهم، كأن ليس لديه ما يكفي من المسؤوليات. من يهتمّ بإطعامه وبتنظيفه وباصطحابه إلى البيطري أو بتمشيته. كان يعود إلى سيرة الكلب واجداً فيه منفذاً لغضبه. أنا أيضاً خشيت أن أضع سمّاعاتي. أحسست أنّ حركة واحدة كفيلة باشعال مشادّة حامية بيننا. كان واضحاً أننا كلينا نبتلع بالقوّة ما نودّ قوله. لذا حين سألني بطريقة مستفزّة لماذا لا أردّ وماذا فعل لي لأكون لئيمة هكذا؟ تحلّيت بكلّ الهدوء الكاذب لأخبره لأوّل مرة عن الجرثومة التي لم أشف منها رغم المضادات القوية. أوقعت نفسي بشرّ كذباتي، واضطررت أن أخبره بأشياء لا أحبّ مقاسمتها مع أحد، وصفت أوجاعي، مع أنّها حقيقية شعرت أنني أكذب. ليست هي سبب عودتي . كنا كلّما اقتربنا من بيروت أحسست بالندم، نسيت كلّ شيء، وأردت ألّا أفارقه. رجاني أن أطمئنه عليّ وان أتصل فوراً بالطبيب. قلت له ألّا يدخل في شوارع الحمرا المزدحمة. نزلت قريباً من بيت كلودا. وقفت ألوّح له حتى غاب عن عينيّ. كنت كأنّني أراه لآخر مرّة.

خلعت الجاكيت. الشمس التمعت في عينيّ، سرت ببطء، إلى أين أنا ذاهبة؟ لم أدر لماذا عذّبت نفسي هكذا. ألم يكن من الأفضل أن أكون الآن معه؟ ماذا يفعل إن اتصلت به؟ هل بإمكانه أن يقول لها «تدبّري أمرك وحدك ما عدت زوجتي». لكن أختي كلودا التي دام زواجها لفترة أطول لا

تحكي عن بشارة كما يحكي هو عن زوجته. منذ تطلّقا ما عادت تناديه مثلاً بـ«بوب»، ولا تقلق عليه حتى حين فجّروا له بحصة في الطوارئ، ذكرت الأمر بلامبالاة. أمام بناية كلودا تردّدت في الصعود. فهمت من أبي أنّها تقضي وقتها في الصيدلية. رغم ذلك قرّرت أن أدقّ بابها، لم أعلم إن كانت الضجة من شقتها أم من الشقة المجاورة. قرعت الجرس مرّات إلى أن سمعت خطواتها تقترب لتفتح الباب. نظرت إلى الداخل رأيت الكراسي مرفوعة إلى طاولة السفرة. الهواء يصفق الأبواب الداخلية المشرّعة. لم أجد شيئاً في موضعه. زحزحت كل الأثاث. نبّهتني من الانزلاق بماء المسح. قلت إنّني لم أعلم أنّها منشغلة وهممت بالخروج ثانية، لكنها جرّتني من يدي وأجلستني في المطبخ غسلت يديها وبدأت تعدّ لنا قهوة. سألتها عن العاملة التي كانت تأتي للتنظيف مرّة في الأسبوع، أجابت إنّها لا تحتاجها. لديها الوقت بما أنّها وحدها. لم تقل إنّها لا تثق بأيّ عاملة وغالباً ما تجد بعد رحيلها بقعاً مهملة من الغبار فوق الخزائن أو البراد أو خزائن المونة. كنّا نشرب بصمت، إلى أن خطر لي أن أشغل نفسي في مساعدتها، انا أيضاً لا أرغب في أن أبقى برفقة أفكاري. اعترضت بداية، ثم دخلت وأتتني ببيجامة رياضة. كان بنطلونها لا يغطي كاحليّ. لست خبيرة بالتنظيف لكنني امتثلت لطلباتها. لم أعلم أنّ مسح الغبار يستلزم هذه الدقّة وهذا الوقت. كان صوت فيروز ينساب بين الغرف حزيناً. الفرك والمسح لم يُلهِني عن ذلك العتاب المتردّد في داخلي. «زعلي طوّل أنا وياك وسنين بقيت جرّب فيهن أنا إنساك وما قدرت نسيت..» جلست على سرير روبير حزينة دون حركة إلى أن تفقّدتني كلودا. لم تسألني شيئاً جلست قربي. يداها محمرتان من الماء البارد والمساحيق. تذكّرت كرهها لملمس القفازات. تضعها في الصيدلية رغماً عنها. هنا في بيتها، لا تحسّ أنّ الأشياء نظفت إن لم تتلمّسها بيديها. سألتني بعد قليل إن انتبهت إلى البرادي الجديدة التي في غرفة روبير. قالت إنّها لم تعلم أنّه لن يكترث، فكّرت أنّها ستسعده عندما تستبدل غطاء السرير الطفولي بآخر

يناسب عمره. أزالت اللوحات القديمة واستبدلتها بلوحة كبيرة. حرصت بأن تلصق عليها بوستيرات لرياضيين يحبّهم ولفرق موسيقية يستمع إلى موسيقاها. لم يلحظها حين نام هنا. قالت إنّهما يأتيان ويتصرّفان كأنّهما ضيفان. حتى لطفهما يؤلمها. يستيقظان باكراً لينصرفا كأنّهما جاءا في مهمة. عندما تتصل بهما، يجيبانها بطرف لسانهما. تنظر إلى صورهما، لا تصدّق أن تلك العيون المليئة بالحبّ، تريانها الآن كما لو أنّها غريبة. ذكّرتني أنّها كانت تتعذّب كثيراً حين كنت أقول لها إنّها ليست أماً صالحة. سارعت لأخبرها إنّ ذلك كان كلاماً لجرحها. قالت إنّها تعرف لكن رغم ذلك تفكّر أنّه ربّما كان صحيحاً، وإلّا... لم تكمل غصّت بدموعها. بكيت أنا أيضاً. كانت فيروز تغني «لا إنت حبيبي ولا ربينا سوا...» انتبهت إلى الشعرات البيضاء التي وشّحت شعرها الطويل. رائحة تفاح فاحت منه. حين حلّ الليل وعتّمت الغرفة، نهضنا بثقل وتساعدنا لإعادة الأثاث إلى مكانه. وجدت أربع رسائل. واحدة من أسامه، يسأل فيها كيف أصبحت؟ جملة واحدة بلا طعم كأنّها مرسلة من شخص في الاذاعة مثلاً. سألتني كلودا «أخبار سيئة؟» بينما ترى وجهي يكفهرّ. في اللحظة نفسها وصلت رسالة من صديقي المجهول. كتب أنّه بقي في عمله حتى الآن. أحياناً يتمنّى لو أنه يعمل الاحد. هكذا يتجنّب يوماً طويلاً يسرح فيه الفكر ويتذكّر. لو يسمع صوتي خلاله لكان ربّما تحمّله. قال أن أنظر إلى السماء، الغيوم لم تحجب تماماً القمر. خرجت إلى الترّاس. لم أجد القمر إلا حين وقفت عند طرفها الشمالي، كلودا التي تبعتني، قالت كأنّها قرأت الرسالة معي. «انظري بان الآن» الغيمة أخفته مجدّداً. مكثنا واقفتين في البرد إلى أن شعّ بلون الحليب المخلوط بالعسل. دلّتني كلودا على الشجرة الجديدة التي وضعتها خارجاً في حوض ضخم، قالت إنّها نوع من الأرز. لكنّها لا تعلم إن كانت ستعيش. هل فكرنا كلتانا بالوقت الثقيل، بهذا الفراغ الشاسع في داخلنا، لنتحمّس للخروج. سألتني إن كنت أفضّل أن أقود أنا. هي تنزعج من المصابيح قالت. سألتها أين نذهب، قالت أن

أختار، الأفضل أن يكون مكاناً غير مزدحم. قدت طويلاً لا أدري إلى أين نحن متوجّهتان. في الطريق تهيّأ لي أن كل سيارة يمكن أن تكون سيارته. كانت كلودا تدخّن وتستمع إلى أغاني قديمة تدندن كلماتها وتسألني إن كنت أحبّها. حين أنفي معرفتي بها تقول إنّها نسيت كم أنا أصغر منها. ثم تردّد كأنّها تحكي مع نفسها «الوقت مرّ بسرعة، أحياناً أنسى ذلك». قدت لأكثر من ساعة حتى بدا لي أننا لن نتوقّف في أي مكان، فقط نسير حتى ينقضي الليل ونتعب. على الطريق البحرية، رأينا واجهته رغم أنوارها البيضاء الخافتة. توقّفنا أمام باحته. استقبلنا نادل في جاكيت رقيقة. رافقنا إلى المدخل مكرّراً عبارات الترحيب. زبائنه أكثر عدداً مما خيّل لنا ونحن ننظر إلى واجهته. رائحة نرجيلة ودجاج مشوي ملأت الصالة.

ما إن جلسنا حتى وصلتني رسالة أخرى من أسامة يسألني أن أتصل به إن كنت مستيقظة. عندما لم أفعل، كتب لي أنه ليس شكّاكاً بطبيعته لكنّ حدسه يقول له إنّني أخفي عنه السبب الفعلي للحالة التي أصبت بها فجأة. لا يقلّل من شأن مرضي، لكنّ إصابتي بالجرثومة ليست حديثة العهد. تبعتها رسالة يقول فيها، إنّه نال نصيبه من الأسرار والأفكار المكبوتة، لا يريد أن يعيش ذلك ثانية. غضبت من كلامه، كأنّ المهمّ هو ما واجهه. ماذا عمّا جعلني أعانيه وهو غافل تماماً. شربت جرعة كبيرة من كأسي، حاولت أن أكبت ما في داخلي بتأمّل الزبائن الذين كانت تصل أحاديثهم ونكاتهم إلى مسمعنا. دلّتني كلودا بعينيها إلى شاب بعمر إيلي جالس مع أهله، يضحك من قصة يخبرها رجل ربما هو والده. قالت إنّها حين تريد أن تخبر شيئاً طريفاً، ايلي لا يسمعها أو يتظاهر بسماعها، ثم يرغم نفسه على ابتسامة كأنّ قلب الأم لا يعرف. تحضّر قصصاً وأخباراً لترويها لهما حين يأتيان، علّهما لا يجدانها مملة. طوال الأسبوع تشتري أشياء يحبّان أكلها، تحضّر طبخاتهما المفضّلة. من أسبوع إلى آخر تكتشف أنّهما ما عاد لهما الذوق نفسه. تظل تهيّئ نفسها لمجيئهما كأنّها تجتاز أصعب الامتحانات. ودائماً تخفق. قلت لها إنّ الوقت سيبدّلهما وسيفضّلان المكوث معها

مجدّداً. خاصّة بعد أن تنجب زوجة أبيهما. كأنّ فكرة الانجاب لم تخطر ببالها. سألتني كما لو أنني أخفي أموراً عنها: «في عمره! لديه الصبر لتربية الأولاد من جديد؟ أردت دائماً أن أنجب ابنة. كان هو من يعترض.» أضافت هل يظنّ أن بعض الصبغة والريجيم سيعيدانه شاباً؟

لا أدري لماذا طلبت هذه الكميّة من الأطباق. الطاولة لم تتّسع لها، حمل النادل طاولة ثانية وألصقها بالأولى. كانت الصالة تمتلئ بالزبائن كلّما تقدّم الوقت. الشرب أخرج كلودا من سكوتها. أخبرتني إنّها عادت ذات ليلة من الصيدلية لتجد ورقة على الباب دون توقيع وعليها عبارة واحدة «نرجو الانتباه إلى الضجيج صار مؤخّراً غير محمول.» رجّحت أنّ يكون جارها الموسيقي الذي يسكن تحتها. رغم تأخّر الوقت، دقّت بابه، لم يفتح لها. أبقت اصبعها فوق الجرس، حتى أحسّت بحركة خلف الباب. فتح أخيراً خافياً جسمه خلف درفة الباب، لوّحت كلودا بالورقة نظر إليها بفزع كأنّها متوحشة، أجابها دون النظر إليها إنّ الضجيج منعه من التركيز على عمله، قرّبت وجهها قدر المستطاع لتفهم غمغمته. سألته بغضب كيف تحدث ضجة وهي غائبة عن البيت حتى الليل، ولا أحد فيه. بدل أن يعتذر اكتفى بكلمة «حسناً» وأغلق الباب في وجهها. لاحقاً ظلّت تتذكّر ما حصل وتضحك. صباحاً عندما غادرت إلى الصيدلية وجدت ورقة ملصقة هذه المرّة على باب جيرانها. قالت إنّ عليّ رؤية سرعته في الاختفاء على السلالم حين يحسّ أحداً قادماً خلفه. إن صادفته، يعقد حاجبيه ويخفض رأسه متأمّلاً ظرفاً يحمله أو ناظراً داخل الأكياس التي اشتراها كي لا يفسح لها أن تصبّحه أو تمسّيه. «مع أنه أخوت، عزفه جميل» قالت. ضحكت عندما دلّلتها على قنينة النبيذ شبه الفارغة. أجابت بخفّة إنّ كلّ السائقين ليلاً يكونون سكارى، ما المانع أن نفعل نحن. لم أكن أنا من يشرب كثيراً، هي من فعلت. الجلوس برفقتها ألهاني، عندما يعود الحديث إلى ايلي أو روبير آخذه إلى مطرح آخر. ليس سهلاً دائماً أن أجد موضوعاً. نادت النادل لتطلب منه خفض صوت الموسيقى. دام

ذلك لدقائق قبل أن يرفعه ثانيةً. لم أظنّ أنّنا سنأكل كلّ شيء تقريباً. كنّا نفعل دون انتباه. حين خرجنا إلى الموقف كان الهواء بارداً جداً. قالت إنّها لا تريد العودة إلى البيت. الساعة لم تتجاوز الواحدة والنصف بعد. غداً عطلة هناك وقت للنوم. لم يكن لديّ مانع لكن لا فكرة لديّ أين يمكن ان نكمل سهرتنا. لا أظنّها تحبّ الملاهي.

قبل أن يتوقّف محرّك السيارة تماماً انطفأ مرّات وأعدت تشغيله. عند الدورة حاولنا بقدر ما نعرف تشغيله أو اكتشاف ما حصل له. لكنّه كان يحدث صوتاً قصيراً كالحشرجة ثمّ لا شيء. توقّفت سيارة ونزل منها سائق شاب بدا سكران لكن وجود امرأة برفقته طمأننا. رفع الغطاء ونظر إليه. خفت أن يخرّبه أكثر، لكنّه اكتفى بهزّ رأسه وسألنا إن كنا نحتاج توصيلة. قال إنّ لا مشكلة لديه في إيصالنا السير خفيف. كانت الموسيقى صاخبة، والتدفئة عالية. رغم البرد كانت الفتاة ترتدي بلوزة فضية بلا أكمام. كانت أكثر سكراً منه. كأنّها تعرفنا حقّ المعرفة، سألتنا لماذا لا نرافقهما إلى الجميزة؟ ما إن عرفت إسمينا حتى صارت تنادينا بهما كأنّنا أعزّ الأصدقاء. ألحّت علينا واصفة جوّ المكان الذي سيقصدانه. ثم مدّت نحونا قنينة لنشاركهما الشرب. بعد كلّ جرعة كانت تخرج مرآة من جزدانها وتضع طبقة من حمرة الشفاه. رائحة الفودكا والحشيشة علقت بثيابنا كأنّنا شربنا ودخّنا معهما. سرعته في القيادة لم تخفني بمقدار ما أخافني عدم نظره أمامه. لم نجرؤ على الكلام والردّ خشية أن يستدير جهتنا. لم أعلم إلّا حين عدنا إلى بيت كلودا من أنّها لم تكن خائفة. لا بل سألتني أكان فعلاً يقود كما وصفته؟ لم أكن الوحيدة المتوجّعة. كلودا أيضاً اشتكت من أعراض التسمّم مؤكّدة أن اللحمة التي أكلناها فاسدة. لم أقل إنّ السبب هو كثرة الشرب.

لم ننم إلا عند طلوع الضوء. استيقظت بعد ساعتين لأتفقّد رسائلي. عزمت على ملاقاة أسامة إن طلب مني. عند العاشرة كتبت أسأله ما يفعل. لم يجب إلا قبيل الظهر. قال إنّه يقضي يومه عند أهله. أمه دعت الجميع

على أكلة سمك مقلي. سيحكي معي لاحقاً حين يكون وحده. كنت أغفو لدقائق ثم أستيقظ لأتفقّد هاتفي. مرّات كنت أسمع رنينه، ثم يتّضح لي أنّ الصوت آتٍ من أحلامي. حوالي الحادية عشرة إستيقظت على رنّ متواصل على جرس الباب، وضعت الهاتف على أذني لا شعورياً، قبل أن يأتيني صوت كلودا. حزرت أنّه أحد ابنيها. كأنّها لم تقضِ ليلة الماضية من وإلى الحمام. قبل أن يدخل أمطرته بأسئلة عمّا تحضّر له من طعام. قبلاتها فقعت في أذنيّ. حماسها دفعها للمجيء إلى حيث أنام. كلّمتني كأنّني صاحية مثلها، لتخبرني إنّ إيلي هنا. لو تعلم فقط أنّ ذلك آخر ما أهتمّ به. تظاهرت بالنعاس وتثاءبت. قلت إنّني سأنام لبعض الوقت. كان صوتها سعيداً حتى وهي تشرح له دروس الفيزياء. وجدتها جالسة ملتصقة به تفسّر له خطأ المسألة لتي حلّها. ما إن رآني حتى نهض ليعانقني ويقبّلني. خجلت من برودتي فبالغت في الترحيب به كي أخفيها. نظرت إليّ بوجه مشرق، قالت إنّ لديه امتحاناً وبشارة انشغل ولم يستطع مساعدته، كان إيلي يهزّ برأسه تأكيداً على كلامها. لم يتخلّ عن حرصه في أن يحلّ الأوّل في صفّه وإلّا لما لجأ إلى كلودا. زيارة مصلحة قلت له مازحة. نظرت كلودا إليّ بغضب شديد، كأنّ كلامي سيبعده ثانية. استجاب لمزاحي وقال إنّني نسيت أيضاً الذهاب إلى المطاعم. حينها ضحكت وقالت إنّنا سنأكل في مطعم ايطالي، إيلي يحبّ باستا ألفريدو. لم أكن مستعجلة لإخبارها إنّني سأرحل وأدعها لتحتفل وحدها بمجيئه.

* * *

صباح الاثنين كنت قد لبست وحضّرت نفسي قبل السادسة والنصف. وجدت أمي قد ارتدت ثيابها، لكنّها بدلاً من الخروج، جلست على الكنبة متردّدة. وجهها كان شديد الاحمرار وكذلك عيناها. أبي كان في سيره الصباحي. رغم أنني لم أرد قول أو فعل شيء قد يؤخّر خروجي، اضطررت لسؤالها إن كان بها شيء. تردّدت ثم طلبت ألّا أخبر أبي. البارحة اتصلت بها أختي ريتا، حين سألتها عن بيير. أجابت إنّه وجد عملاً

في مدينة أخرى وانتقل إليها. كالعادة شغلها الأمر. لم تستطع النوم وهي تتخيّل أختي وحيدة في بلد غريب لا من يقف جنبها أو يواسيها. كانت تبكي وتسأل لماذا بناتها قليلات الحظّ. قلت إنّ ريتا قويّة. أغاظها جوابي «لو كانت قويّة لما اتّصلت. ليس من عادتها. لو سمعت صوتها... حبيبة قلبي. ليتني قربها» قلت إنّ الانفعال ليس جيداً لضغطها. استمرّت بالبكاء إلى ان سمعت أبي يفتح الباب. سألنا على الفور منشغل البال إن كان حصل شيء ما. في لحظات تبدّل وجهها وادّعت إنّني كنت أخبرها عن ولد مسكين. بدا غير مصدّق. منذ متى أدردش مع أمي. سألها إن أخذت أدويتها. قالت ستفعل بعد قليل. غضب وقال لو لم يسألها لذهبت إلى المدرسة دون فعل ذلك. ثم كرّر بينما يدخل لتبديل ملابسه «كأنّه ينقصني همّ إضافي. ألا يكفي ما أنا فيه؟» في العادة تردّ عليه إنّها لم توكله بمراقبتها وإنّه هو من يتعب نفسه في أمور لا تعنيه. لكنّ عقلها كان في مكان آخر. حتى حين خرجت لم تنتبه ولم تسأل عن سبب خروجي باكراً هكذا. كنت في عجلة لأجد سيارة وأكون قريبة من بيته.

لم نأت على ذكر رحلتنا الفاشلة إلى الجبل. لم أسأله بدوري لماذا كتب لي تلك الرسالة. رجوته ليقبل أن نذهب إلى المكتب. مرّة واحدة لن تثير الشكوك. أسبقه وبعد دقائق يلحق بي قلت. لن يدري البوّاب أنّني ما عدت أتابع ابنه. ذلك أفضل من أن ندور في سيارته وسط الزمامير والزحمة. سألني لماذا لا نمشي أو نجلس عند زيت وزعتر. لولا العاملة لكنّا ذهبنا إلى بيته. الجملة أعادت إلى رأسي زيارة زوجته الوشيكة. لم أجرؤ على سؤاله عن موعد قدومها. خفت أن أفسد عليّ المكوث برفقته. لكن رغم ذلك أحسست طوال لقائي به بمسافة. كان ينظر إليّ بطريقة غريبة، يهمّ بقول شيء ثمّ يمتنع. استمعت إليه يحكي عن ابنه وموهبته في تقليد الناس. أضحك الجميع في غداء البارحة. حكى عن الفيلم القديم الذي شاهده على التلفزيون، عن يومه الطويل في الجامعة كل اثنين. نسي أنني حفظت كلّ ما يتعلّق بدوامه وبأماكن تواجده على مرّ اليوم. حتى

حين يضمّني أو يقول إنّه اشتاق إليّ كنت أحسّ أنّني حزينة. أعرف تلك النظرة في عينيه، كأننا نؤدّي فصلاً من مسرحية، دون أن نُتقن دورَيْنا. الساعة والنصف مرّت دون أن أحسّ.

رأيت سابين عند باب الاذاعة قبل أن اقطع الشارع. على الفور بدأت أحضّر حججاً لأتملّص من أيّ موعد أو لقاء. كان نهاري موقّعاً حسب ساعات أسامة الفراغ. لم يكن فيه أيّ مكان لأحد آخر. بعد معانقتها لي أخبرتها إنّ البرنامج سيبدأ بعد ربع ساعة. أجابت إنّها تعرف لكنّها ستنتظرني حتى ينتهي. أرادت أن تخبرني كلّ شيء، لكنّني لا أردّ لا على الاتصالات ولا على الرسائل. سألتني إن كان هاتفي معطّلاً؟ إشارة رأسي التي لا يُفهم منها شيء أربكتها. كأنّها حدست ما يخطر ببالي. قالت إنّ لا وقت كثير لديها. ستزور صديقة لها تسكن قريباً ثم تراني. أضافت إنّها لن تعطّلني عن المواعيد. ربع ساعة فقط. ثمّ أشارت إلى المقهى الذي التقيتها فيه سابقاً وقالت إنّها ستنتظرني فيه. خلال البرنامج حصل عطل وصار تلقّي الاتصالات متعذّراً. اضطررت لأن أتكلّم لوقت طويل عن الأولاد الذين ليس لديهم مخيّلة صوريّة وكيف تظهر من خلال نتائجهم المدرسية. أعدتُ الأشياء نفسها وبدا الوقت لا ينتهي. كانت تانيا تحاول أن تسألني كي لا يكون البرنامج مملاً. لكنّ أسئلتها كانت بعيدة كلّ البعد عن موضوع البرنامج، وتساءلت إن كانت تستمع حقّاً لما أقول. على أيّة حال أتفهّم ضجرها من عمل عليها أن تظهر فيه مهتمّة حتى بأسخف السخافات.

كانت سابين تشرب شاياً وتأكل كرواسون حين جلست قبالتها. قالت على الفور إنّها جاءت تودّعني، بعد أيّام ستعود إلى الشمال. وجدت عملاً في مدرسة في طرابلس. صحيح أنّه موقّت لكنّها تفضّله على عملها في بيروت. ستحلّ مكان موظّفة في إجازة أمومة. سألتها مستغربة كيف تترك عملها الثابت في المستشفى. قالت إنّني لم أعرف بالأشياء الكثيرة التي حصلت معها مؤخّراً. بدلاً من أن يخشاها هو

في أن تفضحه صارت تحسّ أنّ من يعملون معها تبدّلوا. في البداية لم تنتبه. لكنّ الطبيبة التي تعمل معها بدأت توجّه لها ملاحظات حول لباسها، وكيف يجب أن تبدو محترفة أمام الأهل لا أن ترتدي كأنّها ذاهبة إلى ملهى. الذين كانت تعتبرهم مقرّبين منها صاروا يتجنّبونها. كانت تحسّ بهمسات بعضهم ما إن تمرّ قربهم أو تدخل الكافيتيريا. نظراتهم، سكوتهم حين تقترب. ربّما هي برانويا، لكنّها ما عادت تحتمل. يتمختر هو كالديك، فيما هي لا تلقى إلّا الاحتقار. كأنّه ضحية وأوقعته في شراكها. ليس هناك أيّ راتب يستحقّ أن تشقى هكذا من أجله. لذا ستعود عند أهلها حتى لو بقيت دون عمل. قالت إنّها تتمنّى لو نبقى على اتصال. كان واضحاً أنّها تعرف بأنّها لحظة تغادر، لن نلتقي ولن نتهاتف تماماً كما حصل حين خطبت. كانت حزينة وهي تعانقني وأنا كذلك. ثم قالت إنّها دعت أصدقاءها المقرّبين، ويفرحها أن أكون في السهرة. أجبتها أنني سأحضر. ندمت بعد قليل، لأنني أعلم أنني لن أفوّت أبداً لقائي بأسامه بعد أن ينام ابناه. ثم فكّرت أن أزورها في بداية السهرة.

السهرة التي وعدت نفسي بقضائها مع أسامة انتهت ما إن مشيت برفقته أمام بوابة الجامعة. كان المطر قويّاً والماء بلّل بنطلوني حتى الركبة، أصررت على السير عندما اقترح أن نركب سيارة. طوال الطريق كنت أتأبّط ذراعه بقوّة وألتصق به. قال إنّه ينتظر مكالمة من موني قبل الثامنة موضحاً أنّها اشتاقت لابنيها. كأنّه غير معني بالأمر. لم أسأله لماذا لم يخبرني في الصباح حين رأيته. ولم أسأله لماذا يظلّ يتفقّد هاتفه ورسائله وأنا قربه. ولداه الآن عند عمتهما، ليسا السبب.

في السيارة التي ركبتها كنت محشورة بين امرأتين عائدتين من عملهما. واحدة تأكل كعكة كلما قطعت بعضها تتطاير الزعتر فوق ثيابي. الثانية كانت تأكل كيس شيبس وتحكي مع السائق عن مشاويرها غير المجدية عند الأطباء غير الكفوئين. أرشدها إلى طبيب جيد في مستشفى

المقاصد. حاولت أن أستمع إلى أحاديثهم علّها تمنع عني السقوط في أفكاري السوداء.

لم أعلم أين أذهب. نزلت عند الكونكورد ومشيت رغم المطر إلى بيت سابين. على خلاف المرّات السابقة، لم أسمع أيّ موسيقى أو أيّ ضجيج. ربّما أكون أول من وصل. لم يكن في الشقة إلّا سابين. كانت في بيجامة رياضية. تفاجأت حين رأتني. هل نسيت دعوتها لي أم أنّها كانت تعلم أنني لن آتي؟ سألتها لأتأكّد أليست السهرة اليوم؟ أخجلها سؤالي، قالت إنّها ليست حفلة. لم تدعُ إلا أربعة من رفاقها المقرّبين، أرادت أن نأكل معاً بهدوء. لكنّهم اعتذروا، ظنّت أنّني علمت من كريستيل. حين قلت إنّني لن أمكث طويلاً. أصرّت على أن أبقى. لم أكن أحتمل البقاء مع نفسي، لذا دخلت معها المطبخ الصغير. كنت أقطع الفطر والبندورة والفليفلة ساهية. هي انتبهت إلى الدم ينفر من طرف اصبعي، الضمّادة التي لفّتها ضخمة، كأنّها إصابة حرب لا جرح بسيط. كانت سعيدة لأنّها حضّرت عجينة البيتزا بنفسها. تكلّمت طويلاً عنها، حزرت أنّها تتجنب الكلام عن نفسها. ذلك يناسبني. زعلتْ لأنّها تأخّرتْ في إخراج البيتزا من الفرن، العجينة اسودّ أسفلها. بكاؤها فاجأني. أسرعت في القول إنني أحبّها محمّصة رغم علمي أنّ السبب ليس البيتزا. كنّا جالستين على الكنبة قبالة التلفزيون. ننظر إلى كليبات الموسيقى دون مشاهدتها. قالت إنّها تحب بيروت ستفتقدها. قلت إنّ بامكانها المجيء ساعة تريد، لماذا تتحسّر وهي لا تبعد إلّا ساعة أو ساعة ونصف على الأكثر. بقيت ساكتة، لأوّل مرّة يزعجني الصمت. كان عليّ أن أقول لها شيئاً مواسياً لكنني لا أعلم إن كان هناك مواساة حقّاً. لم أكن بأفضل حال منها. سألتها ألا ترغب في أن نخرج لنشرب كأساً ما في الحمرا. تركنا الصحون فوق الطاولة قالت إنّ ذلك سيغيظ شريكتها في السكن حين تعود. لكن لماذا تهتمّ، وهي راحلة في الصباح الباكر؟ استغربت ألا تبدّل ثيابها هي المهووسة بشكلها وأناقتها. ارتدت معطفاً نصفياً فوق بيجامتها وانتعلت جزمة تصل

إلى الكاحل. كانت الأرصفة رطبة وبرك الماء كثيرة. الهواء لم يعد بارداً كما في الصباح. مررنا بالمطاعم والحانات دون أن ندخل أحدها. حين صادفت رضا وجهاد أمام الساورولا أحسست كأنّ سنوات مضت على آخر مرّة رأيتهما. لا لأنني اشتقت إليهما بل لأنني لم أعد الفتاة نفسها. هما أيضاً سلّما عليّ ببعض الخجل، ناسيين مثلي الألفة القديمة بيننا. لم يسألاني كعادتهما مرافقتهما، تبادلنا كلاماً أجوف كالذي يقوله الغرباء لبعضهم ومضى كلّ منّا في طريقه.

دخلنا أخيراً إلى حانة جديدة. بدا لنا أنّ روّادها تلاميذ مدارس. تأمّلناهم كما لو كنّا أكبر منهم بعشرات السنوات. كانوا جميعهم في قمصان صيفية. تستر القليل من أجسادهم. الصيحة التي تطلقها إحدى الفتيات كانت تجفلنا. كلما سمعت أغنية تحبّها تصرخ عالياً كأنّها وحدها. قالت سابين إنها طوال الأزمة التي عاشتها كانت تفكّر أن الله يعاقبها على ما جعلت خطيبها السابق يعيشه. أفعالنا كظلّنا مهما ظنّ الواحد أنّه قوي، يأتي اليوم ويذوق المرّ الذي سقاه لغيره. مسحت دموعها ورفعت رأسها لتقول إنّها لا تعلم كيف خلاصها وإلى متى سيستمرّ جنونها. هل طبيعي أن تحبّه بعد كل هذا الذلّ؟ طوال الوقت تتنازع في داخلها مشاعر كراهية بلا حدود له، إلى حدّ تتمنّى قتله، لكنها في لحظات أخرى، تتخيّل أنّه لو جاء إليها، لسامحته في ثانية. ربّما بعيداً عنهَ ستشفى، ألا أعتقد ذلك؟ أومأت برأسي وفكرّت أنني ما كنت لأصدّق أياً كان يزعم أنّ بامكاني نسيان أسامة. ترددت وأنا أنبّهها بأنها شربت كفاية ألا يجدر بها أن تقود في الصباح الباكر؟ أجابت ليتني أصطدم بشاحنة وأموت لأرتاح. زادت الزحمة حولنا. جلس لصقنا شابان وفتاتان إحداهما أجنبية. كنّا نسمع حديثهم مستغرقتين في تأمّل كأسنا وأصابعنا. سألنا أحد الشابين إن كنّا نعرف مكاناً لتأجير السيارات. من لكنته حزرنا أنّه لبناني الأصل ونشأ في الخارج. صوته وطريقة نطقه الكلمات شبيهة بطريقة أسامة. قال إنّهم يريدون سيارة، هذا يسهّل عليهم رؤية مناطق لبنان المشهورة. ثم سألنا

إن كانت الكسليك بعيدة. علمنا أن اثنين منهما لبنانيا الأصل فيما أحد الشابين وإحدى الفتاتين كنديان. قالوا إنهم يزورون لبنان لأوّل مرّة. اشتكوا من الغشّ الذي يتعرّضون له إن كان في المطاعم أو التاكسيات. استغربت أن تتطوّع سابين لجلب سيارتها لايصالهم إلى الكسليك. لم أكن خائفة من قيادتها لكننا لا نعرفهم. ذكّرتها بصوت منخفض برحلتها صباحاً. سألها على الفور اللبناني الأصل، هل رحلتها بعيدة. أجابت: نعم بعيدة جداً. في طريقنا كانت تتأرجّح يميناً وشمالاً حاولت جاهدة اقناعها بالعدول عن وعدها. كانت تقول ما المانع أن نسهر معهم في الكسليك. قلت إن كلتينا عاجزتان عن القيادة. رأسي يؤلمني وأجد صعوبة في إبقاء عيني مفتوحتين. لو علمت أنّها لحظة تدخل شقتها ستنسى أمرهم، لما كبّدت نفسي كلّ هذا العناء لإقناعها. وجدتني متعبة لا قوّة عندي لأسير مجدّداً إلى البيت. استعرت بيجامة من عندها. تمددت على كنبة غرفة الجلوس. ابقاء ساقيّ مطويتين منعني من الاغفاء طويلاً. كنت أفتح عيني أتأمّل الصور على التلفزيون ثم أغفو من جديد. عند الخامسة، تسحّبت على مهل لبست ثيابي وخرجت. كانت العتمة لا تزال قوية. برد الفجر أيقظني. كان صوت خطواتي يفزعني، داومت على الالتفات خلفي لأرى إن كان أحد يتبعني.

* * *

لقاءاتي بأسامة اختصرت إلى السير معه من حين لآخر في الصباح أو عند انتهاء محاضراته. لم يمرّ يوم بعدها دون أن يتخلّل كلامه وصف لها. ثم بدأ يلوم نفسه لأنه انشغل بذاته. لم ينتبه إلى اكتئابها. المكوث في البيت بعد أن التحق ابنه الصغير بالمدرسة أشعرها، برأيه، أنّها بلا قيمة. كان يكرّر إن فشل أيّ علاقة يتحمّل مسؤوليته كلا الطرفين. كان يعود متعباً يستمع إليها شارداً. عندما تكثر من الشكوى يقول لها إنّها لا تعرف نعمة ألّا تكون مضطرّة للعمل.

ومرّة بينما نحن جالسان في مونو سألته إن كان نادماً على الطلاق. قاومت طويلاً لكنني ما عدت أحتمل هذا القهر وهذا الكبت لكل ما أتمنّى قوله. كلّ ليلة كنت أعود إلى البيت مهزومة، أقضي الليل في التخطيط لمواجهته بكلّ ما يثقل قلبي. لكنّ كلّ شيء يتلاشى ساعة أراه. لماذا أخاف هكذا؟ لولا قوله إنّها آتية بعد أسبوع وستمكث في بيته لتكون قريبة من ولديها، لما سألت هذا السؤال. انتفض بغضب وبدل أن يجيبني سألني: منذ متى أتصرّف كالفتيات المراهقات؟ هل أظنّه يهدم زواجه بفورة غضب؟ بقيت صامتة. ثورته أشعرتني بما يرفض التصريح به. ربما انتبه إلى مبالغته في ردّ فعله. راح يراضيني رغم تكراري إنني لست زعلانة. عندما أراد ايصالي إلى الاذاعة ادّعيت أنني سأمرّ بصديقة لي قبل ذلك. لم يصدّقني بالطبع إذ يعلم أنني منذ أكثر من شهرين نسيت العالم وكل من أعرفهم. صار محور حياتي. حتى البيت لا أطيق العودة إليه.

كنت أعود عند كلودا. حزنها كان يناسبني. أستمع إليها تحكي عن رحلة شهر العسل. عن فرح ابنيها في السفر مع بشارة وزوجته الجديدة. تريني الصور التي أرسلاها لها من جزيرة ميكانوس اليونانية. كنت أعلم أن صورة بالذات توجعها أكثر من غيرها، هي المأخوذة لهم في أحد المطاعم. رأس ايلي ملتصق برأس زوجة أبيه بحجّة التقاط صورة جامعة لهم. الصور الأخرى هي لابنيها وحدهما فوق سفينة أو يجلسان على الشاطئ، أو على ما يشبه مصطبة مطلّة على البحر. خلفهما يبين البيت الدائري الأبيض العالي الجدران. كتب لها روبير أن البيت كان طاحونة هواء قديماً. لم أقل لها أن تتوقّف عن تعذيب نفسها. لماذا تحدّق هكذا بالصور؟

المبيت عندها أعفاني لا من أهلي فقط بل من كريستيل التي داومت على المرور من حين لآخر. سألتني أمي لماذا لا أردّ على رسائل كريستيل. «البنت تريد دعوتك إلى حفلة خطوبتها.» قبل أن تسأل مستغربة عن أهلها الذين ارتضوا تزويجها بشاب سني. كان الخبر مفاجئاً لي. لم أظنّ أنّ

علاقتها بأحمد ستؤدّي إلى الزواج. كنت أهمّ مرّات بمكالمتها لكنّني أعدل عن رأيي. لا أستطيع أن أحتمل سعادة أحد.

كلما اقترب موعد وصول زوجة أسامة قلّت لقاءاتنا بحجّة الأشياء التي عليه أن يحضّرها قبل وصولها. تقصّد إفهامي أنه اشترى كنبة تتحوّل إلى سرير وضعها في غرفة مارسيل. كأنّ المشكلة تتعلّق بأي غرفة ستنام. انشغل بشراء أشياء تحبّ أكلها، اشترى نباتات ليكون هناك حياة داخل البيت. تحضيرات أخرى لم أعرف بها إلا لاحقاً كتهيئة بيت أهله الجبلي، كانت تفضّله على بيتهم في الأشرفيه. كانوا ينزلون فيه سواء أتوا صيفاً أوشتاء من كندا. حجز في مطعمين تحبّ طعامهما لليلتين متتاليتين. حجّته أنّ على ابنيه ألا يحسّا بكآبة أمهما، يريد أن تكون زيارتها مصدر فرح واستقرار لهما. لا أدري لماذا سألته عن رأي أهله بموضوع زيارتها. حدّق بي كأنني مشتركة بما قالوه. ثم اتّهم أهله بالتخلّف لأنهم لا يفهمون أنّ الطلاق لا يعني العداوة والشجار. قال إنّ أمه لا تحبّ لا زوجته ولا أهلها. والده مسالم لا يتدخّل كما تفعل أمه وأخته. زاد تعبيره عن شوقه لي. كان يرسم خططاً لعطل نقضيها معاً بعد سفر «موني». مشاريع لم أصدّق لحظة أنها ستتحقّق. أحسست أنني لن أراه لا خلال وجودها ولا بعد رحيلها . هذا إن رحلت. عبر سكايب لم يكن حديثها مع الولدين بل معه. أكثر من مرة كان يشتكي من قلّة نومه. أن يقول إنّها كانت تبكي ظنّه كافياً لجعلي أتفهّم تعاطفه الدائم معها. ألوم نفسي ما إن أصبح وحدي. لماذا أجبن؟ لماذا لا أقول له إنّ الطلاق لا يعني العداوة بين اثنين كما لا يعني هذا القرب. ما الفرق بين الطلاق والزواج؟ انه لا ينام معها.؟ بخلاف ذلك يتشاركان كلّ الأشياء الأخرى. حتى وهي في كندا، تعرف الشاردة والواردة لا عن ابنيها فقط بل عنه. رأت تفاصيل البيت والأثاث. هي من أشارت عليه بأن يبدّل ستارة غرفة الجلوس ويختار واحدة ملونة لا بيج بلون الكنبة. أراها قصاصات من الأقمشة وهي اختارت الأجمل بينها. لا أعلم كيف لا يخطر بباله كم يجرحني حين يخبرني بهذه الأمور.

تساءلت إن كانت تعلم عنّي أيّ شيء. لكن حسب معرفتي به سيتفادى إخبارها خوفاً على إحساسها اللعين. حين أخبرني عن دهاء ابنه الصغير الذي اقترح شراء هرّة هدية لأمه، فهمت أنه رافقهما لاختيار هدايا منهما لأمهما. بما أنها لم تعيّد لا الميلاد ولا رأس السنة. قلت ساخرة «مفعول رجعي؟» لم يفهم العبارة بالعربية. شرحي لها بالفرنسية نزع التهكّم الذي تضمّنها. أيكون غير دارٍ بتأثير كلّ ذلك عليّ؟ لا ينقص سوى أن يطلب منّي أن أستقبلها معهم في المطار. لماذا تبدّلت فجأة؟ تحوّلت من أم ترسل ابنيها بعيداً عنها بحجّة الدراسة إلى أم لا أدري من أين هبط عليها هذا الحنان الفجائي.

* * *

خلال اليومين الأوّلين من وصولها، لم أكتب أيّ رسالة له. لم أتّصل. انتظرت أن يقوم هو بالخطوة الأولى. حين لم يفعل، كتبت جملة واحدة أقول فيها إنني اشتقت لرؤيته، ماذا لو لاقيته الإثنين أمام الجامعة؟ ردّ متأخّراً وقال إنّ ولديه اللذين بدآ عطلة منتصف الفصل وموني سيوافونه ليذهبوا مشياً إلى مطعم في عبد الوهاب الانكليزي. أضاف إنّه قريباً سيجد طريقة للقائي. كان بإمكاني ان أفعل كالسابق. أن ألتقيه في طريقه من وإلى الجامعة. لكنّه لم يسألني، كما كان لديّ إحساس أنّه هو الآخر ربّما في إجازة وإلا لماذا هيّأ بيت الجبل. كنت أسير ساعات بعد البرنامج. أنسى المواعيد. أتأخّر عن الاذاعة.

الطقس صحا وارتفعت الحرارة. تمنّيت أن تمطر وأن تعصف، وأن تفسد عطلتهم ومشوارهم إلى الجبل. أو أن ترافقه أمه أو أخته بحجّة التمتع بالشمس الربيعية. لو أنّ ليله يمتلئ بأصدقاء وزملاء. ولا يعود لديه لحظة فراغ واحدة ليجلس برفقتها. كنت أتخيّل أيضاً أن ألتقي بهم صدفة، وأرى أنّها ليست جميلة كما يصفها ادغار ولا مميّزة كما فهمت من أسامة.

عادت معدتي تؤلمني رغم أنّ الطبيب أكّد لي بعد الفحص الأخير أن عليّ أن أصبر بعض الوقت لتظهر نتائج العلاج. الدواء الذي آخذه الآن هو لمداواة القرحة. أجّلت الاتصال به لأستشيره بشأن تلك الأوجاع التي توقظني من عزّ نومي. أحياناً أرى في حلمي أن أحداً يلاحقني ثم يمسك بي ويلكمني بأقوى ما يستطيع في معدتي. أو يغرز مراراً وتكراراً خنجراً مسنّناً فيها. يخرجه فتنزل قطرات الدم من نصله. أفتح عيني لأواجه وجعاً يقطع أنفاسي، كأنّني كنت على حلبة ملاكمة وتلقّيت لساعات أقوى الضربات. الألم لا يستقرّ في موضع واحد يمتدّ إلى أسفل بطني وإلى صدري وأحياناً يلتفّ إلى خاصرتي. لم أعد أسأل كلودا لأنني حين أفعل أتعرّض لاستجواب. أو تشكّك بمهارة الطبيب الذي يعالجني. وفي الأيّام التالية تلاحقني بأسئلتها عن العوارض ومدّتها وأوقات ظهورها.

كانت النهارات تطول إلى ما لا نهاية، والليل أصعب، سواء كنت عند كلودا أو في بيت أهلي. داومت كلودا على سؤالي عن سبب وجومي. كنت أجيبها بعموميات، أؤلّف خلافات مع المخرجة أو المذيعة. كلامي لا ينطلي عليها، خرجنا مرّتين ليلاً في مشاوير بالسيارة. وفي المرّتين تذكّرتْ طفولة ايلي كيف كانت مشاوير السيارة هي الوسيلة الوحيدة لإنامته. كانوا يغادرون البيت في عزّ الليل لابسين بيجاماتهم. ما إن تقلع السيارة حتى يخفت بكاؤه وينام بين ذراعيها، هي أيضاً كانت تستغرق مثله في نوم عميق. كلّ ما نقوم به يعيد إليها ذكرى من طفولتهما. أوّل كلمة أوّل مرّة مشيا فيها، أوّل مرة بدأت بإطعامهما طبخاً. أشياء كثيرة كنت أسمعها شاردة. حتى اللحظات السعيدة كانت كلودا تحكي عنها بحزن. عندما سألتها عن استراليا رغبة مني في تبديل الحديث، أجابت ماذا تفعل هناك وحدها. دروس الرسم التي تحمسّت لها تركتها. لم يبق إلّا عدّة التلوين المفروشة فوق طاولة السفرة. سألتها لماذا ما عادت ترسم. قالت إنّها بلا موهبة. العمل في الصيدلية يستأثر بوقتها. خاصة بعد أن انتبهت أن الموظّفة لا تنتبه للنواقص وليست دقيقة في الطلبيات. بعض الزبائن تذمّر

من عدم تأمين أدوية وُعدوا بها في مواعيد محدّدة. الرسائل كانت تعزيتي الوحيدة، أقرأها كأنّها صدى لنفسي. كان أمراً غريباً أن يحزر حالاتي النفسيّة من صوتي عبر الاذاعة. الشخص الذي لا أعلم من هو يفهمني أكثر من أيّ شخص آخر.

كنت لا أفلت هاتفي أُبقيه في قبضتي علّ شيئاً يصلني من أسامة. عبارة بلا معنى من حين لآخر «كيف حالك؟ اشتقت لصوتك؟» أو «تعب ركض وتعب، لا أصدّق متى أضع رأسي فوق المخدّة». لم أردّ، ماذا أكتب، هل أغنّي له لينام. أو أردّ عليه منفّسة كلّ الغضب الذي يغلي في قلبي.

كيف تمضي الساعات وكيف أجد القوّة لأرسم وجهاً محايداً كلّ صباح. لا أعلم. ليلة الخميس، تمشّيت مع كلودا عند أوّل العتمة باتجاه الداون تاون. السماء كانت صافية بانت فيها بعض النجوم البعيدة. حين دخلنا إلى الأسواق فكّرنا أن نفعل كالناس. اشترينا بوشاراً وجلسنا في عتمة الصالة بانتظار ان تشغلنا صورها. رأيتها تمسح دموعها مرّات بحذر. سألتها إن كانت تفضّل أن نخرج. شدّت على يدي وقالت ألّا أهتمّ المشهد ذكّرها بأشياء. المشكلة أن الأغاني والشمس والمطر والعزف والزحمة والليل والنهار كلها تذكّرها بشيء وتبكيها. لم أكن أحسن حالاً لكنني اعتدت على هذا القناع الذي أحبّ أن أصدّق بأنّه يخفي نفسي. حين خرجنا التقيت بسوسن برفقة صديقتين لها أعرفهما بالاسم. كان سلاماً سريعاً لحسن حظي. لا صبر عندي على الأحاديث. بعدها ابتعدنا عن الشوارع المزدحمة ودخلنا إلى أخرى شبه فارغة. في الصيفي جلسنا على مقاعد خشب. أمامنا مبان قديمة. لولا النبتات على شرفاتها لبدت غير مسكونة. لو قال لي أحد قبل سنة بأنني ذات يوم سأجلس قرب كلودا وسأحسّ بها قريبة لقلت إنه مجنون. قلت لها لماذا لا نعدّ عشاء ونجلس على التراس. الفكرة أعطتنا إحساساً زائفاً بالحماس، قمنا لنمشي بخطوات سريعة بحثاً عن سوبرماركت لم تغلق بعد. كانوا ينزلون

جرّارات الحديد عندما وصلنا أمام مدخلها. تركونا نشتري أغراضنا. غير علب الدخان اشترينا قنينة فودكا وعصير بندورة وحبتي أرضي شوكي وقالب جبنة بيضاء وأوقية زيتون أخضر.

في وقت متأخّر وصلتني رسالته. رغم قصرها تركت كلودا لأقرأها وحدي مراراً. كالعادة نسيت كلّ غضبي وتبدّل مزاجي. في رأسي كنت أخطّط لما سألبسه كأننا نلتقي لأوّل مرة. لم أعلم كيف مضت الليلة. عند الخامسة جمعت أغراضي ومشيت في شوارع غافية. حتى العمال لم يبدؤوا بالكنس. التقيت برجل يحكي مع نفسه بصوت عال. يداه تتحرّكان بعنف كأنّهما تلاكمان الفضاء. منظر مؤلم أبدأ به نهاري. خفت حين علا صوته بتأنيب شخص لا أحد يراه غيره. عبرت إلى الشارع المقابل.

كان والداي مستيقظين. أمامهما ركوة من القهوة يتصاعد بخارها الساخن. استغربا دخولي وسألاني إن كنت في سهرة إلى هذا الوقت. حين علما إنني كنت عند كلودا، سألت أمي إن كان وصل أختي شيء من حضرتهما. في لحظة نسيت أنهما صغيران ولا يزالان حفيديها. أبي لم يعلّق. نظر إليّ وقال إنّ لوني يبقى شاحباً في المدّة الأخيرة، وافقته أمي لتقول إنّني صرت جلداً على عظم. كل ذلك بسبب التدخين. دخلت إلى غرفتي، جرّبت تقريباً كلّ الثياب في خزانتي. تكوّمت فوق سريري وقد انبعثت منها رائحة السجائر مخلوطة ببقايا عطر. لم يرضني شيء. لا لأنّ قياسها ما عاد يلائمني، بل لرغبتي في أن أبدو جميلة حين أراه. أخيراً اخترت قميصاً أبيض وجينزاً كحلياً وكنزة كحلية مقلمة بالأبيض عند كميها. تأمّلت نفسي ووجدت أنني أشبه تلاميذ المدارس. وضعت شالاً مورّداً. أكثرت من وضع البلاش. لم أضع شيئاً آخر لأنني أعلم كرهه العميق لفكرة الماكياج. أخذت السندويشات التي حضّرها أبي والموزة، شكرته وتهيّأت لأخرج، حين قال إنّه يريد أن يحكي معي كلمتين أجبته إنّني مستعجلة لكنّه أصرّ. بقيت أمي جالسة. من ملامحها انتبهت إلى

أنها تعلم موضوع الحديث. لم يكن يشغل رأسي في تلك الأثناء سوى خوفي في أن أتأخر على الموعد. صحيح إنّه عند الثامنة، لكنني أخشى دائماً زحمة السير صباحاً. لم أهدأ إلا حين فكّرت أنّني في أسوأ الحالات ما إن أصل إلى الأشرفية أكمل سيراً إلى ساسين. قال إنّه أراد مفاتحتي بالموضوع منذ فترة، ثم حكى أن أختيّ كلتيهما تدبّرتا أمر حياتهما جيداً، صحيح أنّ زواج كلودا فشل وريتا بلا زوج، لكنّهما تجنيان مالاً يعيلهما. أمّا أنا فمصدر قلق دائم لهما. ماذا لو حصل لهما مكروه. كيف أعيش. لا عمل ثابت ولا زوج ولا عائلة. حين لاحظ امتقاع لوني. وضع يده فوق ذراعي ورجاني ألّا أزعل. هو يقول الحقيقة ولا يقصد أن يجرحني. أضافت أمي «وفوق ذلك عنيدة ترفضين أيّ نصيحة. نحن والداك ولسنا خصميك». أسكتها أبي بنظرة. كدت أنهض وأفقد صبري لو لم يقل فوراً إنّ الموضوع هو أن أجد وقتاً مناسباً لأرافقه إلى كاتب العدل. يملك أرضاً ورثها عن أهله في الضيعة ويريد أن أوقّع عقد بيع صوري لتصبح بإسمي. عدت للجلوس. وقلت له محتجّة إنّني لن أقبل. سألني عن السبب. لماذا لي وحدي؟سألته. قال إنّه ذكر لي الأسباب. كما لا يجب أن أظنّ أنّها ذات قيمة عالية. أرض صغيرة في مكان ناء، لن تساوي الكثير. لكن هذا كل ما يملكه. لا يستطيع أن يترك لي الأسهم التي نصحته كلودا بشرائها بعد أن قبض تعويضه، لأنها تعرف بشأنها. «أتريد أن أوافق على خداعهما؟» أجاب بارتباك أن ليس عليّ فهم الموضوع على أنّه استغفال لهما. إن أصررت يسألهما رأيهما، لن تمانعا قال. لا يمكن أن تتجاوز قيمة هذا الدونم ثلاثين أو أربعين ألف دولار. سألتهما ماذا لو تزوّجت؟ لماذا يعاملانني على أنّني عانس عجوز بلا حول ولا قوّة. قالت أمي أن أخفض صوتي، هما يريدان مصلحتي، وكيف أردّ لهما الجميل؟ بالصراخ عليهما؟ أجبتها بحدّة إنّني لا أريد صدقة من أحد لست معوّقة ولديّ شهادة ولست عجوزاً مقعدة. أبي سكت أمّا أمي فاستمرّت تندب حظّها كعادتها على ابنة قليلة الوفاء. صفقت الباب خلفي بقوّة. كنت أغلي لكنني

بعد أن سرت قليلاً استغربت أن أثور هكذا. كل ما كان يشغلني أثناء كلام أبي هو الموعد واحتمال أن أتأخّر عنه.

وصلت قبل ثلاثة أرباع الساعة. جلست على الشرفة المسقوفة لأراه ساعة يصل. اضطرابي زاد بعد الثامنة. أعذار كنت أقولها لنفسي تبريراً لتأخّره. عندما صارت الساعة الثامنة والنصف قطعت الأمل بمجيئه. لماذا لم يكتب لي أو يتصل على الأقلّ. أنسي موعده معي. حين رأيته أخيراً نظر إليّ وضمّ كفيه في اشارة اعتذار. عيناي امتلأتا بالدموع. جاء من خلف الكرسي الذي أجلس عليه، وضع يديه فوق كتفيّ وقبّل رأسي. أمسك يدي ما إن جلس وتأمّل راحتي كأنّه يقرأ خطوطها. رغم علمي أنهم سيقصدون بيت الجبل. سكتّ طويلاً حين قال إنّه أراد رؤيتي قبل أن يذهبوا إلى الجبل لأسبوع. ثم وصف سعادة مارسيل وادغار بأمهما. كيف يرفضان النوم إلّا قربها. لا يتوقّفان عن إخبارها قصص المدرسة. هي أيضاً اختلفت عما كانت عليه مؤخّراً. قاطعته لأوقف كلامه عنها. قلت إنّ أسبوعاً كاملاً وقت طويل. لماذا لا يتركهم ليقضي نهاراً معي؟ حين أجابني إنّها فكرة جيدة وسيبعث لي برسالة لنتّفق على يوم محدّد. علمت أنّه لن يفعل. لم يكد يشرب فنجان القهوة بالحليب حتى نهض قائلاً إنّه وعدهم بترويقة كنافة. أجبت بلؤم «لا يجوز أن تتركهم ينتظروك طويلاً». عاد ليجلس على الكرسي ويقول لي «ما هذه اللهجة الغريبة؟ أنت أكثر من غيرك تعلمين كم عانى ادغار.» أطرقت لأتأمّل أصابعي المشبوكة. اعتذرت وقلت إنّ أرقي الليلة هو السبب. لذا حين غادر كانت جملته الأخيرة لي «نامي جيداً وارتاحي».

* * *

وقت كثير وجدته في انتظاري. رددت على رسائل سابين التي وصفت أيّامها الأولى في المدرسة، كتبت أن المدير ليس لطيفاً أبداً، لم تنسجم مع المعلمين. الرجال فيهم يحكون في السياسة، أما المعلمات

فعن تلاميذهم أو أولادهم أو طبخاتهم. حين تدخل غرفة المعلمين تحسّ أنّها غريبة وغير مرئية بالنسبة إليهم. سألتني إن تسرعت بترك عملها في بيروت؟ كتبت لها إنّ أجواء العمل المثالية غير موجودة إلّا في الخيال. عليها أن تصبر. الأشياء تتحسّن مع الوقت. في أعماقي كنت أسخر مما كتبت. لم أر إلّا أشياء تسوء والوقت يزيدها فساداً.

بعد أن وافقت على الخروج مع كريستيل وشلّة من أصدقائها. كتبت لها لأعتذر دون ذكر أيّ سبب. لم تلحّ كعادتها قديماً. غيابي الطويل مؤخّراً بات مألوفاً لديها. لكنني مساء ندمت. حاولت أن أقرأ. لم أتمكّن من التركيز. لم يكن فكري مشغولاً بتخيّل أسامة مع زوجته فقط، موضوع العمل عاد ليؤرقني. لا يمكن أن تكون التلميحات التي سمعتها بريئة أولاً من تانيا ثم من المخرجة. ربما لن ينقضي وقت قبل أن يكلّمني مدير البرامج. عالم سريع ومتبدّل هو الإعلام قالت لي المخرجة، لتشتكي من تراجع المستمعين. كي تؤكّد كلامها سألتني عن عدد الأولاد الذين أتابعهم. حين أجبتها إنهم أربعة لكنّ العدد يزداد أحياناً . ذكّرتني كيف كان العدد أكبر. ثم تكلّمت عن المعلنين الذين تحوّلوا إلى برامج أو اذاعات أخرى. كما سمعتهم يتكلّمون عن مهارة امرأة خبيرة بمعرفة الريجيم المناسب لكلّ شخص حسب فئة دمه. عن واحدة أخرى خبيرة بالتجميل. تعطي وصفات طبيعية من حواضر البيت لترطيب او شد البشرة أو خسارة السيلوليت. مهندس الصوت أخبر تانيا في حضوري إنّه جرّب الامتناع عن الغلوتين، ثم وضع يده على كتلة بطنه الدهنية وسألها ألم أنحل؟ أجابته إنّ مدام شاهين فظيعة حقّاً. هي أيضاً جرّبت الامتناع عن مشتقات الحليب وبدأت نتيجة ذلك تظهر. رغم معرفتي بأنني لم أسمع أبداً برنامجاً كهذا سألتها متى يبثّ. ارتبكت وأجابت ليس بعد، ربّما في الشهور المقبلة. صرت أبذل مجهوداً مضاعفاً لاختيار موضوع. مرّة للتنويع قلت أن أوّل متّصل هو من سيحدّد موضوع الحلقة. أوّل شخص حكى سألني أيعقل أن يقف منتظراً دوره

في الميكانيك لثماني ساعات دون أن تعاين سيارته؟ أيّ دولة هذه؟ أجابته تانيا إنّ موضوع الميكانيك مشكلة فعلاً. لكن هناك برنامجاً يُعنى بهذه المشاكل موعده ظهراً وليس في الفترة الصباحية. الاتصال الثاني امرأة سألتني هل طبيعي ألا تفقد ابنتها وقد بلغت الثامنة أسنان الحليب، أسمتني دكتورة. حينها أشارت المخرجة لي لأفتح موضوعاً. لم يكن في ذهني شيء. في لحظة خطر لي أن أسامة ربّما يسمعني الآن خاصة أنّه في اجازة، قلت إننا دائماً نتكلم عن تأثير الطلاق، لكننا اليوم سنحكي عن شعور الأولاد حين يعطيهم أهلهم اشارات غير واضحة تؤمّلهم بعودة والديهم لبعض. حماسي في تناول الموضوع لم يلق إعجاباً من أحد. كل الاتصالات جاءت غير جادة من أهل يضحكون قائلين إن أولادهم لن يعانوا من هذه المشكلة على الأقلّ، لأنّ لا كلام بينهم وبين أزواجهم السابقين. كيف لي أن أجد موضوعاً كلّ يوم. حتى أنا ضجرت من كلامي. كان هناك معلن لشركة تبيع رقائق ذرة تخلّى عن رعاية البرنامج. الآن هناك آخر لألعاب الأولاد لكنّه لن يستمرّ إلا لشهر. هذا ما سمعت المخرجة تكرّره في الأيّام الأخيرة.

أحسست أنّ جدران غرفتي تطبق عليّ، أردت أن أخرج ولا أعرف مكاناً أرغب في التواجد فيه. بقيت رسالتي الأخيرة لأسامة دون جواب. كتبت لأذكّره بنهار قضيناه معاً في جبيل. كان الطقس بارداً رغم ذلك جلسنا فوق الرمل متعانقين. نشرب النبيذ من القنينة مباشرة. كان جميلاً يومها أن أحسّ أن تلك اللحظات أبدية لن يتبعها لا عودته هو إلى بيته ولا أنا إلى إلى حياتي المسطّحة. تمنّيت أن أعلق في تلك اللحظة وفي ذلك المكان. ولا يكون إلّا صوت البحر الهادر وطعم الملح، النوارس والقوارب، والبرد. كأنّ العالم القائم خلفنا انتهى وزال. لم تكن غيرتي من زوجته فقط، بل من ولديه. أفكّر أنه لا يمكن أن يحبّني بمقدارهما. حتى حين يتكلّم عن طلابه، لا أفرح إلا حين يسخر من سطحيتهم. متى يمدح أحدهم لا يهمّ إن كان شاباً أو فتاة، تنهشني الغيرة. أريد أن أكون

الوحيدة المميّزة في عينيه. كنت أحتاج إلى أن يخبرني دائماً عن مقدار ما يحبّني. هو على عكسي، يقول ما نفع الكلمات؟ الأفعال هي التعبير عن مشاعرنا. كنت أجيبه إنّه غريب، كيف لشخص يحبّ الأدب أن يقلّل من أهميّة الكلمات؟ كنت أكرّر أيضاً العبارة الانجيلية «في البدء كانت الكلمة». صرت الآن متدينة؟ يردّ عليّ. ثم يتحجّج بعمره وبأن صغر سني يدفعني إلى الاهتمام بأشياء بلا قيمة.

كانت أمي تضع العشاء فوق الطاولة الصغيرة في غرفة الجلوس. رائحة العدس بحامض والبيض المقلي بالزيت ذكّرتني أنني لم آكل إلّا سندويش لبنة وزيتون منذ الصباح. حمل أبي صحناً من البندورة والبصل الأخضر. التفت إليّ وابتهج حين ظنّ أنّني سآكل معهم وأشاهد المسلسل التركي الذي تتابعه أمي. قلت إنّني لست جائعة وسأخرج. عبس كأنّني أسمعته أسوأ الأخبار. كرّرت أمي الدعوة متسائلة ألم أر شكلي مؤخراً؟ أسكتها أبي بلمس ذراعها وقال أنْ آكل وأخرج بعدها. لم أجب. عدت إلى غرفتي لآتي بشال خوفاً من برد الليل. خرجت دون أن أقول شيئاً.

دخلت الكنيسة وكان هناك امرأتان مسنّتان تجلسان متجاورتين. صبيان مراهقان كانا يُخليان المذبح من سلل ورد وأشياء أخرى. احتفال ما كان يجري قبل دخولي. جلست على المقعد الخشب، دون أن أدري لماذا جئت إلى هنا. الكنيسة لم أزرها منذ كنت صغيرة. كنت آتي إليها برفقة جدتي. تذكّرت المسبحة القابعة في أحد جوارير خزانتي. أهدتني إيّاها وأنا في الثامنة. ماذا قالت لي بشأنها يومها؟ لا أذكر. حين أريتها لأمي قالت جملة ساخرة لم أفهم معناها حينها «ليعطنا الله بركة صلاتها؟». المقعد يئزّ كلّما تحرّكت. نظرت إلى المسيح المصلوب إلى نقط الدم، إلى إكليل الشوك. حين رأيت الكاهن يخرج من إحدى الغرف الداخلية وينظر نحوي محدّقاً، خفضت رأسي وأغمضت عينيّ متظاهرة بالصلاة. الصلوات التي

حفّظتني إياها جدتي وأمي نسيتها. لا أذكر سوى بعضاً من «فعل الندامة» ربّما لكثرة ما كرّرتها قبل مناولتي الأولى. في أحد الإطارات فوق الدرسوار صورة لي بثوب أبيض يصل إلى الكاحلين يشبه ثوب الرهبان. الزنّار يشبه الحبل المفتول. أمامي سلّة كبيرة من الزنبق الأبيض. لا أنظر إلى العدسة أحدّق بالبلاط. لا أذكر من الاحتفال سوى خوفي من ألّا أفتح فمي جيداً للقربان المقدّس. عندما اقترب الكاهن من المرأتين تكلّم معهما، ثم اتّجه نحوي. لم أعلم كيف أخرج. تعثّرت بالسجّادة الحمراء لكنّني توازنت وهربت بأقصى سرعة ممكنة. في الخارج اصطدمت بعاملة تتهيّأ للدخول. لم ألتفت خلفي خوفاً من أن يكون الكاهن لحق بي. لاحقاً ضحكت من فكرة أن يركض خلفي ويجبرني على الاعتراف أو الصلاة.

* * *

لم أسمع لا الجرس ولا قرع أبي على باب غرفتي. بدا هو أيضاً مبغوتاً بينما يهزّني ليوقظني. قال إنّ والد رفيقتي يريد مكالمتي. «والد من؟» أجابني إنّه لم ينتبه لاسمها عليّ أن أسرع في النهوض. دون أن أغسل وجهي توجّهت إلى الصالون. كان جالساً عند طرف الكنبة، لحظة دخلت وقف ومشى باتجاهي، كأنّه ما عاد يحتمل انتظاري. انزعجت لحظة رأيته. وفكّرت أنّ عليا لا بدّ ورّطتني بأكاذيبها دون أن تخبرني، أو ربّما فعلت وأنا لم أقرأ رسائلها. كان مختلفاً عن هيئته المتعجرفة المعهودة. ناداني بابنته قبل أن يسألني عنها. أجبته إنّني لم أرها من مدّة. لا لم تخبرني بأيّ نيّة في الذهاب إلى أيّ مكان. قدّم له أبي القهوة، فيما أطلّت أمي برأسها مرتدية روبها. كانت تسترق السمع دون أن تدخل الصالون. تأمّل البخار الطالع من فنجانه، وعدّد أسماء رفاق اتّصل بهم ليسأل عنها. قال إنّه لم يرد ازعاجنا في هذا الوقت الباكر لكنني لم أرد على الرقم الذي أعطته إيّاه كريستيل. العنوان أخذه منها أيضاً. قال إنّ عليا أخبرتهم إنّها ذاهبة في عطلة آخر

الأسبوع للتزلّج. لم تأت إلى عملها يوم الاثنين ولا أحد من رفاقها يعلم شيئاً عن مشوار فاريا. الدرك، الصليب الأحمر، المستشفيات كلّهم لم يجدوها. سيّارتها التي عثرت عليها قوى الأمن تبيّن أنّها باعتها بموجب وكالة إلى شخص قال إنّه لا يعرفها. التقاها مرّتين مرّة لرؤية السيارة والثانية عند كاتب العدل.

هو خائف من أن يكون حصل لها مكروه. لا يفهم كيف تبيع سيارة جديدة إذا لم تكن في ورطة ما. كان أبي يواسيه بصدق حتى أنه شاركه بكاءه. رفع نظره متوسّلاً وقال لي إنّه لن يزعّلها في شيء ولن يفعل ما يغضبها، لذا إن كنت أعلم أيّ شيء... لم يتمكّن من أن يكمل كلامه. سأله أبي إن كانت غاضبة من أمر ما. أجاب أن ليس هناك بيت خال من المشاكل. خطر ببالي لحظتها أنّها ربّما سافرت ألم تحك عن شخصين أجنبين تعرّفت عليهما في مشوارها إلى تركيا؟ تردّدت قبل أن أقول إنّها قد تكون سافرت. حين فعلت، تبدّلت ملامح والدها وأسرع في الخروج لائماً نفسه لأنّ الفكرة لم تخطر بباله. دوّن رقم بيتنا في ذاكرة هاتفه، اعتذر مجدّداً على إزعاجنا وشكرني لأنّني طلعت بهذا الاحتمال. بعد أقلّ من ساعة اتصل ليطلب الحديث معي. سألني هل يمكن أن يكون لديها جواز آخر؟ لأنّ زوجته وجدت جواز عليا في إحدى حقائب اليد. لم أرد أن أجيبه بطريقة جافّة، تمهّلت قبل أن أقول له إنّ مسائل كهذه يعلم فيها أكثر منّي. ثم عاد ليرجوني بألّا أخفي عنه أيّ سرّ، ربّما كانت في خطر. صوته تهدّج وأخذت زوجته الهاتف منه لتسألني إن كان لدى عليا حبيب. الأسماء التي ذكرها رفاقها لم تكن صحيحة، هم إمّا مجرّد رفاق أو أحبّة قدامى. كذبتُ وادّعيتُ أنني لم ألتق بها مع أيّ حبيب. تذكّرت الشاب الذي رأيته معها حين أوصلتها. أقلقني أن يكون إخفائي لهذه المعلومة سبباً في تعريض عليا للأذى. بعدها تلقّيت عشرات الاتصالات من رفاق أيّام الجامعة ومن أشخاص فقدت أثرهم لسنين، لا أدري كيف ينتشر الخبر بهذه السرعة. كريستيل

تبرّعت لمساعدة أهل عليا. حتى أبي كان يخبرني كلّ يوم بمستجدات البحث. لم أسأله كيف يعرف بهذه التفاصيل. من معرفتي له لا أستغرب أن يكون على اتصال مع أهل عليا. ما عدت قادرة على التفكير في شيء آخر، حتى أنني كتبت لأسامه أُخبره إنّ صديقة لي اختفت. أحزنني ردّه اللامبالي بأنّها تكون قد هربت مع أحدهم. بعدها علمت أيضاً أنّ كلّ الأشياء التي تخصّها من حلى وصور وتذكارات اختفت. بحثت بين رسائلي مراراً وتكراراً. لم أجد شيئاً منها. الرقم الغريب الذي ظهر، اتصلت به ليتبيّن أنّه رقم جمعية لوهب الأعضاء. امّحت كلّ الأشياء والتجارب الجيدة التي عشتها مع عليا، ولم يبق في رأسي إلا الأشياء السيّئة التي قلتها لها أو الضيق الذي كنت أظهره مؤخّراً. كنت أحسّ أنّ لي يداً في ما حصل لها. كريستيل وحتى سابين كتبتا الشيء نفسه. قالتا إنّهما نادمتان لأنّهما لم تكونا لطيفتين معها في آخر مرة التقتا بها. لكن ككلّ الأمور تبدأ كبيرة ثم تصغر شيئاً فشيئاً. صحيح أنني لم أنس لكن عادت الأمور التي تشغلنا تحتلّ اهتمامنا الأوّل. كريستيل حدّثتني عن حفلة خطوبتها التي ستقيمها في أوتيل ألكسندر. وصفت الثوب الذي اشترته لمصمم لبناني معروف. حكت عن المدعوين والفرقة الموسيقية التي اختارتها مع أحمد. كنت أستمع بلا مبالاة، وأفكّر بالمال الذي يُرمى هباء على أمور بلا قيمة. ما حاجتها لدعوة مئة شخص. لكنّني منذ اختفاء عليا امتنعت عن الحدّة في ما أقول أو أفعل. توقّفت عن كتابة أيّ شيء لأسامة. أردت أن أرى إلى متى يدوم صمته إن لم أبادر. كتب لي لكن ليخبرني إنّ مارسيل أصيب بنزلة برد حادّة وإنّهم سيتركون الجبل ليكونوا قريبين من طبيب الأطفال. لماذا يدّعي قطع إقامتهم في الجبل وهم لم يفعلوا. أشياء كهذه كانت تزرع الشكّ في صدقية كلّ ما يكتبه أو يقوله. صرت أردّ على كلّ الاتصالات حتى لو كانت من أرقام لا أعرفها. ظللت دون أن أعي أتوقّع أن أسمع صوت عليا على الطرف الثاني، تضحك وتقول لي إنّها تحكي معي من اليابان أو إنّها اختفت

لتعاقب والدها علّه يقدّر وجودها وينتبه إلى أنّ لديه ابنة. كنت أتخيّل أحياناً كما حصل لي مع روني أنني أراها. فتيات كثيرات كنّ يشبهنها من خلف.

* * *

كنت أعلم أن أيّاماً مضت على نزوله من الجبل. رغم ذلك لا رسالة ولا أيّ كلمة. كأنني لست موجودة في العالم. بعد انتهاء الموعد عند الخامسة، تمشّيت إلى الجامعة. محاضرة أسامة تنتهي عند السادسة أو قبلها بدقائق. عند الخامسة والنصف كنت واقفة بعيداً على الرصيف المقابل. عيناي لا تحيدان لحظة عن البوّابة. اتّكأت على تصوينة عربشت عليها نبتات. زهورها تبقى متفتّحة في كلّ الفصول. تذكّرت جلوسنا هنا بانتظار رفاق لنا ليخرجوا من صفوفهم المتأخّرة. كنت أدخّن سيجارة تلو سيجارة. طعم التبغ وحموضة الزعتر الذي لم تهضمه معدتي. لمحت طالبة في صفه، تلاقت عيوننا لكنني تظاهرت بعدم معرفتها. لم أكن الفتاة المحظوظة التي يركض نحوها أستاذهم. كنت اليوم غريبة وخجلة من أن يتعرّف إليّ أحد.

رأيتهم من بعيد. ادغار كان يشدّ أمه من قميصها لتلتفت إليه فيما هي مشغولة بسماع مارسيل الصغير. خفت أن يتعرّف عليّ ادغار. أسرعت لأختفي عن أعينهم. انتظرت بعيداً. استطعت أن أميّز ذراعه تحيط كتفيها للحظة. لحظة خاطفة ستظلّ تعذبني طوال الليل. حين كتب لي أخيراً في اليوم التالي، أخبرني عن تحسّن صحّة مارسيل كأنّه همّي الأوّل. بعد الظهر كتب أنّه مشتاق إليّ لكنّ موني أجّلت موعد عودتها. بين البيت والجامعة يحسّ أن ليس لديه لحظة حتى يكتب لي. كنت أحاول أن أخفّف عن نفسي وأصدّق إلى حين أنه اشتاق إليّ فعلاً. ما الذي دفعه ليكتب لي غير ذلك؟ الفكرة تدوم لوقت قصير، ثم أعاود تذكر شكلها. رغم بعدي عنها استطعت أن أميّز أنّها قصيرة

وممتلئة الجسم، ربّما بدينة بعض الشيء. شعرها الأشقر بدا اصطناعياً. على مرّ الساعات كنت أرسمها في خيالي وأجرّدها من كل صفة جميلة. حتى تحوّلت إلى صورة مسخ عجيب. فكّرت أنّها لا بدّ مترهّلة أيضاً بعد ولادتين. لم يعد أمامها إلا خطوات لتدخل سن الشيخوخة. تخيّلها بعمر كلودا لم يساعدني، أضفت إليها الجيوب المنتفخة التي أراها في وجه أمي وارتخاء جلد الرقبة والرموش التي تساقطت معظم شعراتها. الشرايين الزرقاء في الساقين، البقع البنية في الوجه واليدين، الجفون التي بارتخائها تخفي نصف العين. كلّ ذلك لا يطمئنني. كتبت أسأله إلى متى أجّلت سفرها؟ كنت أتجنّب ذكر أسمها كالعادة. قال إنّها مددت إقامتها أسبوعين. ثم أخبرني كيف توقّف مارسيل عن تبليل فراشه، لم يعد يمص إصبعه وهو نائم، وادغار يفضّل البقاء برفقة أمه على أن يذهب إلى حفلات عيد الميلاد التي يُدعى إليها.

لم تضطرّ كلودا إلى تكرار دعوتها حتى أرافقها. كانت قد حجزت في فندق صغير لتحتفل بمجيء ابنيها في عطلة آخر الأسبوع. لكنهما تحجّجا بالتحضير للامتحانات. قالت إنها ستساعدهما، في الجبل هدوء والطقس ربيعي جميل. لكنّهما لم يوافقا. مشوار الطريق سيهدر وقتهما. حتى حين أخبرتهما أن لا داعي للذهاب إلى الجبل، زعلا وسألاها لماذا هي شديدة الألحاح هكذا. جواب أبكاها وهي تستعيده تكراراً. موافقتي الفورية فاجأتها هي أيضاً. خفت أن تدعو أهلي بما أنّها حجزت ثلاث غرف. لكنّها لم تفعل. لحظة بدأت السيّارة تبتعد عن الساحل أحسسنا بالبرد يقوى. جبال خضراء. بيوت حجر بعيدة . الثلوج لم تذب بعد عن رؤوس الجبال. ضباب تصاعد من الأودية وأخفى الطريق المتعرّجة عنّا. كانت تقود بسرعة لا تتجاوز الثلاثين. أجراس الماشية وعواء كلاب. من جهة الصنوبرات يرتفع أزيز جنادب. رائحة فول أخضر تفوح من البسطات عند جانبي الطريق. شجرات امتلأت بزهر أبيض وزهري. عندما وصلنا، لم نجد أحداً في المدخل. بعد قليل خرجت امرأة تضع

مئزراً لترحّب بنا. سألت إن كان هناك آخرون سينضمّون إلينا. أفهمتها كلودا من أنّها لا تمانع من دفع أجرة الغرف المحجوزة. ابتسمت المرأة حينها وعادت للتأهيل. وضعنا أغراضنا. ثم جلست كلودا على السرير الحديد في غرفتي. رغم البرد شرّعنا الشباك المطل على جلول من أشجار الملول والصنوبر. رائحة صمغ ورطوبة، لبسنا ثياباً أسمك. في الغرفة طاولة خشب لها جاروران وحولها كرسيان. عليها صحن فيه تفاح وموز ولوز أخضر. سمعنا خطواتها على الدرج قبل أن تقرع الأبواب. وضعت صينية عليها ابريق شاي وآخر فيه حليب. مكعبات السكر كانت ملفوفة بأغلفة ذهبية. قالت إنّ الحليب طازج فوّرته لتوّها. في خديها المتورّدين الكثير من العروق الحمراء الشبيهة بالشعيرات. مشيتها خفيفة رغم ردفيها العريضين. قالت إنّ لديهم طبخاً بيتياً كلّ يوم في حال رغبنا. لم تكن الغرف متطابقة كما ظننت لأنّ السرير في غرفة كلودا من خشب وفيها كنبة عريضة وبراد ماء. خرجنا إلى الشرفة الضيّقة المطلّة على الطريق. قبالتنا حرش آخر رأينا فيه أولاداً يقوّصون بالخردقة. كلّ شيء حولنا كان بطيئاً وأحسست بشيء من السكينة. تمشّينا بين البيوت. تأمّلنا حدائقها التي تكثر فيها زهور الأرطاسيا. اشترينا منقوشتين بالزعتر الأخضر والحرّ. جلسنا فوق سياج بيت مقفل. أكلنا ساكتتين. بعدها حكت لي كلودا إنني كنت طفلة رضيعة عندما هربوا مرّة وسكنوا هنا. تذكّرت أنّها التقت بفتاة من مدرستها علّمتها ركوب الدراجة وكانتا تذهبان إلى بلدة قريبة فيها مكتبة عامّة. لم يكن مشوارهما للقراءة. لكن حين كانتا تقولان إنّهما ذاهبتان إلى المكتبة ما كان أحد يعترض. بعدها لم تلتق تلك الفتاة. كانت تحبّ المكوث في بيتهم. تقضيان الكثير من الوقت فوق تتخيتة عالية السقف. تفرشان حصيراً على أرضها تأكلان هناك. وتتلصّصان من كوّتها على بيت الجيران. كان البيت ملكاً لجدتها. لم تكن بكامل وعيها وتظلّ تخلط بين كلودا وبين حفيدتها. قالت إنها ستريني البيت. لا تزال تحفظ تفاصيله. لو دخلت إليه بامكانها أن تريني أين كانتا تخبئان أشياءهما السرّية. قالت إنّ

آخر مرّة رأت البيت بدا مهجوراً. ربّما سافروا قالت. بما أنّ الفتاة لم تعد أبداً إلى المدرسة حتى بعد انتهاء المعارك. اشترينا قنينتي بيرة، والقليل من الفول الأخضر. ثم تمشّينا حتى آخر البلدة. لم تجد البيت. كانت حزينة وفزعة كأنّها أضاعت ابناً لها لا بيتاً. لأخفّف عنها قلت إنّهم ربّما هدموه. لكنّ قولي أزعجها أكثر. دارت على نفسها وقالت إنّها لا تذكر أياً من الأشياء التي حولها. كانت ترفع إلى فمها قنينة البيرة رغم أنه لم يتبق فيها قطرة.

كان النزل بطوابقه الثلاثة شبه فارغ، قالت كلودا أنّها في السنوات الماضية كانت تعجز عن إيجاد ولو غرفة فيه. السيّاح العرب يحجزونه بالكامل على مدار السنة. سواء في فصل الثلوج أو حين يعتدل الطقس. سألتها ما حاجتها للنزول فيه وعندها بيت في الجبل؟ قالت إنّها تحبّ هذه المنطقة أكثر وكذلك ايلي. خاصة بعد أن شارك في مخيّم كشفي في إحدى غاباتها. كنا نتنقّل بين غرفتينا نرتاح بين جولات السير التي تقودنا إلى المطارح نفسها. في الصالة الصغيرة التي جلسنا فيها لنطلب الطعام، وجدنا عجوزاً مسمّر العينين بشاشة التلفزيون يقشّر كميات هائلة من الثوم. الرائحة لا تنبعث منه فقط بل انتشرت في الأجواء. بعد قليل نهض بثقل ومدّ يده لمصافحتنا والسؤال عن حالنا. حاولت أن أبعد عني هرّة راحت تتمسّح بساقي دون أن أنجح. صرختُ حين قفزتْ فوق حضني، خوفي أضحك كلودا خاصّة وأنّني أخفيت وجهي بيدي كأنّني أحمي نفسي. حملتها من ظهرها المقوّس وأنزلتها أرضاً. لكنّها ظلّت تعود لتلتصق بساق بنطلوني.

السبانخ بلحمة طعمها معدني، لم أستطع أن آكل إلّا القليل منها. كانت صاحبة النزل تدخل لحظة إلى المطبخ وتعود لتسألنا بعد كلّ لقمة كيف وجدنا الطبخة. تحكي كيف أنّ روّاد النزل يفضّلون طعامهم على أكل المطاعم. نادت الطباخة لتعرّفنا عليها. امرأة خمسينية بدينة. في مشيتها عرج ظاهر. شرحت بالتفاصيل كيف تعدّ هذه الطبخة وقالت

إنّها معتادة على أن تُطلب منها وصفات طعامها. هي ليست كغيرها، لا تخبّئ أيّ سرّ. لم نعرف كيف نكتم ضحكنا وأيّ حجة نقول لتبرير عدم أكلنا. ما إن غابتا لحظة حتى أسرعنا في الخروج. دستُ على ذيل الهرة وكدت أوقع طاولة في طريقي. ركبنا السيارة كأننا مشاغبتان فارتان من مدرسة. الليل الذي حلّ والضباب الكثيف عجّل في عودتنا. اشترينا من دكان قناني بيرة وأكياساً من المكسّرات. دخلنا إلى النزل متسلّلتين لكننا تفاجأنا بصاحبة النزل في الطابق أمام الغرف. نظرت إلى الأكياس التي نحملها. سألت مستغربة إن كان هناك شيء في الطعام لم يعجبنا تلعثمت كلودا وادعت أننا لم نكن جائعتين حقاً لكننا أحببنا تذوق طعامهم على الأقلّ. رغم عدم اقتناعها بجوابنا ابتسمت وقالت إنّ لديهم شوربة دجاج للعشاء إن رغبنا. أسكتتني كلودا حين قلت «سّجانة أم صاحبة نزل؟» خافت أن تسمع المرأة تعليقي. لكن ما إن أغلقنا الباب حتى رحنا نقلّدها ونبالغ في الضحك. كأنّ كلّ واحدة منا تحاول أن تزيح ثقلاً عن صدرها دون أن تنجح. ربّما هي مثلي تتساءل عن سبب وجودنا هنا. عند العاشرة والربع وصلتني رسالة من أسامة. يسألني إن كنت متفرغة غداً لنلتقي عند الثامنة صباحاً. يعلم إنّه يوم عطلة وربما أفضّل النوم، لكن في حال أردت يستطيع أن ينتظرني عند السوديكو، سيكون متوقّفاً في الباحة أمام السينما. رددت في اللحظة نفسها لأؤكّد له حضوري. لاحظت كلودا قلقي وسألتني إن كان هناك شيء. أخبرتها عن اضطراري للعودة إلى بيروت. «الآن؟» سألت. لم أجب، كنت أتمنّى لو أعود في الحال إلى بيروت. لكن كيف أفعل ولا تاكسيات ولا سرفيسات هنا. كأنّها تقرأ رأسي، وعدتني أن نعود فجراً ما إن يطلع الضوء. أجبت إنّني لا أريد أن أفسد عطلتها وإقامتها هنا. ابتسمت وذكّرتني أن المشوار في الأصل كان من أجل ابنيها اللذين لا يريدانها. كنّا نشرب البيرة جالستين على الشرفة. رغم البرد مكثنا في الخارج ننظر إلى أضواء البيوت تنطفئ واحداً تلو الآخر لتغرق في

النوم. حكت لي عن شاب كانت تعرفه أيّام الجامعة. كان من هذه البلدة. مهما درست ومهما فعلت ظلّ يتفوّق عليها. تذكر كم كانت تتمنّى له المرض والتغيّب وأن تفوته المحاضرات، تتخيّل له أشنع الميتات. لم تكن معتادة أن يتفوّق عليها أحد. لكن أكثر ما يغيظها فيه أنه كان يحصل على معدّلاته العالية دون جهد. تسهر وتبقى قبل كل امتحان محرومة من النوم أمّا هو فعكسها تماماً. في بداية العام ظنته كسولاً لا مبالياً. في سنتهم الثالثة، بدأ يتغيّب. استبشرت خيراً، لكن حتى غيابه لم يؤثّر عل درجاته. حين سكتت سألتها إن كانت القصة انتهت. أجابت إنّها تحبّ أن تعتقد أنّها انتهت هكذا. لكن في آخر الفصل الثاني غاب حتى عن الامتحانات. لم تلبث أن علمت هي ورفاقها أنه أجرى عملية في الرأس، لاستئصال ورم قيل لهم إنه غير خبيث. حين مات بعد شهرين ظلّت تفكّر أن ذلك حصل بسببها. حتى أنها صارت لا تفوّت يوماً دون صلاة. كانت تتضرّع من أعماق قلبها كي يسامحها الله. صارت مهووسة به. وأحسّت لفترة طويلة أنّها مغرومة بشاب مات قبل أن تكتشف. لو لم تتعرّف على بشارة لما خرجت حينها مما غرقت فيه. سألتها وأنا أتذكّر حكاية رفيقتها التي قضت بقذيفة، لماذا تحكي لي دائماً عن رفيقات أو رفاق إما ماتوا أو سافروا؟ رفعت كتفيها لتقول إنّها لا تعرف أو إنها لا تبالي. ربّما أحسّت بالذنب. او ظنّت أنها وعدتني بمشوار لطيف تحوّل إلى قصص محزنة. قالت إنها قبل أن تعرف بشارة كانت مختلفة. لم تكن بهذه الجدية. منظرها الرصين كان يغشّ الجميع بما في ذلك أهلي. ما إن دخلت الجامعة حتى تعرّفت على شاب عكسها تماماً. لا العلامات ولا الرسوب ولا التغيّب عن المحاضرات يوتّره. بدأ الأمر بينهما حين راح يأخذ منها دفاترها وأوراقها لتصويرها. كان وحيد أهله. لم يختر أختصاصه بل والده من فعل، أراد له أن يستلم الصيدلية من بعده. حين يدخل الصف كانت تعليقاته تضحك الجميع. لا الانذارات ولا مقابلة العميد جعلته يتوقّف. رغم أنه يستعير محاضراتها، كان لا يكفّ عن

السخرية من طريقة لباسها ومن رفاقها وجدّيتها. كانت تعلم أنّه نقيضها لكنّها انجذبت إليه. شيئاً فشيئاً صارت تبقى برفقته في الكافيتيريا. تقبل أن تنضم ألى شلّته حين يدعوها إلى مرافقتهم. لا ترفض المشاركة في ما يشربونه أو يدخّنونه. مرّة بينما تفرغ أمي جيوب القمصان قبل وضعها في الغسالة وجدت قطعة حشيشة. وحين عادت سألت كلودا عنها. حزرت كلودا من ملامح أمي أنّها لم تر في حياتها لا حشيشة ولا غيرها. زعمت أنّها مادة كانوا يعملون عليها في المختبر وهي مفيدة لآلام الرأس. ندمت لحظة تفوّهت بهذه المعلومة. تعلم معاناة أمي مع أدوية الميغرين غير النافعة. سألتها كيف تؤخذ وإن كانت مادة كيمائية أو طبيعية. خلطته بالشاي وجعلت أمي تتنشّق بخاره. لم تقدّر أبداً أن أمي ستخرج عن طبيعتها. خافت كلودا أن تبقى في ضحكها إلى حين عودة أبي. ليس بسيط العقل سيحزر ماذا أعطت أمي. المشكلة أنّها فجأة اكتسبت جرأة، وقررت أن تتّصل بجارتنا المطلّقة فوقنا لتقول لها رأيها بقلّة حيائها وإنّ تحويلها بيتها إلى ماخور كل ليلة لن تسكت عنه بعد اليوم. لديها بنات صبايا. لا تريد أن يلتقين بواحد من عشاقها. مثل هذه الأمور كانت تقال همساً في البناية ولا أحد يفكر بمواجهتها لأنّ شخصاً له رتبته كان يرهب الجميع بمرافقيه المسلحين. حاولت كلودا ثنيها. ما أنقذها أن المرأة لم تكن في بيتها كما إنّ ألم رأس أمي زاد بدلاً من أن يخفّ. لا أدري إن أختلقت القصة، لكنني كنت ممتنة لها. موعد غدّ نفض عني التعب وهذا الأحساس الدائم بأنني أسقط في ثقب أسود.

انتقلنا من الشرفة إلى الداخل لأنّ البرد لم يعد محمولاً. استلقينا على سرير واحد. نحدّق بالسقف وندخّن. كانت تغفو ثم تفتح عينيها. أنا خفت أن أنام ويفوتني أن أنهض في الوقت المناسب.

* * *

السيارات كانت قليلة صباحاً. وصلنا إلى بيروت عند السادسة والنصف. أوّل كلمة قالتها أمي وأنا أفتح الباب «تركت أختك وحدها! لماذا تقبلين الدعوة من الأساس إذا كنت ستدعينها؟ أجبت بعصبية من أنّنا عدنا معاً. تدخّل أبي ليهدّئ الجوّ وسأل عن الطقس في الجبل. لم أردّ ودخلت غرفتي دون أن أخفي غضبي. لا وقت لديّ لإضاعته. حين خرجت ثانية لم ألتفت نحوهما. كانا يستمعان إلى نشرة أخبار السابعة. رائحة الهال والقهوة اختلطت بسندويشات اللبنة والخيار أمامهما. لم أجب أبي وهو يسألني إن كنت أريد سندويشاً. حين تأخّر المصعد نزلت ركضاً على الأدراج. وصلت أمام السوديكو عند السابعة والثلث. جلست قرب الحوض عند مدخل السنتر. قلبي يقفز كلّما اقتربت الثامنة. قبلها بقليل رأيت سيارته. مشيت نحوها كالمنوّمة. نظرت إليه يبتسم لي ونسيت كلّ شيء. وضعت رأسي فوق صدره. ربّت رأسي كأنّني كلب صغير. وقال إنّه افتقدني كثيراً. لم أسأله إلى أين نحن ذاهبان. بالنسبة إليّ ما يهمّ هو أنّه هنا قربي. كنت أنظر إلى شعره الذي طال. اعتدت عليه محلوقاً تماماً. نظّارات الشمس أخفت عنّي عينيه. كنت متلهّفة لتأمّل كلّ نقطة فيه. اشتقت إلى رائحة البن التي لا تفارق أنفاسه. إلى صوته المبحوح إلى ابتسامته وتجاعيد عينيه، إلى دهشته أمام كل ما أقوله. إلى يده التي يمرّرها فوق جبهتي وعينيّ. لم أعلم أنّ مشوارنا سينتهي بغمضة عين. حين قال إنّهم ذاهبون إلى عجلتون عند قريب لقضاء اليوم. لم أتمالك نفسي وسألته بأيّ صفة يصطحبها. أجاب بارتباك هذه المرّة أنّ الجميع يعرف أنها زوجته السابقة وأم ابنيه. جملته كانت كطعنة سكين. ابتلعت دموعي وسكت. حاول أن يبدّل الوجوم بيننا. سألني عمّا أقرأه. كلما قال كلمة ليصلح ما أفسده زادت الأمور سوءاً. لم أردّ على أسئلته. ارتفعت نبرة صوته وسألني إن كنت أعتقد أنّه سعيد في أن يعيش هكذا؟ أشياء كثيرة فكّرت بقولها لكنني كعادتي احتفظت فيها مدفونة. قبل أن يرحل حاول مجدّداً أن يلطّف الجوّ. قال إنه يخطّط للسفر معي إلى تركيا بضعة

أيّام. سألني عن رأيي. لم أجب. قال «الآن تريدين أن تفسدي وقتنا القليل بالحزن كالصغار؟ لا أصدّق متى أراك وحين أفعل، تعاملينني هكذا؟» بقيت ساكتة. دموعي بلّلت السيجارة التي أدخّنها. كنت أحدّق بأصابعي المرتجفة. اختنق صوتي ولم أستطع أن أقول أيّ شيء. حين قال إنّ عليه أن يرحل لأنّهم ينتظرونه منذ وقت، رنّ هاتفه. علمت أنّها هي. كلّمها بالفرنسية واستفسر منها عن الحلوى التي تريد أن يشتريها ليأخذوها معهم. كان يشيح برأسه إلى الناحية الأخرى كأنّه يخفي عنّي حديثهما. تمنّيت أن أفتح باب السيارة وأخرج منها على الفور. حين توقّف ثانية عند السوديكو قال لي إنّه متأسّف فعلاً. رغب في أن يفرحني. لكنني صعبة الارضاء في هذه الأيّام. أردف بينما أخرج مكتفية برفع يدي لتوديعه إنّه سيكتب لي.

في الأيّام التالية عدت إلى الخروج ليلاً مع رفاقي. لم أملك طريقة أخرى لاحتمال الوقت والانتظار. تعرّفت على زملاء كريستيل في البنك. رغم قصر معرفتها بهم، بدت أكثر قرباً منهم. كنت أكتفي بالجلوس وبالشرب غير مبالية بألم معدتي. ادخل مرّات إلى الحمام لأتقيّأ كلّ ما أكلته وشربته، في هذه السهرات كنت أتذكّر لا عليا فقط بل عشرات من الوجوه. غابت عن بالي أسماء بعضهم. يصعب أن يبقى في رأسي اسم شخص رأيته مرّة في سهرة. حاولت كريستيل تقريبي من شاب في أوائل الثلاثين. يرتدي بدلة وكرافات كأنّه ذاهب إلى العمل. الأشياء التي قالتها عنه لم أسمعها. عندما جلس قربي، لم أجب عن أسئلته. أشرت إلى أذني لأفهمه أنني لا أسمع بسبب صخب الأغاني. حين أمسك بيدي لجرّي إلى الرقص معه. نزعت يدي بعنف لم أنتبه له. جفل وانصرف عني. عندما رأيته يهمس لكريستيل ناظراً باتجاهي بطرف عينه فهمت ما يقوله. لم أكترث. ليس إلا غريباً لا قيمة لرأيه بالنسبة إليّ. ثم امتنعت كريستيل عن إشراكي في سهراتهم. حين أسألها عما ستفعل ليلاً تدّعي أنها ستنام باكراً. أو ستسهر عند أهل

أحمد. حجج لا أصدّق أيّة واحدة منها. كأنني أتعرّض للخيانة من كل الناس. بادرت للكلام مع سوسن. رافقتها إلى افتتاح معرض رسم. تحمّلت حماسها للوحات لم أحبّ لا رسومها ولا ألوانها. كأنّني رأيت ما يشبهها مراراً. رغم ولعها بالفن، لم يكن لديها أي حسّ نقدي. اعتدت كي لا أجرحها أن أتبنّى رأيها. ماذا ينفع في الأخير أن أقول لها إنّني قدّرت أم لم أقدّر ما رأيته. في يوم آخر رافقتها لحضور فيلم، ثم انضمّ الينا صديقها وسهرنا في الحمرا. كنت أشعر بثقل وجودي بينهما، لست محدّثة لبقة ولا أنا في مزاج لأتبادل الكلام معه. اكتفيت بالقول إنّ سوسن أخبرتني الكثير عنه وسألته مجاملة عن نوعية الصور التي يلتقطها وأشياء تتعلّق بالمعرض الذي سيشارك فيه في معهد غوته الألماني. في أماسٍ أخرى كنت أسير طويلاً متجوّلة في الشوارع القريبة حتى ينتهي بي الأمر بالنوم عند كلودا. استمرّ الأمر حتى عودة ابنيها للعيش معها. رغم أنني فرحت لسعادتها أحسست أنني وحيدة أكثر من أيّ وقت مضى. سألتها كيف وافق بشارة؟ قالت إنّه مشغول الآن عنهما بأمور تهمّه أكثر. لاحقاً علمت أن ديونه كثيرة. الأثاث الموصى عليه والسفر وميل زوجته إلى الماركات العالمية والتحف والخروج للسهر. كلها كلّفته مدّخراته. بالنسبة إلى روبير وايلي لا تعرف بالضبط ماذا حصل ليقرّرا العودة. تكره أن تستدرجهما لتعلم. قالت إن أرادا الكلام تستمع إليهما دون تعليق. إن لم يريدا ستحترم رغبتهما.

صرت أكتب ايميلات طويلة لأسامة. أحياناً لا يردّ عليها لكن رغم ذلك كنت بحاجة لأن أكلّمه حتى لو كان كلامي وصفاً سريعاً ليومي أوللتعبير عن حاجتي إليه وعن حبّي. ما عدت أسأله عن موعد لنلتقي. لأنه حين يذكر ضيق وقته معدّداً انشغالاته، أزعل طويلاً. كنت أمرّر في حديثي الاذاعي إشارات له كأنّه يسمعني. أحكي معه في رأسي طوال يومي.

هذه المرّة عندما أراد مدير البرامج مكالمتي علمت مسبقاً أنّ عملي معهم على مشارف الانتهاء. قال إنّ تجربتي كانت مميّزة وإلا لما طالت. التنويع هو ما يجذب المستمعين. ليس بإمكانهم التغاضي عن هذه الحقيقة البديهية. لديهم دورة برامج جديدة ستبدأ في مطلع الأسبوع القادم. ثم قال إنّ لديّ أولاداً ثابتين. بامكاني أن أستمرّ في متابعتهم دون أن تأخذ الاذاعة أيّ نسبة. طلب مني أن أخلي المكتب من أغراضي قبل نهاية الأسبوع. هم بحاجة لتجديد الديكور فيه بما يتناسب مع وجهة استخدامه. ثم وقف وصافحني متمنّياً لي التوفيق. كنت أتحضّر للأمر لكن رغم ذلك، عاد خوفي من أن أعجز عن تأمين مصروفي. صوت الفرامل أيقظني من شرودي وأنا أقطع الشارع. أخافني أكثر من الصدمة. الضربة عند الفخذ لم أحسّ بها إلّا حين وصلت إلى أوتيل ديو. ظلّ السائق يسألني بلهجة توبيخ كيف أعبر هكذا دون انتباه. واحد غيره كان ربّما تركني وأكمل سيره. شكر ربّه أنّه لم يكن مسرعاً وأنّ لديه تأميناً. لم تظهر في الصورة أيّة كسور. قال الطبيب إنّ الرضوض ستؤلمني قليلاً. كتب لي وصفة عبارة عن مسكن ومضادّ للالتهاب. حين خرجت كان السائق قد رحل. حاولت أن أتذكّر شكله لكنني لم أستطع. ثم تذكّرت أنّني لم أنظر إليه. حين وصلت أخيراً أمام بوّابة المستشفى كان الوخز في ساقي لا يُحتمل. كأنّه يمتدّ من فخذي إلى داخل جمجمتي. اضطررت إلى دفع أجرة ثلاثة ركاب كي يقبل سائق أخيراً بايصالي.

في السيارة عاد موضوع العمل ليشغلني. لم أستطع أن أستقرّ على رأي بخصوص الأولاد الذين أتابعهم. أين أستقبلهم؟ في بيتنا؟ ربّما الزحمة ستدفع أهلهم إلى الاستغناء عني. لا أحد مستعدّ لتحمّل عجقة الحمرا وضجيجها وزماميرها. كما أنّ متابعتهم في البيت ستظهرني غير احترافية، سيفضّلون عليّ اخصائياً يملك مكتبه ومكانه على الأقلّ. لا أستطيع أن أطلب من كلودا أن تسمح لي باستعمال إحدى غرف بيتها. لكن تظلّ مشكلة أن البيت ليس مكتباً. أعليّ أن أعود إلى الدروس

الخصوصية؟ أنا التي ظننت أنني تحرّرت منها إلى الأبد، وتخلّصت من اضطراري للتنقّل بين البيوت الغريبة لأناس لا يُطاقون.

حين دخلت الصيدلية رفعت كلودا رأسها عن الوصفة التي تقرأها. في لحظة تبدّلت ملامح وجهها وسألتني عمّا حصل. التفت الزبائن المصطفين نحوي. اختفيت في الغرفة الداخلية. جلست على كنبة بمقعدين. لم يكن هناك أيّ وضعية مريحة. أجّلت الدخول إلى الحمام لشكّي في قدرتي على الوصول إليه. كنت أشعر ببرد قوي وأرتجف مع أنّ الطقس دافئ. لم أخبرها في البداية إنّ سيارة صدمتني لكنّها لم تصدّق أنني زلقت وارتطمت بقائمة طاولة. الموظّفة أدخلت بعد قليل طعاماً طلبته كلودا من أجلي. كنت مقطوعة الشهيّة لا أفكّر سوى بتناول الأدوية. لكنّها أصرّت. راحت تقطع سندويش الدجاج إلى لقم كأنّني طفلة ثمّ تطعمني إيّاها. لم أنتبه إلى دموعي تكرّ على وجهي وتختلط بلقم الخبز. أرجعت كلودا خصل الشعر عن وجهي وقالت «سترين بعد نصف ساعة سيخفّ وجعك كثيراً». لم أقل لها إنّ وجع ساقي ليس سبب بكائي. وضعت كرسيّاً قبالة المقعد. ساعدتني في أن أمدّ ساقي فوقه. غفوت بعدها دون أن أنتبه. حين فتحت عينيّ كانت الغرفة معتمة. كنت مغمورة بجاكيت وكنزة صوف. كان الوجع أخفّ لكنّني رغم ذلك وجدت صعوبة في أن أقف أو أمشي إلى الحمام دون الاستناد إلى الجدران والكراسي.

* * *

أردت أن أخبر أسامه عمّا حصل معي في الأيّام الفائتة. أجّلت الأمر لظنّي أنّ موعد سفر زوجته اقترب. اكتفيت فقط بالكتابة عن الصعوبة في أن أجد متعة في أيّ من الأشياء التي أقوم بها في غيابه. أحياناً كانت ردوده غريبة كأنّ أباً لي كتبها. لا أقول له إنّني لو أردت هكذا نصائح للجأت لأبي. ما أنتظر أن أقرأه هو أن يعبّر عن عذابه في عدم رؤيتي. ما كنت

مقتنعة بأنّه غير قادر حقّاً من إيجاد وقت لنلتقي. لكنّني لا أكتب له ذلك، أخاف أن يزعل ويجافيني لأيّام.

في أيّامي الأخيرة في الاذاعة كنت أعيد معي كلّ يوم بعضاً من أغراضي القليلة. ما عدت أحضّر كالسابق موضوعات معيّنة. أنتظر أسئلة المستمعين التي كنت أردّ عليها باختصار ودون أيّ حماسة. صوتي ناعس لا بسبب المسكّنات فقط بل لأنني أعلم أنّ لا شيء ممّا أفعله قد يبدّل واقع انتهاء عملي معهم. رسائل صديقي المجهول عبّرت أيضاً عن تعب وحنين لرؤيتي. قال إنّه لا يعلم لماذا لا يتخيّلني إلا في هيئة واحدة، واقفة أمام مبنى الاذاعة، الهواء يطيّر شعري في كلّ اتجاه. حول رقبتي شال أصفر عليه زهور زرقاء وبيضاء. لا أبدو كمن ينتظر سيّارة، بل كمن هو شارد عن كلّ ما حوله. حاولت أن أتذكّر إن كان لديّ شال كهذا. فكّرت أنّها رؤيا من خياله، إلى أن تذكّرت أنّ أمي أعارتني إياه مرّة. تملكه منذ أربعين سنة. ظلّت تنبّهني ألا أفسده. من حرير يدويّ الصنع زهوره مطرّزة بخيطان نافرة لم تفقدها السنين لمعانها. أو يكتب أنّه يتخيّلني في مكان رغم يقينه أنّني لم أزره ربّما في حياتي. مكان يحبّه هو. قدّرت أنّه بيته. أو مكان رسمه خياله.

كلّ من أعمل معهم بدأوا بتوديعي باكراً. تانيا أظهرت ودّاً مبالغاً فيه، تمنّت عليّ زيارتها في الاذاعة من حين لآخر. المخرجة وعدتني ألّا يكون ذلك آخر تعاوننا وأنّها ستزكّيني وتفضّلني على أيّ إسم يُطرح مستقبلاً. كلودا التي سألتها عن إمكانيّة استخدامي لبيتها رحبّت دون أيّ تحفّظ. ساعدتني لتحويل غرفة صغيرة ملاصقة للمطبخ إلى مكتب. ارتحت بعض الشيء لهذا التدبير. نقلت منها خزانة المونة. وضعنا طاولة مستديرة وكراسي. الرفوف التي كانت لمساحيق الغسيل والتنظيف ملأتها بكتب وقصص للأولاد مكتوبة ومسموعة. اهتمّ روبير وايلي أيضاً، ربّما بسبب الفضول في رؤية أولاد غرباء يدخلون بيتهم. لأوّل مرة يطرحان عليّ أسئلة بخصوص عملي. المهمّة الأصعب بالنسبة

إليّ كانت في إبلاغ أهل الأولاد عن عنواني الجديد. ما إن فعلت حتى تقلّص عددهم إلى ثلاثة فقط. لم أخبر أهلي بشيء. قلت إنّهما سيعلمان عندما يغيب صوتي عن الاذاعة. خفت أن يفتحا معي مجدّداً موضوع مستقبلي وقلقهما عليّ.

في يومي الأخير في الاذاعة سألت مستمعة عن رأيي بالكاميرات داخل الحضانات. لم أكن قد سمعت سابقاً بشيء كهذا. الفكرة مخيفة بالنسبة إليّ أن يسيطر الأهل على حياة أولادهم لحظة بلحظة. حتى لو كانوا أطفالاً. عندما قلت إنّ الأمر غير صحيّ. تلقّيت ردوداً حادّة. امرأة ذكّرتني بحادثة موت رضيعة في حضانة كأنني المسؤولة عنها. لم أقل إنّني لم أسمع أو أقرأ الخبر. لذا لم أعلّق. أخرى تساءلت كيف يضرّ باستقلالية الولد. لن يعرف بالأمر، قلت إنّ تعليقات الأم لن تغفل سؤاله عمّا رأته، كسبب بكائه أو عدم أكله طعامه أو أشياء كهذه. الموضوع أعاد البرنامج إلى سابق عهده. انتهى دون الردّ على كلّ المكالمات. قالت المخرجة إنّها خاتمة ممتازة لبرنامج استمرّ أكثر من سنة.

كنت أمشي بعرج ظاهر أجد صعوبة في ثني ركبتي. قالت كلودا إنّ عليّ تصوير الركبة. ربّما هي مصابة، لا تفهم لماذا أهملوا في المستشفى أخذ صورة لها. أمي أكثر من كان يطاردني بأسئلة عن إصابتي. السبب أنني أذعنت لإصرارها وأريتها فخذي. أرعبها اللون الممتدّ من خاصرتي إلى حدود الركبة. بكت ولامتني قائلة إنّني كدت أتسبّب بمصيبة لنفسي ولهم.

اقتراب موعد سفر زوجة أسامة حسّن معنوياتي. انتهى الكابوس أخيراً. صرت أتحمّل الأشياء. لذلك لم أتهرّب من الحفلة البسيطة كما وصفتها تانيا لتوديعي. انتظرت حلولها عند الواحدة ظهراً وأنا جالسة في المقهى. كان هناك أربعة فقط وقد أحضروا كرواسون وعصيراً ومناقيش صغيرة والقليل من قطع الحلوى. اكتفى مدير البرامج بالمرور لدقائق، أكل قطعة حلوى ثم صافحني وتمنّى لي الحظّ. الهدية التي قدّموها لي

رجّحت أنّها من أحد المُعْلنين، ساعة فيها أحجار لامعة. كنت حزينة وأنا أخرج من البوّابة التي أعلم أنني لن أدخلها ثانية. هناك أمكنة لا نعلم أنّها مهمّة بالنسبة إلينا إلا حين نغادرها. تذكّرت بكاءنا في آخر يوم لنا في المدرسة. طوال دراستنا لم نفعل سوى شتم معلميها ونظّارها وإدارتها. كثيرون منّا داوموا في سنتهم الجامعية الأولى على المرور بمدرستهم والالتقاء بأساتذة فيها حتى اعتادوا فكرة افتراقهم عنها.

لم أكتب لأسامة كعادتي. أردت أن أسمع صوته. خاصّة وأنّني أعلم أنّه الآن في طريقه إلى الجامعة. رنّ هاتفه طويلاً قبل أن أحوّل إلى بريده الصوتي. لكنّني ظللت أحاول حتى ردّ. فعل ذلك بتحفّظ سألته إن كان برفقة أحد، أجابني مستخدماً صيغة المذكّر إنّه الآن مشغول وسيحكي معي لاحقاً. انتظرت حتى حلول الليل. لم أفكّر سوى بشيء واحد، لماذا حكى معي على أنني ذكر، أكيد كانت برفقته. عاودت الاتصال به. ردّ من الرنّة الأولى. قال إنّه كان يفكّر بالحكي معي لحظة اتّصلت به. نسيت زعلي وتهيّأت لأسأله أن نلتقي، لديّ أشياء أحبّ مناقشتها معه. حذره في انتقاء كلماته لم يغب عني. سارعت للقول إنّني انتظرت وصبرت طويلاً لا مانع من أن أنتظر يومين إضافيين، لكن لحظة تغادر، عليه أن يراني حتى لو كان ذلك بعد منتصف الليل. سكت، أحسست أنّ سكوته دام شهراً لا ثواني. قال إنّها أجّلت سفرها مرّة أخرى، أمها ستزور لبنان و... قاطعته وأنا أمنع نفسي من أن ترتفع نبرتي «أنت مسؤول عن زيارة أمها أيضاً وهل ستنزل هي الأخرى بضيافتك؟». ضحك كأنني قلت مزحة أجاب إنّ لديها أخوتها وستنزل عندهم. «لماذا لا تبقى الست موني عند خالتها أو خالها هي الأخرى؟» كنت أتوقّع جواباً قاسياً كعادته حين آتي على سيرتها. لكنّه قال إنّه كان يفكّر بألّا يربط نفسه هكذا وبوسعه أن يتفرّغ يوم غد لساعة. أجبت ساخرة «ما كلّ هذا الكرم! ساعة كاملة لي وحدي؟» ردّ إنّني صرت قليلة العقل مؤخّراً هو الذي كان يظنّني مختلفة. سألته بعصبية وبصوت لم أنتبه

إلى أنّه مرتفع هل أبالغ حقّاً عندما أرغب في لقاء شخص أحبّه؟ أجاب إنّ هناك ظروفاً قاهرة أحياناً وعليّ أن أتفهّم. «أتفهّم أن تلازمها؟ هل هي زوجة أم طليقة؟» قال إنّني الآن لست بكامل وعيي لكن حين أهدأ سأعلم بأنّني مخطئة. أغلق الخطّ دون توديعي. أطلّ أبي برأسه ليسألني إن كان هناك شيء. لما رأى وجهي، قال إنّه سمعني أصرخ على أحدهم. لم أجبه. كان كلّ شيء في جسمي يرتجف. خفت أن أصرخ بأبي. لكنّه ابتعد من تلقاء نفسه بعد أن أعاد إغلاق الباب. ابتلعت قرصين من المسكّنات، آملة بأن أنام وأغيب عن الأحساس. مفعول الدواء ما عاد يعطي النتيجة الأولى. اعتاد جسمي عليه. كأنّ الغرفة تضيق أكثر مع مرور الوقت. انتعلت حذائي وأردت أن أخرج لا أدري إلى أين. العالم انتهى. ما عدت أحسّ أنّ لي فيه مكاناً أو أحداً. رغم ألمي أثناء السير تمشّيت طويلاً. أسحب قدمي خلفي كأنّهما من خشب. أحاول مرّات إشعال سيجارتي لكنّ الهواء كان يطفئ القدّاحة. وقفت في مدخل بناية، ومججت مجّة طويلة. شارع الجامعة الأميريكية مزدحم كأنّنا في عزّ النهار. أهرب منه بسرعة باتجاه الحمرا. كنت عازمة على الجلوس في ستارباكس، لكنّني بدّلت رأيي وأنا أرى كل هؤلاء الروّاد. كانت ركبتي تخزّني فأطلق صيحة ألم دون انتباه.

* * *

كان غريباً أن أتّصل بسابين لا لأنّ الوقت متأخّر بل لأن ليس لديّ أيّ كلام أقوله. ردّت فيما تتثاءب، سألتني إن كان الأمر يتعلّق بعليا. أجبت مستغربة: «عليا». كأنّني نسيت من تكون. اعتذرت منها وقلت إنّني لم أنتبه إلى الساعة أردت فقط سماع أخبارها. لم أقل إنّني أردت أن أسمع أيّ أحد شرط أن يكون تعيساً مثلي. حكت لي عن صعوبة احتمالها عملها، عن قلّة الصحبة. تفكّر بأن تترك عملها قبل انتهاء السنة. انتظرت أن تحكي عنه. كأنّ كلامها عن ألمها سيعزّيني. لكنّها لم تفعل، حكت عن المسؤوليات الكثيرة التي يوكلونها بها مخالفين اتفاقهم معها. سألتني

«أتتخيّلينني أعلّم الرياضيّات؟» كان سيلاً من قصص لا ينتهي. فكّرت أنّني جلبت ذلك لنفسي. وضعت الهاتف في راحتي. كانت تكرّر اسمي وتسأل إن كنت أسمعها.

كانت الساعة تقارب منتصف الليل، حين أحسست بكلب شارد يتبعني. عبرت إلى الجهة الثانية ففعل مثلي. توقّفت أمام الاشارة. توقّف مثبّتاً نظرته الكابية باتجاهي. ثم ما عدت خائفة. كان كرفيق لي في الطريق. وجدت في حقيبتي حبّة شوكولا أزلت غلافها ورميتها باتجاهه. لم أكن أعلم إن كان سيأكلها. لكنّه فعل. ورفع عينيه مجدّداً نحوي، خفت أن يقترب أكثر. لون جلده الذي يختلط بياضه ببقع حمراء كالجرب، هو أكثر ما أخافني. أسرعت في إقفال بوابة الحديد ما إن دخلت البناية. رأيته لا يزال ينظر إليّ وأنا أركب المصعد. هل سيكون هناك غداً؟ كنت أفتح باب البيت بحذر كأنّه يتبعني. لذا صرخت لحظة سمعت صوت أبي.

تناولت قرصين آخرين. حاولت النوم، تقلّبت دون أن يأتي النعاس. أضأت اللمبة وجلست أكتب له. «لم أرد أن تزعل منّي. كلّ ما أردته أن أراك. كلّ شيء في غيابك ثقيل. أكره الصباح وكلّ أوقات النهار والليل. ماذ أفعل بأيّامي إن لم تكن فيها. لماذا صار لقائي بك مستحيلاً، حتى أوقاتنا المسروقة تدور عنها. كيف يصعب عليك أن تتفهّمني؟ لماذا تتّهمني بقلّة العقل؟ أتعلم كم تجرحني هذه الكلمات. هل العقل أن أتقبّل قضاءك معها كلّ لحظات يومك؟» محوت الايميل ووجدت الكلمات الفرنسية غريبة. تركت منه عبارة واحدة «أعتذر لأنّني زعلتك. أرجو أن تجد وقتاً لتراني...» رغم علمي بأنّه نائم ولن يرى رسالتي إلا صباحاً بينما يشرب قهوته، بقيت مثبّتة العينين على شاشة هاتفي. حين انكشف قميص النوم عن ساقي أسرعت في تغطيتها. لونها الأسود المختلط بالأزرق والأصفر أفزعني كأنّني أراها للمرّة الأولى. حين نهضت لأتقيّأ استيقظ أبي ووجدته واقفاً عند باب الحمام مخطوف اللون. كنت منطوية على نفسي، لا قوّة لديّ لأرفع جذعي. قال بلهجة من اتّخذ قراراً «غداً

ستر افقينني إلى المستشفى» أجبته إنّ المسكّنات ثقيلة على معدتي هذا كلّ ما في الأمر وأن ليس عليه أن يقلق. سمعت حركته بعدها في المطبخ. أطفأت اللمبة كي يظنّني غفوت. الحيلة لم تنطل عليه. جاء يحمل كوباً من البابونج. لم أرفض كي لا أجادله في أمر تافه كهذا. تركت الفنجان يبرد، دون أن ألمسه. حين كان يذكّرني به كنت أجيبه «بعد قليل». أردته أن يعود لنومه. لكنّه بقي جالساً عند طرف السرير. أمّا أنا فتظاهرت بقراءة كتاب كنت أقلّب صفحاته. سألني عن عملي. كذبت كالعادة. تردّد قبل أن يقول بأنه علم من أيلي. كان بإمكاني أن أخبره، لكنّني في أعماقي كنت أحسّ إنّها غلطتي. غلطتي في أن أبقى مشرّدة بين الأعمال التافهة، غلطتي في ألّا أنجح في أيّ شيء أفعله. قلت إنّني متعبة وأريد أن أنام. خرج مهزوماً كأنّه هو المريض لا أنا. لم أنم كنت أنتظر الصباح، بعد الثامنة عجزت عن البقاء دون حركة. كنت أمشي في غرفتي الضيّقة، أفكّر بأنّه أوصل ابنيه، هو الآن في سيّارته متوقّف أمام مبناه. بإمكانه أن يضغط الأزرار ويكتب. لم يفعل. كتبت له رسالة أخرى أقول فيها صباح الخير سام (اسم التدليل الذي أناديه به) أحبّك. قبلات وغمزات في ختامها.

لم يأت إلّا كريم على الموعد. كان الولد الوحيد الذي استمرّ أهله بجلبه. حين أتى والده لاصطحابه، قلت إنّني أريد أن أبلغه شيئاً. ادّعيت أنّني سأباشر عملاً يقتضي تفرّغي وأعطيته رقم هاتف زميلة لي مدحت كفاءتها. أجاب إنّ ابنه اعتاد عليّ ويخشى أن يبدأ من الصفر مع أخصائيّة ثانية. حين ودّعتهما وقف الأب في الباب وقال لي شيئاً استغربته وهو ألّا أزعل هكذا. ظللت أحلّل ما يقصده، ثم فكّرت أنّ وجهي ربّما بدا شديد التجهّم. بعدها ساعدت كلودا على إخلاء الغرفة التي لم أستخدمها إلّا في مرّتين. حاولت أن تقنعني بأن نُبقيها على حالها ربّما حصلت على مواعيد جديدة. لم أقبل. لم تعرف أنّني أنا من طلب من أهل كريم الكفّ عن إحضاره.

***

بعد خمسة أيّام من الصمت. كتب لي أخيراً. عبارة واحدة «نلتقي عند الخامسة عصراً أمام الجامعة.» لا قبلات ولا تحيّة. عبارة جافّة. لكنّني نلت كفايتي من التخمينات والتحليلات المحبطة. أردت ألّا أفكّر إلا بلقائنا. نسيت أنّني لا أملك إلا خمسين دولاراً وأنّ لا أمل في أن أجد عملاً قريباً.

لم يلوّح لي منْ بعيد. لم يبتسم. فكّرت أنّه لا زال على زعله. لم أفهم كيف يقوى على مجافاتي كلّ هذا الوقت. صافحني كأنّني من معارفه. قلت له على الفور كم أنا مشتاقة اليه ورفعت يدي بتلقائيّة إلى وجهه. لمست جبينه، جفل كأنّني صفعته. قال إنّه أوقف سيّارته في شارع محاذ. عادة يأتي إلى الجامعة مشياً ويترك السيارة أمام بيته. حين ركبنا السيارة اقتربت منه ووضعت رأسي فوق صدره. لم يلمس شعري كما يفعل عادة ولم يقبّل رأسي أو يمسك يدي. سألته إن كان لا يزال غاضباً منّي. أجاب إنّنا سنتكلم بعد قليل. شعرت بالرهبة لكنّني كنت عازمة على إصلاح الأمور. قرّرت قبل أن آتي ألّا أعود إلى لومه. بماذا أفادتني مصارحته؟

المقهى الذي دخلنا إليه فيه باحة مليئة بالأراجيح، والألعاب. جلسنا في الجهة الشمالية حيث لم يكن هناك أحد غيرنا. طلبنا بيرة. كنت أداعب زنده بيدي، وحين سحب يده ظننت أنّ السبب هو الندل الذين حاموا حولنا. قال إنّ الشهور التي تعرّف خلالها عليّ كانت أغنى لحظات حياته. يحسّ أنّه لم يكن عادلاً معي. قاطعته لأسأله لماذا هذا الكلام. قال لأنّني لا زلت شابة وحياتي في أوّلها. أما هو ... رجوته ألّا يقرّر بدلاً مني ما المناسب وما هو غير المناسب لي. وإن كان كلامي آذاه فليكن أكيداً أنّه لن يسمعه أبداً بعد الآن. قال إنّ الموضوع لا علاقة له بما قلته أو فعلته، لأنّ أيّ شاب قد يتمنّى أن أحبّه. كنت أحسّ بمجرى الحديث قبل أن يتمّه. لو ملكت القوّة حينها لنهضت وهربت. قال إنّ الواحد يفقد حريته حين يُنجب. حياته ملك لأولاده. موني تريد فرصة أخرى لإصلاح الأمور.

لا يحبّ أن يربطني بوهم. عليّ أن أكون أكيدة بأنه أحبّني بإخلاص... بعدها ما عدت أسمع. حين أتذكّر صمتي وهدوئي الظاهر، أتعجّب كيف استطعت ركوب سيّارته ومصافحة يده التي مدّها وهو يتركني عند السوديكو. لا أذكر كيف عدت إلى البيت هل مشيت هل ركبت سيارة. هل بكيت؟ لا شيء فراغ تامّ. أذكر ألماً كان يقطع صدري ومعدتي.

أيّام لا أدري عددها مرّت وأنا لا أغادر غرفتي. أطمر رأسي بالأغطية حين أسمع حركة أحدهما خلف الباب. أمي تشكو من خمولي، وتكرّر كلمات تتقصّد أن تصلني. تقول بدلاً من البحث عن عمل أنام طوال اليوم. بقيت أتفقّد هاتفي. لا شيء منه. كأنّني لم أكن يوماً في حياته. ليلاً أجلس في العتمة أنظر من نافذتي إلى الناس يأكلون وجبة متأخّرة في المطبخ أو على الشرفة. او يستيقظون بثياب النوم ويملؤون كوباً من براد الماء، أرى ضوءه يومض في العتمة. هناك شخص مثلي لا ينام، يقف في العتمة، مصابيح الشارع لا تكشفه على شرفته في الطابق السابع. أرى فقط سيجارته. ربّما هو أيضاً يرى سيجارتي ويتساءل بشأني. أسمع مواء الهررة وأصوات الساهرين العائدين عند الفجر، صوت الآذان وشاحنات توصيل البضائع. حين تبدأ الحركة في البيت، أطفئ الموسيقى. أغمض عيني، أحياناً يأتي النوم ومعه الكوابيس. البارحة عندما جاءت كلودا، لم تأبه بتظاهري بالنوم، هزّتني لتوقظني، حاولت أن تقنعني بالخروج معاً أو المبيت عندها. لم أجبها. الكلام صار صعباً، استبدلته بإشارات وبإيماءات حين اضطرّ للاجابة. قلّصت عدد السجائر التي أدخّنها. قريباً تنفد مني. سوسن أرسلت لي رقم هاتف امرأة قالت إنّها تدير مدرسة صغيرة لذوي الاحتياجات الخاصة. هي أخت صديقها. الأفضل أن أقابلها، لديها عرض قد يهمّني. لم أجب عن رسالتها.

* * *

قبل أن أفتح عيني شممت رائحة غريبة. جسمي كجبل من الاسمنت، أول شيء رأيته طرف لباس أبيض. ثم تذكّرت الدمّ الذي تدفّق من فمي. نظرت حولي، لم أكن في غرفة، كأنّني في ممر. ممرّضتان انشغلتا بالأشياء الموصولة إلى فمي وجسمي. حريق وألم لا يطاق. مددت يدي باتجاه النبريش. قالت الممرّضة على الفور «لا» ظنّت ربّما أنّني أريد نزعه. لو كان لديّ قوة لأرفع ذراعي لفعلت. بعد قليل دخلت أمي. لم أعرفها في المبذل الذي ألبسوها إيّاه. قالت باكية: كيف تخبّئين هكذا؟ كيف لم تقولي شيئاً؟ أرادت أن تنحني لتقبّل جبيني، صرخت بها الممرّضة الجالسة على كرسي قرب سريري «لا، لا تلمسيها». رافقتها الممرّضة إلى الخارج بعد دقائق قليلة. عادت برفقة أبي، لم أفهم لماذا يلبسون هذا المبذل. منه علمت أنني في غرفة العناية الفائقة منذ ثلاثة أيام. قال إنّني قريباً سأنقل إلى غرفة. حتى تحريك لساني في فمي كان يوجعني. شفتاي جافّتان كأنّهما متقرّحتان ، أحرّك عيني فقط لأردّ على أسئلته. قال إنّ كلودا بانتظار دورها لأنّ الزيارات غير مسموحة إلّا لنصف ساعة. من كلودا فهمت ما تسبّبت به جرثومة المعدة.

* * *

الطقس برد. العجوز التي تسكن في الجهة المقابلة لغرفتي ما عادت تخرج في الصباح لشرب قهوتها. في البداية أتعبني الهدوء . الآن اعتدته. حين أفتح عينيّ أرمي فتات خبز على حافة النافذة. عصافير ويمامات برّية لا تلبث أن تلتقطها بمنقارها وتطير عالياً ما إن أقترب لمشاهدتها. منذ شهرين لم أعد إلى بيروت. الغرفة التي أمكث فيها كانت تشغلها المديرة قبل زواجها وحملها. ظنّت عندما قابلتها في أنّني سأمانع في أن أعمل في مكان بعيد هكذا. قالت إنّ لديها غرفتين للسكن مجهّزتين باللازم إن رغبت في المبيت أحياناً. لم تعلم أنّها ستتحوّل إلى مسكني الدائم. أتأمّل الخدوش في ذراعي، أحدها غطى الندبة القديمة. غالباً ما يحدث ذلك أثناء نوبة غضب أحد الأولاد. لكنّ معظمهم لطيف ومسالم. مساء

أتمشّى إلى البلدة المجاورة لأشتري خبزاً وسجائر وخضاراً. هنا تعلّمت أن أعدّ بعض الأطباق. أقرأ وصفاتها على الأنترنت. أحياناً ألتقط صوراً لها وأبعث بها إلى كلودا. جاءت مرة برفقة أهلي لزيارتي. اصطحبتنا إلى جزين. أكلنا في مطعم قرب الشلّال.

المدرسة مؤلّفة من طابق واحد. قاعاتها القليلة فسيحة. أجمل ما فيها الشبابيك العريضة التي تطلّ كلّها على البرية. الأولاد يعتنون ببعض الحيوانات كالأرانب والعصافير. يزرعون الحوض بالخضار كالخس والبندورة والبقدونس وغيرها من الخضراوات. يساعدون أيضاً في سقايتها وقطفها. أشغل فراغي بالسير والقراءة. عمّا قريب يبدأ موسم الأمطار.

رسائل أصدقائي توقّفت. لم أحك بدوري مع أيّ منهم. من أمّي علمت أنّ كريستيل أرسلت دعوة لحضور زفافها. سوسن جاءت مرّة إلى هنا برفقة صديقها. مكثا وقتاً قليلاً قبل أن ينطلقا إلى القرى التي يحبّ تصوير أحراشها.

أحاول أن أصرف القليل من راتبي. أوفّر معظمه. أقول عندما يصبح لديّ ما يكفي، أسافر. لكنّني حتى الآن لا أعرف إلى أين. كنت سابقاً أفكّر بدراستي. الآن أحلم فقط بمكان بعيد كفاية عن كلّ شيء.

عصفور الدوري يلتقط فتات خبز وينظر نحوي. يطير فوق شجرة التوت ليعود بعد قليل إلى حافّة الشباك. العجوز قبالتي تخرج إلى الشرفة تدلق سطل ماء وتبدأ بالشطف. أمعس عقب السيجارة، أنظر إلى صورتي المنعكسة فوق زجاج النافذة. رذاذ خفيف يهطل بنعومة، نقط الماء تدخل عيني. شجرة الشربين تصفق بأغصانها حائط المطبخ. أغلق النافذة. أشرب الشاي الذي صار بارداً. هاتفي يرنّ طويلاً. صداه يتردّد في المبنى الفارغ. عجائز يمشون متّكئين على عصا أو على رفيق، ينقلون أقدامهم ببطء. يرفعون جذعهم ويقفون قليلاً لالتقاط أنفاسهم. ينظرون إليّ ولا

يرونني. أياد نحيلة مجعّدة تمسك بحقائب يد عمرها عشرات الأعوام. معظمهم من النساء. أجراس الكنيسة تحفّزهم على السرعة. حفظت أشكالهم وألبستهم التي أراها أحداً بعد آخر. أحياناً أبقى في مكاني ساعات. في آحاد أخرى أخرج للسير بين البلدات والقرى. أمرّ بساحات بمآتم وبأعراس. أجلس في مقهى يبيع مشروبات وبعض الحلويات. مروري ما عاد يثير الفضول القديم. أسمعهم يقولون إنّني البيروتية معلمة المعوّقين.

* * *

رائحة صنوبر وعفونة وأعشاب يابسة. الرذاذ الذي انهمر تشرّبته الأرض اليابسة المشقّقة. جلست على حجر كبير مطلّ على الوادي. سمعت أصوات نداءات بعيدة. منامات الليل أعادت إلي وجوهاً أردت أن أمحوها. تذكّرت الرسالة من مراسلي المجهول. كانت الأخيرة منذ ثلاثة شهور. كتب لي أن النسيان كالبنج. يسري تدريجيّاً في الجسم حتى يغيّب كلّ شيء. أحياناً أستيقظ خفيفة، كأنّ ضباباً انزاح عن قلبي. وفي صباحات أخرى، أحسّ كأنّني أركض لأهرب من ظلّي. لا أعرف ما الذي سيحصل غداً، لا أعرف ماذا أفعل في هذا الأحد الطويل. أشعل سيجارة ثم أقذف حصى بطرف حذائي. تطير بعيداً وتسقط في قعر الوادي.

صدر للمؤلّفة

1 - بورتريه للنسيان، المركز الثقافي العربي، 1994.

2 - شتاء مهجور، المركز الثقافي العربي، 1996.

3 - بيوت المساء، دار الجمل، 1997.

4 - البئر والسماء، المركز الثقافي العربي، 1997.

5 - العابر، المركز الثقافي العربي، 1999.

6 - بلاد الثلوج، المركز الثقافي العربي، 2001.

7 - بيروت 2002 ، المركز الثقافي العربي، 2003، طبعة ثانية 2007.

8 - أيام باريس، المركز الثقافي العربي، 2005.

9 - صلاة من أجل العائلة، المركز الثقافي العربي، 2007 ، طبعة ثانية 2009.

10 - حياة قصيرة، المركز الثقافي العربي، 2010.

11 - رسالة من كندا، التنوير، 2012.

رينيه الحايك

سنة الراديو

ما أحبّه في هذا المقهى أنّه لقاء فنجان واحد من القهوة أستطيع أن أمكث ساعات.

أخرج من البيت ما إن أنهض من نومي. ما عاد أبي يسألني إلى أين أنا ذاهبة أو متى أعود. يعلم أنني سأدمدم: «لا أعرف».

حاول هو وأمي بعد الحادث أن يزيدا من الضغط عليّ بالقول: «ألم يكفك ما حصل لنا بسبب استهتارك؟».

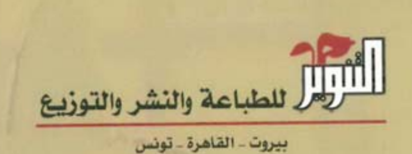
لا أفهم أيّ منطق يجعلهما دائماً ضحية.

في صغري كنت أحبّ كل القصص التي يكون فيها البطل إمّا يتيماً أو يهرب من منزل أهله.

رينيه الحايك، روائية لبنانية، من أعمالها:

- **البئر والسماء**، المركز الثقافي العربي، 1997.
- **العابر**، المركز الثقافي العربي، 1999.
- **بلاد الثلوج**، المركز الثقافي العربي، 2001.
- **بيروت 2002**، المركز الثقافي العربي، 2003، طبعة ثانية 2007.
- **صلاة من أجل العائلة**، المركز الثقافي العربي 2007، طبعة ثانية 2009.
- **حياة قصيرة**، المركز الثقافي العربي، 2010.
- **رسالة من كندا**، دار التنوير، 2012.


ISBN 978-977-6483-46-0



بيروت - القاهرة - تونس